

كرمان صر القديمة

تأليف: سيرج سونيرون
ترجمة: زينب الكردى
مراجعة: د. أحمد بدوى



الهيئة العامة للكتاب

١٩٧٥

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

**LES PRETRES
DE L' ANCIENNE EGYPT**

**par
SERGE SAUNERON**

مقدمة

فى انتظار السائح على شواطئ النيل مفاجئتان ،
المتحف المصرى ليعرض بين يديه روائع الفن المصرى ،
ذلك الفن القديم قدم التاريخ ، الجميل الكامل الجمال
بعيث يفوق فى ذلك سائر ما أخرجت للوجود حضارة
الاعريق وما تلاها من حضارات أخرى فى أبهى عصورها .
والثانية حين تمضى به أيام الزيارة ليطلع على آثار
السلف من آل فرعون وليرى أنها انما انشئت كلها
لأغراض دينية ، فهو حين يسعى بينها متنقلا من روابى
الجيزة الى صخور الشلال ، وبين ظلال النخيل فى
منف ، وفى وادى الملوك الجاحم ، أو فى هدوء اللون
بجزيرة الفيلة ، ذات الأشعة البيض - يواجهه تلك
الحقيقة فى كل ما يشهد من أثر وفى كل زورة متكررة
لهذا الأثر .

فالأهرام ، ودور العبادة وقبور الموتى وسائر ما أقيم
« من أجل الخلود » بل كل ما ثبت لعوادي القرون كان
من أجل عبادة الأرباب ، والأمل فى تخليد البشر .

والغالب أن حب الخلود لم تتضح آياته بمنل هذا
البيان وبمثل هذه القوة البالغة المؤثرة فى أى بلد
آخر . فالدور والقصور وسائر ما خصص لأغراض
الحياة الدنيا من عمائر ، قد كانت كلها مؤقتة يكفى
لبنائها اللبن ، ولذا نجد أنه لم يتبق من عمائر الدنيا
شئ أو أن ما بقى منها شئ يسير .

فأما فيما وراء هذه الدنيا وهناك حيث يستطيع الأحياء
أن ينطلقوا بآمالهم وراء الخيال الحلو بحثا عن النعيم
فيما وراء هذه الشكول المخلوقة التى يبتلعها الظلام
إذا ما كان الليل ليلفظها إذا ما كان الصباح مجددة
الطفولة ، .. هناك يستأنف الناس محاولة احساسهم
بالمجهول وآمالهم : فيه يلتمسونها فى عالم لا نهائى
لا حدود فيه للزمان والمكان ، هناك حيث يظهر الآلهة
- ومن تبعها من المؤمنين الذين بلغوا رجاها - على الغامض
من تلك القوى التى سبقتهم الى هذا العالم ، فيظلون
فى سرور دائم ونعيم مقيم وشباب لا يدركه مشيب .

وهم من أجل تلك القوى الالهية ، وفى سبيل ما نخلوا
من كائنات لا صلة بينها وبين الزمن، قد رأوا من مقتضيات
ذلك تشييد منازل تبقى ما بقيت الأرض التى تحملها .
فالأهرام ودور العبادة لديهم لا تزول ، وإنما نظل
كالأوتاد التى قدت منها الصخور لبنائها ، والقبور التى
نحتت من الجبال ينبغى أن تشارك صخورها فى
الخلود .

وأول ما يفوق عليه السائح من دهشته تلك التي أخذته من جميع أقطاره هي تلك الحقيقة التي لا يتورها لديه شك ، وأيتها أن المصريين القدماء قد كانوا أكثر الناس دقة في التدين ، وتلك مع ذلك معاينة لا تكفى لتقديم مفاتيح الكشف عن حضارة الفراعنة • فالخطر - على ما أفاد السائح من زيارته - شديد أن هو تصور أن المصريين القدماء جد قريين منا •

وقد لا يكون هناك شك في أنه ليس هناك ما هو أكثر عصرية من تلك الرؤوس الآدمية المشككة من الحجر ، والتي وجدت في مصاطب الدولة القديمة ، ولا من ذلك التمثال النصفى للملكة « نفرتيتي » ، بل ليس هناك ما هو أشد حيوية وأصدق إنسانية من صور مناظر الحياة اليومية التي تنتشر على صفحات القبور في جبانة صقارة وجبانة طيبة في أطر مطمئة ، بل ربما لا يكون هناك كذلك ما هو أشد إيلافا من ذلك القصص الشعبي على شواطئ النيل •

ويجب كذلك أن ندخر في تصورنا أن المصري القديم قد كان إنسانا يشبهنا في كل شيء ، وأن لحضارته أسسا تشابه ما لحضارتنا من أسس • وأن خواطره في عالم لم يتم إدراكه بعد ، قد كان تصورا سابقا لما سيكون عليه التفكير الحديث •

ولكى ندرك حقيقة مصر القديمة يجب علينا أن نجرد أنفسنا من فكرة الوقوع فيها على ثقافتنا وميولنا •

بتلك المقومات الأساسية لحياته الفعلية ، وبعدد قدرته التي لا يمكن إخضاعها لمجال الفكر المجرد ، وباعتقاده الساذج في كمال عالم خلق للبشر وصور على قده •

ونريد أن نتحدث عن حضارة البحر المتوسط فنسلك
* فيها كل ما هو جميل وجليل من تراث الأجيال حول هذا
البحر . ولكن حين يبلغه النيل بمصابه السبعة ، يبلغه
مخلقا من ورائه على البعد حضارة مصر بكل ما فيها
من مظاهر أصيلة . والبحر المتوسط بالنظر الى ما حوله
من أقاليم فينيقيا وقرطاجه واليونان وروما قد كان مجمع
لقاء وملتقى صلات بشرية وسبيلا للبدل والتجارة
والغزوات الحربية ؛ بل كان مركزا يتوسط عالما يتطلع
بعضه الى بعض من شاطئ الى شاطئ . . فأما بالنظر
الى مصر فقد كانت على العكس من ذلك تعتبر حدا لعالم
أفريقي . ولقد نجد - لذلك في تجليات Ogotemméli
أو «فلسفة البانتو» - ما يمدنا ببعض العناصر القيمة التي
تعيننا على ادراك بعض مظاهر التفكير الدينى في مصر
القديمة ، وعكس ذلك ماثل فيما يختص بمطالعات
أفلاطون فنحن لا ننتظر منها في هذا المجال شيئا يذكر ،
أو قد نتوقع أقل القليل .

ونحن نخطئ كذلك أشد الخطأ حين نرى في الحضارة
المصرية مرحلة غير كاملة للتطور البشرى في العصور
الاغريقية اللاتينية ؛ بل يجب على العكس من ذلك أن
ندرك أن الأمر أمر تطور بشرى ينفصل انفصالا تاما عن
تطور البشر في الغرب ، وأنه من ثمار حياة مجتمع لاصلة
بينه وبين مجتمعنا وإن كان قد استطاع أن يخرج في
مجال الحضارة نتاجا يعادل في قيمته نتاج الحضارات
الأخرى .

ولو رضى السائح بالتخلي عن غروره العصري بعض
الوقت ، ونسى المقارنة بين معبد الأقصر والكاندراية

وبين فرعون ورئيس دولة عصرى ، أو بين ضريح فرعون وقبر نابليون ؛ نقول : لو رضى بذلك بعض الوقت فى سبيل فهم ما كان من أمر العقيدة المصرية لاستطاع اذن أن يدرك أن تلك الكائنات المقدسة التى عبدت فى مصر لا يمكن أن تشارك فى غير التافه اليسير من أمر أرباب أولمب وشعر الندب عند الاغريق وشعر النهضة (أيام القرن السادس عشر) ، وانها قد تشارك بأقل من ذلك ارباب اليهود والنصارى والمسلمين . وسوف لا يدهشه بعدئذ ان يرى فى القبور تمجيذا لقوى الحياة ، والقوى المقدسة التى تتجلى فى كل شئ . يقدر على الحركة والعمل وانه لمستطيع كذلك - وهو ينتقل بين دور العبادة - ان يدرك كل ما كان هذا العالم الرائع - وان يكن غير ثابت - يقتضيه من ضرورة اليقظة والعناية ليحتفظ بثباته الاصيل .

على ان هناك أكثر من سبيل للنفاذ الى صميم حياة المصريين القدماء ، وفى كل منها صورة من مظاهر حياتهم اليومية أو بعض الخطوط الرئيسية لتقاليدهم ، أو بعض أحداث من تاريخهم القومى .

الباب الأول



فِكْرُ مَسْتَوْجَاهٍ مِنْ
نُصُوصِ قَدِيمَةٍ غَيْرِ مَخْتَارَةٍ

فكر مستوحاة من نصوص
قديمة غير مختارة

من الزائرين الجوالين فى المتاحف لم يقف لحطاب
أمام تماثيل الكهان الرائعة التى أبرزتها للوجود عصور
الفن المصرى الأخيرة ؟ فوقار الهيئة ، وكمال الصنع وجمال المسادة
سواء كانت من البريشيا أو من اردواز داكن اللون ، كل أولئك قد
جعل من هذه التماثيل صنعة فريدة فى نوعها ولكن ما قيمة هذا
التوفيق تجاه ما تخفى هذه الوجوه المثيرة من أسرار ، وأى أفكار
تختفى تحت هذه السمات الهادئة ، وأى مشاهد طالعتها تلك
العيون الرائية التى لا يسعفها بالحياة شئ من سوء جوانى ،
وحين نقلب فى النصوص مسرعين تطالعنا صور من صيغ المديح
مثل : « كان رجلا أميناً على ما يرى (= حفيظاً على سر ما يرى)
عالماً (= عارفاً) قادراً (على أداء) وظيفته ، محبوباً من مواطنيه ،
مرموقاً ، تحفظ له مدينته قدره مدلاً عند أبيه ، وأثراً عند أمه ،
وحبيباً لدى إخوته . » تتردد تلك العبارات الجميلة ، على سائر
التماثيل وقواعدها . وقد تتغير الفاظ التعبير أحياناً بقصد

تمجيد بعض المظاهر في ترجمة المتوفى ، وإن كانت جميعها تؤكد ما كان له من سمو الصفات الاجتماعية ورقى المشاعر الروحية .

وهكذا ينبعث أمام أعيننا طرف من الحياة القديمة ، فمصباح تلك الصور الجامدة - وهى تمسك بين أيديها تمثال الهيا وتشده اليها (تضمه اليها) فى حب أكيد - وكأنها من لحم ودم ، وينم وقار الوجوه بما ارتسم عليها من بساطتها الرقيقة ، عن روح صفو يتجه كله نحو أمور ما وراء الموت والاستماع المتصل الى التعاليم المقدسة ، وانه لبيدو كأننا نستمع الى الكاتب الاغريقى القديم (Porphyre) وهو يصف - فى اعجاب - الكهان على ضفاف النيل فيقول : « انهم يبلغون بتأملهم ما ينبغى لهم من التقدير ، واطمئنان النفس وتقواها ، وهم يصلون بالفكر الى العلم ثم « بالاثنتين معا (= بكليهما) الى ممارسة السلوك الممتاز الذى سنته أساليب الماضى » ، والاتصال الدائم بالعلم والوحى المقدس يصفى النفس من البخل « ويكبت فيها جماح الشهوات ، وينشط حيوية الذهن ، ثم هم يتوخون البساطة ، فى كافة مظاهر الحياة من طعام ولباس ، ويميلون الى القناعة ، وخشونة العيش ، والعدل والزهد فى كل شئ ، خطواتهم محسوبة (= مقدره) ونظراتهم متواضعة وهادئة ؛ لا انحراف فيها الى يمين أو شمال . والضحك نادر لا يكاد يعدو الابتسامة ، (= لا يعدو أن يكون ابتساما) وأيديهم مختفية دائماً تحت مسوحهم . فأما النبيذ (الخمر) فمنهم من لا يشربه إطلاقاً ومنهم من لا يصيب منه غير القليل ، ذلك لأنهم يقولون : ان الخمر تؤذى الشرايين وتدير الرأس فتفقده القدرة على التصويب Porphyre, de abst. IV, 6-8

وظاهر أن ما يحسه الزائر أمام التماثيل ، وما شهد به (Porphyre) يقدمان لنا صورة جذابة للكهنة المصرى وأمام الانجازات الفنية فى وادى النيل ، ومعابده ، وأهرامه ،

وامام وضوح الاعتقاد الدينى الذى نستشف مظاهره من كل ما
ينتزع من رمال مصر .

وان المرء ليسره أن يستحضر ذكرى طائفة من عطاء الرجال
الذين كرسوا حياتهم للعمل والتأملات الالهية بحيث وجد لديهم
رعايا الفراعنة القدماء - على الدوام - الهاما لفنونهم وتوجيهها
لحياتهم . افلا يكون من المنطق بعدئذ ان ننظر فى حياة الكهان على
ضفاف النيل وفى ثقافتهم والبواعث الجوهرية التى ألهمت القوم
ذلك القدر . الهاما ممثلا فيما بقى حتى اليوم من تراث الدولة
القديمة فاذا ما قلنا فى صفحات التاريخ القديم ، ونظرنا عابرين
فى ما جاء فى الألواح والآثار الدينية ، واستعدنا قراءة روايات
الرحالة الاغريق والرومان الذين ساحوا فى مصر خلال عشرين قرنا
قبل أبامنا ، فسوف نحاول أن نستظل مندسين بجوار أولئك
الكهان ، الذين مازلنا نراهم غامضين ، ولسوف نمضى مع أفكارنا
فى حذر وكتمان فى آن معا ، أملا فى لقائهم ، نتبعهم محومين كما
تفعل أرواح المصريين القدماء فتأتيهم فى هيئة الطير ، وتلبث
بجوار أشخاص كانوا يؤلفون فى الماضى ، وسيكون « بتوزيريس »
الحكيم أول من نرافق منهم .

حياة بتوزيريس المثالية :

هناك فى مصر الوسطى وبالقرب من « ملوى » مدينة عربية
ضاربة فى القدم كانت مكرسة للمعبود « توت » . (وهى)
هرمو بوليس الكبرى وتراثها مطمور فى أكوام من الأطلال
تضم مختلف جدران من اللبن ، وطائفة من الأبنية الفرعونية وقد

غمرت المياه جزءا منها . تم بازيليكاً رومانية كبيرة وجميلة - وتحت
باسقات النخل يقع ذلك المكان المقدس أى الأصل ذلك الذى انبعث
منه الحياة وانفقت عليه البيضة الأولى مهدأ لأنه الشمس .

هناك عاش الحكيم بتوزيريس فى أواخر عهد مصر الفرعونية
(اى مصر الحرة) وقبيل وصول الاسكندر الأكبر (بين
٣٥٠ - ٣٣٠) . وكان (بتوزيريس) شخصية رقيقة فى المدينة ،
يحمل من الألقاب أكثرها تقديرا : « كبير الكهان » الذى يرى الاله
فى ناووسه ثم يحمل ربه ويتبع ربه وينتقد الى قدس الأقداس
ومارس وظائفه « الكهنوتية » مع كبار الكهان كاهنًا للأرباب
الثمانية الأوائل (الثامون) ورئيسا لكهان « سخمة » ، ورئيسا لكهان
الطبقة الثالثة - والرابعة ، وكاتباً ملكيا أى وزيراً وحسيباً على
أملك معبد هرمبوليس كافة . الخ .

وقد جرت حياته كلها فى سبيل التقوى منشغلاً بخدمة الاله
واصلاح العماثر المقدسة فى اقليمه ومثالا صالحا لمن يحيون حياة
الطهر . وحين وفاته دفن فى صحراء هرموبوليس وسط أمواج
الرمال الأصفر ، وغير بعيد من المكان الذى كانت ترتع فيه القردة
وقبور أبى منجل البيضاء ؛ وكانت من مقدسات المعبود « توت » .

وفى أحد أيام الشتاء من عام ١٩١٩ عثر على مقبرته وكانت
قد أقيمت على غرار معبد تغشى جدرانها طوائف عديدة من النقوش
والنصوص وتدل بعض المخربشات التى تركها الزائرون الاغريق
على سخور المنطقة خلال القرنين الثالث والثانى ق.م على أن كبير
كهان توت كان لا يزال ذائع الشهرة ، معروف الفضائل يومئذ وان
ذلك قد تجاوز حدود مدينته الضيقة . جاء فى أحد تلك النقوش ،
« اننى أدعى « بتوزيريس » ، الثاوى جسده تحت الأرض ، على

حين تستقر روحه فى رحاب الآلهة ، وأنا حكيم يجتمع (يتحد) مع الحكماء » .

وتكشف نفوش مقبرته طائفة من الفكر مستوحاة من الفلسفة والدين تقارب بشكل ملحوظ فى الفكر والعبارات المصوغة بها ما فى التواره من الأمثال والحكم ، ثم المزامير وتقرب قليلا فى أسلوبها من الكتب المصرية القديمة فى الحكمة ، مثل كتاب « بتاح حتب » وآنى .

ولو أعيد جمع نصوص مقبرة « بتوزيريس » لكان من الممكن أن تزودنا بما يصح أن نسميه « مجمع الحكم » التى خصصت للأحياء لتشرح لهم ما فى الحياة الدنيا والآخرة من منافع وخيرات يهتدى إليها أولئك الذين يخشون ربهم ، ويهتدون بهديه ويأترون بالمره .

ولنقرأ اذن معا هذه النصوص الأربعة الهامة التى قام بجمعها العالم الذى كشف عن المقبرة وقام بنشر محتوياتها من النصوص فى دقة واتقان ونعنى جوستاف لوففر M.G. Lefebvre .

« ألا أن من يمشى على نهجك لا يتعثر ، فمنذ وجودى على هذه الأرض الى اليوم الذى وصلت فيه الى (بلغت فيه) عالم الرشيد وحديثى خلو من الضلال » .

أيها الأحياء ... لو وعيتم ما أقول ، واتبعتموه ، فسوف تفيدون منه خيرا ، أن سبيل من يخلص نفسه لله فيه صلاح ، وطوبى لمن يهديه قلبه اليه . ولسوف أنبئكم بما وقع لى ، واجعلكم تدركون (الحكمة) مما يريد الله . وسأعمل على ادخالكم فى مجال الروحانيات الربانية . واذا كنت قد بلغت هنا مدينة الخلد ، فقد كان السبيل الى ذلك أننى عملت صالحا فى الدنيا ، وأن قلبى قد هوى

الى سبيل الله منذ طفولتي حتى اليوم وكان توفيق الله يلازم نفسي طوال الليل ، كما كنت أعمل طبق أمره من مطلع الفجر ، ولقد مارست العدل وكرهت الظلم ، ولم أعاشر من ضلوا سبيل الله . . . ولقد فعلت هذا كله لأنى كنت واثقا من اننى سوف اصير الى الله بعد مماتى ، ولأنى آمنت بمجىء يوم قضاء العدل ، وهو يوم الفصل ، حيث يكون الحساب .

أيها الأحياء لسوف أجعلكم تعرفون ما يحب الله ويريد ، ولسوف اهديكم سبيل الحياة الحقة ، وهى السبيل الصالحة لمن أطاع الله . . . طوبى لمن يهديه قلبه اليها . وان اطمأن قلبه الى سبيل الله اطمأن مكانه فى الأرض . الا ما اسعد من ملأت خشية الله قلبه فى الدنيا .

ان من الواجب سلوك سبيل الله ، ذلك لأن الخير الذى يصيب من سلك هذه السبل كثير من اتبع سبيل افى فقد أقام بنفسه لنفسه على الأرض بناء لذكراه ، ومن يلزم سبيل الله يفيض حياته كلها فى بهجة ويفيض عليه الخير أكثر مما يفيض على سائر أقرانه ، ولسوف يعمر فى بلده وانه لموثر فى اقليمه ، ولسوف تترعرع أعضاء جسده ، فتصير كأعضاء جسم الناشئ (الصبى) ولسوف يكثر صفاره فى عينه عسدا ، ويكونون الأوائل (= المقدمين) فى بلدهم ، ويتتابع ولده جيلا بعد جيل . واخيرا يبلغ الجبانة فى غبطة كاملة فى أجود تحنيط من صنعة أنوبيس « على حين يبقى ولد ولده فى مكانه و . . . الا انك سلكت سبيل معلمك » توت « وهو بعد أن كتب لك ما أراد لك أن تنال فى الحياة من خير ، سوف يجزيك مثله بعد مماتك » ، وبعد فتلك تحف من الروائع . فمن استطاع أن يترجم خواطره الرائعة على هذا النحو فقد وصل الى حياة روحانية مرموقة ، ومع ذلك لم تكن مدينة هرموبوليس الكبرى فى منتصف القرن الرابع ق.م من أهم مدائن

مصر ، وكان المجتمع الدينى فيها جد محدود وبيوت العبادة مهجورة ولذلك فان المجال المادى لتربيته وقرب المدارس الدينية التى كان من الممكن أن يروقه أسلوب التعليم فيها غير كافيين لتفسير ما فى تقواه من سنمو ، وما فى حياته السلوكية من كمال . اليس من المدهش أن تبلغ الحمية الدينية كاهنا مثل هذه القيم الروحية دون التأثير بأى تقليد كهنوتى فعلى .

ولم يكن الأمر كذلك - مع الأسف - على الدوام ومن هنا يجب الاعتراف بأن پتوزيريس وبعض الشخصيات الأخرى التى وصلت إلينا تراجمهم ، انما تميزوا فأشرقوا فى مجال باهت نوعا . . والواقع أننا لا نكاد نعرف عن الكهان المصريين غير أسمائهم وثبت ألقابهم ولكننا لا نستطيع أن ندير شيئا من الحديث حول حياتهم أو ما يبدو فى سلوكهم من التقوى . فنحن نستشف أحيانا من خلال بعض الحوادث من المحفوظات البردية بعض مظاهر الحياة الكهنوتية تخالف تماما ما كان يمكن أن ننصروه ، فقد يكون المظهر بهيجا الا أن جوهره محزن ويدعو للرناء فى آن معا . فإذا ما نظرنا الى أكثر الكهان فى مصر ورأيناهم عمالا مكرمين ، مدركين أهمية واجبههم ، مهتمين بانجاز هذا الواجب فى أمانة وحرارة إيمان ، وإذا ما بان لنا أن هذه الطائفة كان فيها أحيانا قديسون أو شبه قديسين ، فجدير بنا أن ندرك أنها لم تكن تخلو بين الحين والحين من شخصيات عجيبية ومردولة فى آن معا .

وينبغى ألا يخفى علينا أسلوب اختيار الكهان المصريين ، فقد كانت الأسر العريقة التى تربطها التقاليد بحياة مدنها الدينية تقدم بين أجيال الكهان طوائف من الصادقين فى إيمانهم ، المؤمنين بجلال وظيفتهم وبقداسة الخدمة الربانية . على أن وظائف العبادات لم تكن كلها تشغل بنفس الطريقة . فلقد كان يكفى أحيانا أن يكون الكاهن الجديد من ذوى الحظوة لدى الملك ليعين

فى وظيفة شرفية فى أحد المعابد البعيدة • فإذا ترى كانت قيمة ما يدرك هذا الكاهن من واجبه وتحمسه للعمل على أدائه ؟

وقد كان يكفى فى بعض الأحيان أن يكون امتلاء المحفظة كفيلا بشراء وظيفة الكاهن ليستمتع فيها - دون عناء - بربح يرضى •

ولا ينبغي أن ننسى آخر الأمر شيئا هاما وهو أن هؤلاء الكهنة لم يكونوا يمارسون وظائفهم الا لمدة زمنية محدودة قد تبلغ ثلاثة أشهر فى العام ؛ نتيجة لتعاقب الطوائف العاملة • وخلال الثلاثة الأشهر التى كانت تفصل بين كل شهر وشهر من أشهر العمل كانت حياة الكهنة المدنية البحتة تسير بعيدا عن مذايح القربان • فبماذا اذن كان يتميز هؤلاء الكهنة عن غيرهم من سكان قريتهم ؟

ان النبذات القليلة التى سنذكرها عن الحوادث الآن لم تجمع لهدم الفكرة الرائعة التى قد نميل للاحتفاظ بها عن (الكاهن المصرى) ، بل ان هذه النبذات قد تجنبنا التعميم العاجل •

فالكهنوت المصرى كانت وظيفته مدنية مباحة الى أبعد الحدود، الى الحد الذى جعل منه مرآة تعكس كل مظاهر المجتمع الطيب والسئ ، ومن ناحية أخرى فان الكهنة لم يكونوا أصحاب رسالات الهية لمن يتبعونهم من الاتقياء ؛ بل كانوا مجرد منفذين لطقوس دينية يومية كانت تتم بعيدا عن عيون الجماهير • وسوف نرى أنه كان للمرء أن يكون على حظ ضئيل من التأهيل يتيح له الانخراط فى سلك « المطهرين » • وقد يفسر عدم الاختيار لتلك الوظائف بعض الفصول العجيبة فى تاريخ الكهنوت •

وقد يفسر لنا عدم الاختيار لتلك الوظائف بعض الفصول العجيبة فى تاريخ الكهنوت •

فضيحة الفتنتين :

فلننتقل الآن الى جنوب مصر بالقرب من الشلال ، حيث المدينة المعاصرة «أسوان» التي حلت محل الوكالات التجارية القديمة والتي كانت تصل اليها كنوز أفريقيا . وفى الصخور الرابية تفتح مقابر أمراء الدولة الوسطى مشرقة . وإلى الجنوب يتراءى خزان أسوان من وراء جزيرة فيلة كزهرة الماء يغمرها الفيض كل عام . وفى الجبل الجرانيتى تقع المحاجر القديمة التى قدت منها المسلات والتماثيل . وفى وسط النيل جزيرة صغيرة جدا مازالت تحمل بعض الأطلال وقرية لطيفة وساقية تدور تحت ظلال النخيل . وعلى هذه الجزيرة الساحرة حيث تتهاوى الزوارق ، كان يقوم فى الماضى معبد للاله « خنوم » الكيش سيد الجندل وحارس الخزانات التى تقع تحت الأرض حيث كان الفيضان يتفجر فى الوقت المناسب . وسنعيد هنا فتح ملف قضائى عمره ثلاثة آلاف سنة . اذ أن هذا المعبد الهادئ الذى كان تحت حكم كل من رمسيس الرابع والخامس (١١٦٥ - ١١٥٠ ق م) قد شهد مآسى مظلمة .

ترى كيف كانت الظروف ؟ يمكن تلخيصها فى بساطة : كل شيء كان سيئا . اذ كانت مصر قد شهدت ازدهارا كبيرا بعض الشيء فى ظل آخر الملوك الكبار « رمسيس الثالث » بعض عشرات السنين قبل أيام رمسيس الرابع والخامس . ولكن كان هذا الملك العجوز قد قضى فى الغالب بسبب احدى مؤامرات حريمه ومنذ ذلك الوقت سارت البلاد بغير زمام يحكمها ملوك لا يملكون سلطة حقيقية ويحكمها فى واقع الأمر أولئك الانذال الطامعين الذين كانوا يرون فى الكساد القومى فرصة للقيام ببعض « الأعمال » المربحة لهم .

وكانت أسوان تعيش خاملة ؛ فمنذ فترة اختفى مرور القوافل النوبية الغنية المحملة بالذهب والعاج من بلاد الجنوب والتى كانت

فيما مضى زاهية تتألق فيها ألوان الأقمشة البربرية وريش النعام التي يحملها أفراد من الرنج يزدانون بالذهب ، والحيوانات الغريبة من قروود وزراف وفهود كانوا يجلبونها من الغابات الافريقية هدية لفرعون ، وكانت التجارة قد أصيبت بضعف وكانت تلك القرية الصغيرة تغط في نومها وعلى العكس من ذلك كان معبد الاله خنوم لا يزال على ثرائه نتيجة لكرم الملوك منذ عدة سنين مضت .

في هذا الإطار الهاديء المستكين الى حد ما ، قام بعض الأشخاص من الفجسرة بالبحث عن الثروات . وكان بعض كهنة معبد خنوم الذين اتبعوا في نشاط قائد عصابتهم « بن عنقه » وواحدا من البحارة العتاة .

وقد اشترى هؤلاء الأشقياء الممعنون في الشر السلطات من الكتبة ورئيس الشرطة ببعض اسلابهم وأثاروا الرعب في المدينة بالضجة التي أثارها حرائمهم . ومع ذلك فبعد مضى بعض الوقت أخذوا بجرائمهم وقد عثرنا على تفاصيل فظائعهم في الملف القضائي الذي حرر في هذه المناسبة وهذه هي بعض وقائعه .

بدأت الحادثة بالقرب من المعبد : فقد قرر « بن عنقه » رئيس العصاة ان الحيوانات المقدسة لم تعد بذات نفع لذلك فقد باعها بثمان غال لكهنة ولأشخاص من العسكريين المجاورين ثم حدث أثناء رحلة الى طيبة أن اقحم في أمر غامض يدور حول نبوءة الاله مما سبب له بعض الفشل . وحتى يزرقه عن نفسه أسرع فأغرى مواطنين متزوجتين .

ولقد كان من الممكن اعتبار كل ذلك ضرباً من العبث المقبول الا أنه لم يلبث حتى قام بعد ذلك ببعض أعمال جادة فلم يكن المعبد يخلو من كل أنواع الشراء الذي كان في نظره عديم الفائدة كوجود القطيع من الحيوانات المقدسة لابن عنقه مما سبب له

ألا أنه لم يلبث أن قام بعد ذلك ببعض أعمال جادة فلم يكن المعبد يخلو من كل أنواع السراء الذى كان فى نظره عديم الجدوى ، ومن ذلك وجود قطيع من الحيوانات المقدسة لابن عنقة فسطا على تيمية ثمينة كانت فى المعبد ، وعلى كل محتويات صندوق ثمين ، كما أفرغ خزانة الأقمشة مما فيها . وحين انتهى من ذلك وظهر سخط الكهان بادر بالاتفاق مع شركائه فى الجريمة على تغيير العاملين فى المعبد ، وأبدلهم بكهنة أوسع صورا بالنسبة لمشاكل الساعة ، ويدل بعض الذين اعترضوا وقطع أذنى أحدهم وفقاً عينى آخر واستولى خلال ذلك كله على عشرين ثورا كانت من وقف المعبد ثم أشعل النار فى بعض الأبنية ليحتفظ بحالته النفسية جيدة .

أما الكهنة الآخرون وفد كانوا لا يملكون شيئاً من وسائل العبث المليئة بالحيل المختلفة والتي كانت سر اعجاب الناس بزعيمهم ؛ بل كانوا على العكس من ذلك يتميزون بعقلية عملية جادة فى أن معا فعمدوا الى خطف ما كان فى خزانة الالهة « عنقة » ، وترأى لناظر المعبد الذى كان يقوم بدور المدير ، أن من الخير أن يظهر غضبه الا ان قسدا ضخما من الكسب جعله يرى من الخير أن يتساهل وازاء مثل هذا الاغضاء من الأوساط الرسمية أخذ الكهنة يعززون أنفسهم عن فقد ما اضطروا الى تسليمه لزعيمهم بكسر اختتام خزانة الاله ، وأخذوا يغتربون منها فى غير حرج أكياس القمح وقطع القماش والملابس ومهمات أخرى سرعان ما وجدوا السبيل الى الافادة منها .

ومع ذلك فلم تبقى البطولات بدون صدى ؛ فقد بلغت احتجاجات من كانوا ضحية هذا العبث المنكر أولى الأمر ، فأجرى تحقيق حفظت لنا نسخ منه . ولكن كيف كان حكم القضاة ؟ ان النص لم يفصح عنه مع الأسف ، ولكن بعض المخربشات المنقوشة على صخور الجندل الأول خلال السنوات التالية تبين أن بعض الكهنة الذين

ذكرت أسماؤهم خلال القضية وأدينوا بشكل قاطع ، لم يتسبب ذلك فى القضاء على سيرتهم اللامعة .

لم تكن الصلاة ولا التأملات الدينية اذن هى وحدها التى تشغل بال الكهنة المصريين . ونشعر من أجل ذلك بأننا بعيدون عما قرره پورفير وعن الطمأنينة التى أحسسنها من قبل ونحن نقرأ على قواعد تماثيل الكهنة تراجعهم المقدسة .

وإذا ما أدرنا بعض الريبة من ذلك المظهر الذى لا ينتظر من حياة الكهان ، فما أسرع ما يزول ذلك عندما تطالعنا سيرة أسرة پتيزيس ، فقد كانت مثلاً طيباً يحتذى .

كوارث پتيزيس :

حوالى عام ٥١٢ ق.م . خطر لشخص اسمه پتيزس وهو سليل احدى الأسرة الكهنوتية - وكانت فيما مضى ذات سلطان واسع - أن يكتب تاريخ الحصام الذى قام بين أسلافه والكهنة الاقليميين للاله آمون قرابة قرن ونصف قرن . وقصة ذلك طويلة جداً وكثيرة التفاصيل وها هى تفاصيلها الكثيرة موجزة فى كلمات قصار .

ارتبطت عائلة پتيزيس من الأصل بالكهنوت الطبى ثم جاءت لتستقر فى قرية صغيرة من قرى مصر الوسطى وهى « توجوى » المعروفة الآن بالحبيبة حيث كان يوجد معبد للاله آمون . وقد كان ذلك أثناء حكم الملك پسماتيك الأول (٦٦٣ - ٦٠٩ ق.م) وهناك عاشت الأسرة من الرواتب المخصصة للوظيفة الكهنوتية الرسمية التى كان صاحبها الشرعى - وهو موظف كبير من أهناسيا - قد منحها حق الانتفاع بها .

ومن هنا جاءت فى الواقع كل المصائب ذلك لأنه قد كان فى

مصر فرق واضح بين نوعين من الرواتب المكتسبة من الوظائف وحدها ؛ فهي اما ملك خاص لشاغلها أو انها عبء مؤقت بتكليف من الملك . وفي الحالة الأولى تكون الفوائد التي تعود من الوظيفة ملكا خاصا لمن يقوم بمهامها ، وله الحق في أن يتصرف فيها كيفما يشاء سواء ببيعها أو نقلها الى ورثته . وعلى العكس من ذلك تظل الفوائد التي تعود من الوظيفة الثانية مرتبطة بالوظيفة نفسها وتنتقل الى المنتفع الجديد .

الا آن بتزيس وخلفاءه لم يتوقفوا عن المطالبة بحقوقهم في الرواتب التي كانت في الحقيقة ملكا خاصا للموظف الاهناسي الكبير ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال شرعيا . ولكن لم يكن غرامؤه كهنة آمنون بأحق منه في المطالبة بذلك ؛ لأنه اذا كان من حقوقهم سحب رواتب هذه الوظيفة من بتزيس ليرجعوها الى صاحبها الحق - ونعني هذه الشخصية الاهناسية الكبيرة - فلم يكن من حقهم بالطبع أن يأخذوا في الوقت ذاته لأنفسهم الدخل الكهنوتي الذي كان ملكا خاصا لبتزيس والذي كان من حقه الاحتفاظ به .

ويعتبر هذا النزاع بداية ذلك الصراع الطويل ولم تكن قصة بتزيس لتصبح سوى حلقة من الجدل القانوني غير ذات موضوع بالنسبة لنا لو لم تكن يومياتها في حد ذاتها سجلا حيا لمقاومة كل من الخصمين في سائر أوقات هذا النزاع اللانهائي . وسوف نقودنا هذه الوقائع بطريقة عجيبة الى أسلوب ممارسة الحياة الكهنوتية في الأقاليم . وفيما يلي بعض الأوقات الحرجة من هذه الحرب بين الأسر . ولنبدأ بمطالع الخصومة : يتمتع بتزيس شرعيا بفوائد الوظيفة التي تركها له صاحبها الأصلي (الموظف الاهناسي الكبير) والى هذه النقطة ليس هناك ضير . ولكن عندما حكم بتزيس لصالح زوج ابنته المدعو « حورا وجا » بدلا من أن يحتفظ بها لنفسه أو يردها الى صاحبها ، قرر الكهنة أن يتخلصوا من الدعي

وان يفتسموا بينهم الحصص التى استردوها . « عندما اجتمع الكهنة فى الصباح فى المعبد لتقسيم الغلات بين مختلف طوائفهم حصر ولدا «حور اوجا» وقالوا : هلمنا كيلوا لنا الخمس » (١) .

وهنا تناول الكهنة الصغار عصيهم وأحاطوا بالولدين وأخذوا يضربونهما ضربا مبرحا ، فهرب الشابان الى الهيكل ولكن الكهنة تتبعوهما وللأسف أمسكوا بهما فى مدخل معبد آمون وانهالوا عليهما بضربات متوالية أفضت الى موتهما ، وقذف الكهنة بالجثتين فى مخزن دخل المعبد ؛ فما كان من أم الضحيتين « نيت امحات » الا أن حبست نفسها فى بيتها أما « حورا وجا » الأب فقد تقدم بشكوى الى رجال الشرطة واستدعى حماء ليستعين به ولكنه « عندما وصل هناك لم يجد أحدا » . وكذلك هى الحال فى صعيد مصر الى وقتنا هذا عند الأخذ بالثأر بين الأسر المتخاصمة حيث يهرب الجميع ويختفون فى أمكنة نائية بعد أن يضربوا ضربتهم ويحضر رجال الشرطة بعد فوات الأوان ليجدوا القرية مهجورة .. فالكهنة كما نرى لم تكن تقيدهم أى مبادئ كما أنهم لم يتراجعوا أمام الحلول السريعة ، وبالطبع لم تقف المسألة عند هذا الحد . فقد قاوم « پتيزيس » بشدة ثم سامح الأشقياء مدفوعا بحبه لمدينته حتى يجنبها هجرة لا رجعة بعدها ، وقد يكون السبب أيضا أنه لم يخف عليه ما فى التدابير التى قام باتخاذها بنفسه من تعسف . ثم مضت السئون فى مناوشات مختلفة الخطورة واستمر كهنة آمون يفكرون فى استرجاع أرباح « پتيزيس » لأنفسهم حتى ولو اضطروا الى أن « يهبوا » جزءا منها الى مستحقها الرسمى . على حين ظلت أسرة پتيزيس متمسكة بالمطالبة بحق الانتفاع الوراثي، على أن الكهنة لم يلبثوا حتى وقعوا ضحية موظف كبير هو المشرف

(١) يشير هذا الى الظاهرة التى ستتضح فى الباب القادم ومؤداها أن هناك دائما أربع طبقات رئيسية من الكهنة .

على الأراضى المنزرعة الذى حجر على جزء من ضياعهم • وليسترجعوا « حقوقهم » اضطروا الى شراء حماية رجل له مكان فى البلاط ولم يجدوا ثمنا لوساطته سوى وظيفة كاهن كان يشغلها أحد أحفاد بتيزيس ويدعى « اسمتاوى » • وقد تنبه « اسمتاوى » الى أنه قد يتعرض للضغط فيجبر على التنازل عنها بما كان منه الا أن فر من الحيلة • وأحس الكهنة بغيظ شديد لفشل خططهم فاتجهوا مرة أخرى الى الطرق العنيفة « اتجهوا فى اليوم التالى الى منزل « اسمتاوى » وأخذوا كل ما كان يملك ، ثم خربوا بيته وخلوته فى المعبد • ثم استدعوا أحد البنائين ليرفع اللوحة التى كان « بتيزيس » قد وضعها فى المعبد ، ثم ذهبوا بعد ذلك الى تمثالين من الحجر وضع أحدهما فى مدخل معبد آمون والآخر فى مدخل معبد أوزيريس وألقوا بهما فى النيل •

وهكذا أصبح اسمتاوى منفيا وبيته مخربا وكان يعلم مدى ما يتمتع به الكهنة من تأييد رجال البلاط الملكى فظل اسمتاوى وابنه بتيزيس (ثالث شخص يحمل الاسم نفسه) هاربين بعض الوقت ، اذ ماذا كان يجدى الاحتجاج ؟ فمهما حاول بتيزيس أن يلتمس لنفسه هو الآخر حاميا ، فقد كان من المستحيل المساس بالكهنة وانتهى به الأمر بأن رضى بالاتفاق بأن يقيم مرة أخرى فى الحيلة ، ولكنه لم يستطع استرجاع الفوائد الكهنوتية التى سرت منه •

فصل ثالث من تلك المسرحية :

طلب الى بتيزيس بعد مضى بعض الوقت أن يكتب قصة النزاع مع كهنة آمون ، وأن يحدد ذلك الجزء من المسئولية الذى يقع على عاتق الكهنة فى سقوط الحيلة • ولكنه كان يعلم تمام العلم ما ينتظره اذا ما سلط الأضواء على كل هذه القصة القذرة

فنراه يحاول التخلص ويرفض الكلام ثم أخيرا وتحت تهديد الحاكم يكتب تقررا مطولا . ولم ظل انتظار رد الفعل من الكهنة ؛ فلم يكذب بيتيزيس يعود الى الحبيبة حتى بدأت عملية النار .

« وعندما علم المدير الجديد بما حدث هرع الى المعبد مع أخوته مسلحين بعصيهم ، وانهاالوا علينا بضرباتهم القاتلة حتى أشرفنا على الموت ، وهنالك توقفوا عن الضرب وحملونا الى برج قديم بالقرب من باب المعبد ، حيث أخذوا يقضون البناء بغية دفننا تحت اطلال البرج » وفي هذه المرة أيضا يخرج بيتيزيس العجوز وقد أضناه الضرب مما اضطره الى البقاء ثلاثة أشهر بين أيدي الأطباء . ولم تكن احتجاجاته سوى صدى محدود ، وتأخر التماسه طويلا . وأخيرا عوقب الكهنة بالضرب وأطلق سراحهم ، وعاد هو الى داره معتقدا أنه سيعيش بعد ذلك في سلام بعد التسليم ، غير أن بطلنا لا يلبث حتى يلتقى ببعض الجيران الذين ينقلون اليه النبأ السيء « أأنت بيتيزيس الذى عاد الى الحبيبة ؟ لا خير من اسراعك فان دارك قد أحرقت » .

تلك كانت الاحتجاجات الأخيرة وآخر حملة تأديبية فى الحبيبة . ويختفى الكهان كدأبهم ويدخل بيتيزيس بلده مكروبا محزونا خافض الرأس غير قادر على الحصول على تعويض أو ضمان لحياة المستقبل . ولا نعلم ما حدث بعد ذلك اذ أن البردية تتوقف عند هذا الحد من القصة .

وقد اكتفينا نحن بهذا القدر من الحديث . ومهما كان الجوهر القانوني للمسألة والطبيعة غير الشرعية لمطالب بيتيزيس وأسرته فان الوسائل التى استعملها كهنة آمون لم تكن قطعا تتسم بشيء من السلوك الحميد ؛ فمن سرقة الى استغلال يتستره الكهنوت الى فساد فى طائفة الموظفين ، الى دسائس واختلاسات الى أعمال العنف والقتل اذا اقتضتها أهواؤهم ، تلك خلاصة غنية نخرج

بها من هذه القصة بفكرة غريبة عن حياة رجال الدين فى بعض فترات مشنومة من التاريخ المصرى • ترى ماذا كان يمس سيرة العبادة خلال تلك المشاحنات فى القرية ؟ وكيف كان بلاط المعبود حين يفر جميع الكهنة فى الريف خوفا من رجال الشرطة ؟ تلك أمور يحسن ألا نفكر فيها •

وليس من المستطاع أن ننكر أن الحياة الكهنوتية قد كانت بالنسبة لكثير من كهان الاقاليم موضوع ضمان لدخل يؤمن حياة صاحبه المادية ولا تقتضيه سوى بعض واجبات معينة ولا تلزمه بأى شئ معنوى - أكانوا يحسون بما بينهم وبين معبودهم من صلة فى غير ساعات الطعام ؟ أكانوا يقدرّون لواجبات ووظائفهم من أهمية ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد أن يؤكد فقصّة پتيزيس رهيبه الى حد لا نستطيع معه أن نشق كثيرا بمظاهر التقوى والورع التى تبدو فى بعض مواضع هذا النص الطويل : « كلما تزدهر انفاذك بحق فان ذلك من اربابك الكبرى الذين فى الحيلة • ان اله طيبة الكبرى آمنون يدخل فى المعبد وكم كانت تلك المعجزات التى أخذت بها علما هناك كثيرة العدد » ! وازاء بشاعة الوسائل التى اتخذت يبدو أن أى بحث فى الحياة الروحانية فيه تناقض غريب •

وبعد تلك الصور التى تبدو جميلة أحيانا ومدعاة للشكوى فى الأغلب الأعم ؛ فقد آن الأوان لأن نبحت عن هواء أكثر نقاوة ، فقد يمكن أن يفرط الكهنوت المصرى فى كل شئ وذلك بسبب طبيعته التى تكاد تكون غير دينية ، وبمشاركة الكهان فى الحياة الدنيوية • وقد ذكرنا بعض أوجه الافراط لتوضيح الجزء البشرى - والبشرى جدا - فى موقف الكهنة الدينى • ومع ذلك فسوف نرى أنهم أنفسهم قد كانوا متنبهين الى الأخطار المحدقة بحياتهم المعنوية • وانهم كانوا يعتمدون كثيرا على المثالية الروحانية فى وظائفهم بغية الانتصار على ما يغرى بالاهمال مما كانوا يتعرضون

له . وهذه بعض نصوص معبد أدفو قد نعينا على تفسير ذلك التناقض وقد تتاح لنا الفرصة أخيرا لاستطلاع كافة أركان الشعائر المعقدة التي كانت تقام يوميا في هذا القدس الكبير . ومن الطبيعي أن الاملال قد كان يحمل الكهنة أحيانا على الاختصار في نأدية الخدمة الدينية ؛ فلا يقدرون ما لحرفية النصوص من أهمية وقد يغضون النظر عن بعض الاخلال لضبط الوقت الذي ينبغي أن تتم فيه الطقوس المقدسة . وكان على الكهنة ان يتجنبوا الاضراط في هذا الاخلال ؛ فقد نقشت على جوانب أبواب معبد ادفو (التي يمر بها الكهنة ومواكب القرايين كل يوم) بعض النصوص الجميلة الموجهة الى كهان المعبد . وكانت هذه النقوش في مكان ظاهر بحيث تراها العيون بوضوح تستحثهم على ضرورة الدقة المتناهية في نأدية العبادات ، وتلفتهم الى مراعاة الدقة في تنفيذ التعليمات الخاصة بالطهارة وبالصبر أيضا . وظاهر أن بعض الكهنة كانوا يميلون الى أن ينالوا أنصبتهم من القرايين الخاصة بهم قبل انقضاء الوقت المرسوم في وهمهم لعين المعبود أن تمتلئ منها وفي ذلك ما يخالف المألوف من النظام العالمي العام .

« أيها المتنبئون الكهان المطهرون أمناء السر وكهان الاله المطهرون ، أنتم يا من تمثلون في حضرة الاله ويا رعاة الشعائر في المعبد . أنتم يا قضاة الضيعة ونظارها كافة ، يا من تكونون في شهركم (١) ٠٠ ولوا وجوهكم وأنظاركم شطر هذه الدار التي وضعكم فيها ذو الجلالة الالهية ! انه ليسبح في السماء ولكنه يرى من فيها . انه ليرضى أن يرى فيها نظاما بالغ الدقة يحكم اعملل فيها . احذروا أن تاتوا عملا معيبا ولا تدخلوا المعبد غير مطهرين ولا تقولوا باطلا في حرمه . ولا تكونوا جشعين ، ولا تتفوهوا

(١) يقصد بذلك شهر الخدمة في نظام الكهنة (المترجمة) .

بكذب • ولا تتناولوا آقداح نببذ ، لا تفرقوا بين الصغير والكبير •
ولا تظفوا فى الميزان أو الكيل بل ادخروا من ذلك بعض الشئ
ولا تتكسبوا بالأمداد !

ولا تحطوا من قدر ما بهواه عين « زع » ، ولا تكشفوا عما
نقع عليه عيونكم فى المعابد مما ينبغى أن يكون من أسرارها ،
لا تمدوا يدا الى شئ فى حرمها ، ولا تعرضوا أنفسكم لخطر جريمة
السرقه من متاعها ؛ بل صفوا قلوبكم من الانطواء على السوء • ان
المراء يعيش من رزق الاله • وانما يسمى رزقا كل ما يوضح
على موائد القربان (ثم يحمل من فوقها الى مكان آخر) انظروا
(كيف يبحر فى السماء من حيث يرى العالم الآخر وترقب عيناه
أملكه حيث يكون انظر : أدفو الجزء الثالث صفحة ٣٦١ - ٣٦٢
ترجمة Alliot

وهكذا يرى المراء تعدد المغريات وكيف كان الكهان يتحIRON
فى اختيارها • على أنه قد كان من المستطاع أن يكون المراء متدينًا
صارما فى تدينه خلال شهر خدمته (الا أنه يتراخى مرة أخرى حيثما
يعود الى حياته العادية فى الدنيا) ويتحدث النص التالى عن هؤلاء
الكهنة أثناء اجازتهم :

« لا تظاهروا باطلا على حق وأنتم تدعون الرب ! انتم يا ذوى
الشأن لا تفتروا طويلا دون دعاء تتوجهون به اليه حينما تفرغون من
تقديم القرابين اليه ودون أن تحمدوه فى معبده •• لا ترتادوا
أماكن النساء ولا تاتوا هناك من عمل لا ينبغى أن يؤتى ، لا تفتحوا
جرة فى حوزة الضبيعة ، فالرب وحده هو الذى يعمل هناك ،
لا تؤدوا الشعائر كما تهوون ؛ والا فما قيمة نظر تكم الى الكتابات
القديمة • ان طقوس المعبد بين أيديكم وانها لدروس لأولادكم »
(أدفو الجزء الثالث صفحة ٣٦١ - ٣٦٢ ترجمة (Alliot) • وعلى
الرغم من دقة التعبيرات المستعملة فى هذا النص الا أنه ليس حتما

أن كل تحذير من أنم يدل على أنه قد ارتكب فعلا وإن يكن وقوعه غير مستحيل . وتلك بلاغة في التعبير ملحوظة . وهناك وتيقه أخيرة سجلت في مكان أعلى من مكان الوثيقة السابقة تعد ختاماً لهذه المجموعة من النصوص التي اقتبست من معبد أدفو الكبير . وهي لا تتحدث عن الآثام الواجب اجتنابها أو عن اليقظة التي يراقب بها الاله كهانه . بل على العكس من ذلك تبرز فيها مكاسب الحياة الروحية والهناء الجَم التي ينعم بها من يخدم الله بقلب صاف وروح ونابة : « طوبى لمن يحتفى بجلالك أيها الاله العظيم ولا يتوقف عن خدمة معبدك ! (طوبى) لمن يقدر قوتك ويجلى عظمتك ويعمر قلبه بك » (طوبى) لمن يروح على صراطك ويفدو على مائك ، ويرعى مراد جلالتك ! (طوبى) لمن يعيد روحك بالصلوات المرفوعة الى الاله ويذكر قدرتك . (طوبى) لمن يؤم في الخدمة المتصلة والخدمة في الأعياد في غير جهل . . . يا من تسلكون سبيل رع في معبده وتسهرون في داره (عاملين) في تدبير أعياده وتقديم قرابينه دون انقطاع ، ادخلوا بسلام وانطلقوا سعداء ! ذلك لأن الحياة في يده والسعادة في قبضته ، والطيبات من الرزق كافة حيث يكون . هذه هي صنوف الأطعمة من بقايا مائدته ؛ تلك هي الطعوم لكل طاعم من قرابينه ، ولن ينال من يعيش من رزقه أو أذى . ولن يهلك من يخدمه ؛ ذلك لأن رعايته تبلغ السماء وأمنه ينتشر على الأرض ، وحمايته أكبر من (حماية) كل الالهة (ادفو الجزء الخامس صفحة ٣٤٣ - ٣٤٤ ترجمة (Alliot)

ونعم الخطاب هنا أكثر هدوءاً كما أن الفكر أسنى . فالأمر هنا ليس استعراضاً للمحرمات بل تبییناً لفضائل حياة تنقضى في عبادة متصلة للاله وما ينال عليها من جزاء حسن ، وهكذا وبعد ألفي عام تبلغ النصوص البطلمية في معبد أدفو مستوى الروح القديم

الذى نجده فى كتاب النصائح الذى ينسب الى « مرى - كا - رع »
(حوالى سنة ٢٠٥٠ ق م) .

« أذ واجب الكاهن الشهرى وانتعل النعال البيضاء ، أدخل
المعبد ، افتح الأماكن السرية وادخل قدس الأقداس وكل الخبز فى
بيت الاله » .

لم تكن الحياة الكهنوتية دائما اذن مجرد خدمة مادية بسيطة
تلائم أى حالة ذهنية ؛ بل كانت مقدرة ذهنية مثالية تتركز فى أن
يهب المرء لنفسه حرارة تجاه الاله وفى الرعاية الدقيقة للاحتفالات
اليومية . وكانت الحياة والسعادة والأمن فى يد الاله الذى كان يمن
بها على أتباعه المخلصين .

واذا كنا قد رأينا فيما سبق أنه من الضرورى أن نشير الى
ما يمكن أن يكون فى الحياة الكهنوتية من تعاسة ، وما يمكن أن
يكون فى بعض ممنليها من خسة فإن نصوص أدفو وما دعا اليه
« مرى - كا - رع » ثم حكم « بتوزيريس » توضح لنا الحماسة
الدينية وغناء الحياة الروحية التى يعيهاها فريق مرموق من رجال
الكهنوت المصرى بصرف النظر عن المكان والاطار المعنوى الذى
يحيط بحياته .

ومن الناحية الموضوعية يجب أن نقرر ان الكهنوت المصرى
الذى كان مفتوحا على مصراعيه وسبيله فى تجنيد الكهنة فوضى
بحيث كان من الممكن أن يضم عددا كبيرا من الفاشلين فى حياتهم ،
أو من الانتهازيين الذين لم تكن لهم قيمة انسانية كبيرة ، فان أى
مجتمع ذى بال لابد أن يضم بعض أمثلة من هذه الأنواع . كما
يجب الاعتراف بأن غالبية القائمين على العبادة قد كانوا أمناء فى
التنفيذ وأصحاب ضمائر حية . ربما لم يكونوا عباقرة ولكن لاشك
فى أنهم كانوا - على الأقل - مخلصين لواجبهم مقتنعين بعظمته .

وقد استطعنا فى النهاية أن نرى أن بعض هؤلاء الكهنة كانوا
بمنازول بحماسة بالغة ؛ بحيث يصورون لنا فكرة رفيعة عن الحياة
الروحانية. وعن التأمل الدينى اللذين كانا فى الاستطاعة أن يولدا
فى ظلال معابد مصر .

وهكذا لا ينبغي أن تخدعنا التماثيل فى المتاحف فان ما تحمل
من صيغ المديح ، وتكرارها الملل يمكن أن يوحى بشئ من الشك
وإن كانت تتحدث كثيرا عن المثالية من حياة روحانية واجتماعية تبدو
وكانها قد شارك فيها على الدوام من يمثلون طبقة الكهان

وعلى أننا قد أدركنا على الأقل حقيقة لم تخطر على بال ؛ حقيقة
تدفعنا الى تعمق دراسة الكهنوت المصرى ؛ فرجل الذين فى وادى
النيل لا يشبه الا فى القليل ذلك الرجل الذى نسميه اليوم بهذا
الاسم ..

وبعد هذه اللمسة السريعة ، وهذه الأحاديث الروائية التى
أظهرتنا على الجور الذى يقع فى الحكم العاجل على مجموعة بشرية
كانت معقدة أكثر بكثير مما نميل الى الأخذ به ، نرى من الواجب
علينا أن نبحث عن أسباب هذا الاختلاف وأن نحدد ما كانت عليه
وظيفة الكهنوت فى الحياة اليومية من الناحية النظرية على الأقل .

الياب

الثاني



منصب الكرامة

المصرى بلد مستقر ؛ خطوطه دائما متشابهة ، ثم هو ذو شمس لا تحتجب أبدا ، نهر يفوق كل عام ليفيض على جانبيه وليهب لهما الحياة . هذا هو الاطار الذى يشكل الروح المصرى وخلق فيه ميوله الأصيلة . فالفن والفكر وأسلوب الحياة ووسائل التعبير ؛ كل أولئك يتسم فى هذا البلد بالبساطة والانسجام . فلم يختلف شئ فى مظهره وفى نظامه الأبدى عما كان عليه منذ البداية .

فى صباح الحياة الباكر أبرزت الآلهة الأرض المصرية من المحيط الأزلى . ثم فصلت من بعد ذلك السماء عن الأرض وأطلقت فيها الشمس . وحينئذ كانت الحياة ، حياة الانسان ، والحيوان والنبات وكذلك جرت حياة فى المياه الجارية وفى الأرض ذاتها وفى سلاسل الصخور .

وكان كل شئ محدد منذ البداية بحيث كان اسم الشئ دالا على ما خلق له . ولم يبق فى هذه الدنيا تعبير مفاجئ لا يحدث فيه

أى طارئ وانما بدا واضحا أنها شكلت الى الأبد وفق نظام ثابت لايتغير . نظام رتيب لظواهر الكون الكبرى فى الفضاء وفى الأرض نهار وليل ، شتاء وصيف ، فيض وغيض ، مولد وممات .

فتماسك هذا الكون كله ، والترابط المنسجم بين عناصره ، وضرورة اتصالها وتماسكها أسماء المصريين « ماعة » . وكان ذلك لازما وضروريا لبقاء كل ما خلقتة الآلهة . «وماعة» (الحقيقة) هى مظهر العالم الذى اختارته الآلهة ونظامه الشامل الذى حددته ابتداء من عناصره الأساسية الهامة كجرى النجوم ، وتتابع الأيام الى أكثر هذه الظواهر تواضعا ، كالتقاء البشر وتقواهم . وذلك هو التوازن الكونى وتتابع الفصول رتيبة وانتظامها ، وكذلك احترام النظام الأرضى الذى وضعته الآلهة . ثم هو آخر الأمر الحقيقة والعدالة . ذلك هو العالم كما خلق وشكل .

ومع ذلك فلا يوجد توازن دون توقع اختلال واتساق يقدر على الثبات حين يصيب التلف أحد عناصره . وهذا تركيب ميكانيكى معقد أشد التعقيد؛ فيه يتمتع كل عنصر بالحرية ثم هو عالم لا يستطيع البقاء أو يتماسك دون رقابة متصلة . فالمعبودات فى حاجة الى ابن يغذى ويرعى أرواحهم الأرضية ، والمخلوقات تطالب بأن يكون لها راع يبين لكل دوره وحدوده : وهذا الضمان للتوازن العالمى وهذا الراعى للبشرية هو الفرعون .

منصب الملك : ليس من شك فى أن الأصل فى ادراك هذا المنصب يقتضى أن يبحث عنه فى فجر التاريخ الصامت . ذلك الوقت الذى كان رئيس القبيلة وحده يمثل كل ما للقبيلة من قوة وحيوية ، كما كان يعبر عن ارادة الآلهة وينفذ أعماله وكما كان مسئولاً عن الحياة المادية لأفراد قبيلته ، وهو المهيم على قوى الطبيعة بقدرته السحرية التى لاحد لها . وذلك نظام اجتماعى أسس على قواعد شبيهة بما أخذت الحياة المصرية تقوم عليها تدريجيا ليكمل

بناؤها الدينى والسياسى فى العصر التاريخى • فبعض القبائل القوية قد استولت على قبائل مجاورة لها أقل منها قوة • وتكونت من ذلك دويلات صغيرة دفعها النزوع الى الفوز بحكم الاقليم الى معارك شديدة • وأخذت تتناوب الحكم قرنا بعد قرن ، واستطاع ملوك الزمن فى مطلع التاريخ أن ينالوا من الفوز أكثر مما نال اسلافهم فى تحويل ذلك النظام القبلى الى حكومة منظمة • ويومئذ لم تعرف مصر سوى حاكم واحد هو سسيد الوادى جميعا ، ووارث رؤساء القبائل طرا ممن ساروا فى ركابه من قبل •

واستوى رئيس الدولة الجديدة عليها فى مداها الواسع • وظل كما كان فى مملكته الصغيرة صاحب السلطان فيها ، ومالك أرضها وغلاتها ، والمستول عن فيضن النيل ، وعن شروق الشمس ، وميلاد الناس وانبات الزرع • ثم هو من ولد الآلهة ؛ يرعى شئون آبائه ويتلقى منها لقاء ذلك ، السلطة التى يسود بها على الأرض لتوكيد النظام الذى وضعته الآلهة • ولضمان استمرار ذلك الانسجام أصبح من الواجب ما ياتى :

اولا : ان وجود الآلهة هو الدافع المحرك فى هذا العالم ، والملك هو المسئول عن اقامة العبادة •

ثانيا : الحرص على تكامل عناصر الكون بحسب ما وضع لها من نظام ، ومن هنا يتضح دور الملك التشريعى والقانونى •

« وهكذا أصبح واجب ملك مصر الأساسى من أول عهد الفراعنه الى آخر أيام أباطرة الرومان الوثنيين - (أى فى مدى يبلغ ٣٥٠٠ سنة) مزدوجا : الحرص على النظام الدينى العام ، وعلى الشعائر الدينية وذلك بسن القوانين للناس •

ومن أعجب الأمور أن يظل نشاط الملوك متصلا ، وتؤكد أقدم الآثار الملكية من الألف الثالثة ق.م والتى تبين لنا فرعون وهـو

يزاول نشاطه الحربى والعمرانى • فنراه حاملا فى يده الفأس يضرب بها فى الأرض ثم يضع الأوتاد لاقامة الحدود • (١) وحين نطوف بقاعات معبد اسنا أو كوم امبو نجد هذه المناظر تتكرر خلال آلاف السنين يقوم بها فراعنة من بينهم « اوتوكراتور » ، و « قيصر » و « سيفيريوس » و « كاراكالا » أو « ديسيوس » (٢) • ترى هل كان يخطر ببالهم أنهم مازالوا يعتبرون رسميا منفذين للطقوس المصرية ، وهم الذين نزحوا من غابات جرمانيا وبانونيا البعيدة ، بل هم الذين لم يبلغوا مراتب السلطان الإمبراطورى الرفيع الا عن طريق بناء الفرق العسكرية المتصل فى بلادهم ؟

لقد كانت الاحتفالات التى كانت تجرى بمناسبة ارساء حجر الأساس لاحدى العمارات الرسمية ، من الأمور التى تقتضى حضور صاحب السلطان أو من يمثله • وهو أمر يحدث الى يومنا هذا اذ من النادر الا يقتضى افتتاح احدى المؤسسات الهامة وجود شخص رسمى مسئول ، والقاء الخطب وعمليات التدشين • ومع ذلك فقد كان الملك من الناحية النظرية هو الذى يقوم بتأدية الشعائر كافة •

فنحن حين نمر بأنظارنا على ما فى المعابد من النصوص التى تتحدث فى تفصيل عن الطقوس الدينية يدهشنا الا نجد ذكرا للكهان على الاطلاق • فالملك هو الذى يتولى بنفسه وبصفة مستمرة تنفيذ طقوس العبادة حاملا على رأسه التاج والى جانبه على الدوام اسمه مدونا فى خرطوش مزدوج (٣) •

(١) انظر اللوحة المعروفة باسم لوحة « نارمر » حيث نرى فيها فرعون يمارس نشاطه الحربى فى سبيل توحيد مصر • ثم انظر اللوحة المعروفة باسم « لوحة الملك العقب » وهو يقوم غالبا بشق قناة •
(٢) ترى تلك المناظر أولئك الحكام وهم يحتفلون باقامة دور العبادة الكبرى •

(٣) كان لفرعون اسمان : اسمه الذى سمي به بعد ولادته واسمه الذى ارتقى به العرش •
(المترجمة)

وواضح أن اتسام كل هذه الطقوس على النحو المتقدم وهم وخيال . فانه اذا كان من الممكن أن يصبح رئيس القبيلة في عصور ما قبل التاريخ القائد الادارى والرئيس الدينى ؛ فقد كان من المستحيل على ملك مصر أن يكرس حياته للإمامة فى آلاف المناطق المختلفة بالمملكة ولما اختفى نظام القبيلة ليستبدل بنظام الملكية الموحدة أصبح من المستحيل على رئيس القبيلة - وقد أصبح فرعوناً - أن يكون الامام الفعلى فى اقامة الطقوس . لكنه احتفظ بهذه الامامة اسماً فقط ، وبقيت له صورها مرسومة بالمعابد . أما من الناحية العملية فإن الملك قد نزل عن هذه لمتخصصين انتدبهم ليقوموا بها بدلا عنه . وعلى ذلك فقد كان مكان الكهنة الرسمى يقوم أساساً على هذه الفكرة التى لن تمحى وهى أنهم مندوبو السلطات الملكية . فباسم الملك وفى مكان السلطان كان كهان مصر يؤدون الطقوس الدينية اليومية فى كل البلاد .

مهمة الكليروس : بقى للملك من سلطانه المزدوج الدينى والتشريعى ثانيهما وحسب ، وانتدب للمهمة الأولى كهانا يقومون باعبائها . وبذلك تميز نشاطهم المباشر بتخصصهم فى رعاية العبادة ، عبادة الآلهة وكل ما يتصل بهذه العبادة من مظاهر خارج المعبد ، فأما دورهم فى الناحية الاجتماعية والروحية فقد كان محصوراً فى أضيق الحدود .

ولا ينبغى أن ننسى الدقة فى مفهوم مصطلح **الكاهن** . فالكهان لم يكونوا طائفة منعزلة تعيش على هامش المجتمع ولا تنفصاه الا لاستمالة الجماهير ودفعها نحو حياة خلقية أرفع مستوى وأقوى نشاطاً من حياتها العسادية . كلا ! بل كان أولئك الكهنة المصريون يقومون بدور دقيق جداً . فهم نواب الملك صاحب الحق الوحيد فى القيام بالخدمة الدينية ، وكان قوامها العمل على رعاية الوجود الالهى على الأرض ممثلاً فى صورة متكاملة داخل قدسه فى المعبد حيث

طابت له الإقامة ، وكان لوظائفهم دورها الهام ؛ فهم يشاركون في البناء الدينى للملك فرعون الذى يقتضى المحافظة على العالم كما خلقته الآلهة وهذا عمل لا يستطيع النهوض به سوى المتخصصين الفنيين .
 اما فيما عدا ذلك من أعمال الكهان وتفكيرهم فلم يكن فى نظر الدولة شيئاً ذا خطر . فهم لا يشبهون فى شئ الكهان العبرانيين ولا احبار النصارى ، انما هم أشخاص عاديون لا يختلفون عن غيرهم فى شئ ولا يتميزون بانهم من أصل الهى ، وليس عليهم هدى الجماهير أو اقناعهم . ومهما يكن أمرهم فهم لم يخرجوا عن كونهم مواطنين مأذونين من الملك بأن يحلوا محله فى أداء بعض الطقوس المسادية اللازمة للصالح العام ، والعقيدة الشعبية لاتدين لهم بشئ . وإذا كان فيهم المفكرون العظماء أو القديسون ، فلم يكن ذلك غير نتيجة لاستعدادهم الشخصى ولا صلة له بنشاطهم المهنى نفسه .

التزام الكهنوت :

وإذا كان الكهنوت لم يشترط أى صلات معنوية أو أى اعداد فنى تخصصى كما سنرى فيما بعد الا أنه كان يلزم الكاهن الذى يدخل المعبد ببعض شروط الطهارة الجسدية .

والدار المقدسة - كما نستطيع أن نتخيلها مما جاء فى الفقرة السابقة - تختلف اختلافاً كلياً عما ندركه من مفهوم كلمة معبد .
 فهى ليست بالمكان الذى يذهب اليه المتعبد ليصلى لئلا ، ولا هى بالدار التى يحتشد فيها الجماهير لممارسة أعمال روحية وتترقب أن تتجلى عليها الروح القدس خلال الاحتفال . وهى ليست كذلك بالمكان الذى تقام فيه الشعائر المقدسة التى يؤم فيها امام متخصص جمهرة من الناس .

ان المعبد المصرى لا يستقبل الجماهير . فمن المدخل الى القدس توجد سلسلة من الأبواب تحجب عنه النور بطريقة متصلة ؛ فيتزايد

الظلام من بهو الى بهو فى سبيل القاصد الى قلب المبنى ، وتنخفض
السقوف وترتفع القيعان . وفى رهبة متزايدة يبلغ الزائر مدخل
الهيكل المحكم الغلق والذي يستقر فيه التمثال المقدس . فالمعبد
المصرى هو المستقر الأرضى الذى يحتفظ بالتمثال الذى ارتجاء الاله
ليرى منه هذا العالم حالا فيه فى هيئة تمثال يزار عند كل صباح
لينال ما ينبغى له من العناية والرعاية الدينية ، فضلا عن الحرص
على الباسه واطعامه وحمايته خاصة ضد الأرواح الشريرة التى
تحتمل أن تفاجئه بالأذى .

وعلى ذلك فقد كان الذين يتاح لهم دخول المعبد من الناس
والاقامة فيه كل يوم فى رحاب الصنم الرهيب أن تتوافر فيهم
شروط أولية من الطهارة الجسدية .

كما أن اصطلاح المتطهرين الذى يطلق على أكر طوائف الكهنة
انتشارا إنما يذكرنا بعمليات التطهير الأولى التى يغتسل فيها الكاهن
ليخلص من كل ما علق به : « يغتسلون بالماء البارد مرتين فى النهار
ومرتين فى الليل » (هيرودوت الكتاب الثانى فصل ٣٧) . وغالبا
ما يتم هذا التطهير فى البحيرات المقدسة الملحقة بالمعابد . فقد كان
الكهنة قبل بدء خدمتهم الصباحية ينزلون الى الماء فيرقونه على
أنفسهم فى غزارة . فإذا لم تكن هناك بركة حل محلها حوض من
الحجر .

ويعتبر هذا الطقس الدينى طقساً رمزياً بحثاً (١) فقد كان
الماء فى الفكر الدينى هو العنصر الذى خرجت منه الحياة وفيه تختفى
الشمس عند الغروب لتستمد منه نشاطاً جديداً يمنحها يوماً جديداً
كله شباب وحيوية . لذلك نرى فى بعض النقوش التى تصور منظر
التطهير أن المصريين كثيراً ما يستبدلون لون صورة الماء الذى ينساب

(١) شبيه بذلك ما يفعله المسيحيون الكاثوليك فى الكنائس عندما يدخلونها .

من اناء بسلسلة تتكون حلقاتها من الرمز الذى يصور الحياة عند المصريين فاغتسال الصباح كان يملأ الكهنة حياة جديدة تمكنهم من القيام بخدمتهم اليومية فى غير كلل .

وضرب آخر من الطهارة المادية قد كان على الكاهن أن يغسل فمه بقليل من مذاب النطرون قبل أن يطرق المكان المقدس . وكان هناك نظام صارم من نظم الحياة الكهنوتية يتمثل فى أن يزيل الكاهن الشعر من جسده . ويحدثنا هيرودوت (١) أن الكهنة كانوا يزيلون الشعر من أجسامهم مسرة كل يومين حتى لاتعلق بهم قملة أو أى حشرة قذرة أخرى تمنعهم من ممارسة عبادتهم . فان ما نرى لهؤلاء الرجال من نماثيل وصور يظهرهم صلعا صلعا تاما . ويبسود ان هذه العملية كانت اضطرارية اذ بلغت قيمة الغسامة فى العصر المتأخر على كل من يهملها ١٠٠٠ درهم . وهناك من النصوص المختلفة الأخرى ما يحدثنا أن الكهنة وصل بهم أمر المبالغة فى ذلك التخلص من شعر رموشهم وحواجبهم . وكانت هذه قاعدة عامة . اذ أننا نفهم على سبيل المثال أن الرحالة اليونانى « اويدوكسس

دى كنيدي» (Eudoxe de Cnide) الذى كان يحاول الاطلاع على العلوم الجديدة التى يعرفها الكهنة لم يقبل الا بعد أن ازال شعر جسده وحواجبه (ديوجان ليرسى) (Diogène Laerce, VIII, 8 (87, 3) وكان هناك تقليد آخر متصل بطهارة الجسد ، ألا وهو الختان ؛ فقد كانوا يقومون بعملية الختان بقصد النظافة — اذ كانوا يضعون النظافة فوق كل القيم الجمالية — (هيرودوت الجزء الثانى فصل ٣٧) . ولم يكن كل المتفرغين لأعمال الكهنوت قد أجريت لهم عملية الختان اذ أن تعلمهم الحياة الكهنوتية كان وهم لا يزالون صفار السن لذا كانوا يختنون عندما يتولون مهامهم الرسمية . وقد أصبح الختان فى عهد الامبراطور « هادريان » علامة مميزة للكهنة . اما الى أى مدى

(٢) انظر هيرودوت الجزء الثانى .

كانت هذه العادة متبعة في العصور السابقة وهل كانت هذه العادة من الشروط الأساسية في تلك العصور لتولى الكهنوت فهذا مالا يستطيع المرء التكهّن به .

وقد ورد عن بعض الكتاب الاغريق والرومان أن كهنة مصر لم يكن يسمح لهم بتذوق الطيبات من طعوم الموائد . ويصور لنا هيرودوت في هذا المجال قائمة طعامهم بطريقة مشوقة (كتابه الجزء الثانى فصل ٣٧) ولكن الرحالة الذين أتوا بعده لم يشاركوه هذا الرأى . فهم يذكرون أن الكهنة كان عليهم أن يحرموا أنفسهم من كل شيء تقريبا . فقد كانوا يحرمون على أنفسهم بعض أجزاء الذبيح اذ كان عليهم أن يتحاشوا الرأس أحيانا والأرجل أحيانا أخرى والأعضاء الأمامية أحيانا ثالثة (Origène) وهم يأكلون لحم البقر (Chaeremon) ولا لحم الخنزير بطبيعة الحال (Aristagoras de Milet Flavius) (Joseph, Plutarque) كما كان لحم الماعز من المحرمات أيضا (Aristagoras) وكذلك الحمام (Chaeremon) والبجع (Horapollon) من لحم الطير والأسماك وبخاصة البحرية منها كما حرم عليهم الخضر (Plutarque) وكذلك الفول (Herodote, II, 37) والثوم (Plutarque, Origène) فقد كان اكلهما مكروها جدا (١) . اما بخصوص النبيذ فقد كانوا لايتناولون منه الا قدرا ضئيلا أو لا ينالون منه شيئا (Plutarque) كما أن الملح - الذى كان من منتجات الاله « تيفون » - كان من غير المرغوب أن يظهر على موائدهم . لقد كانوا بالفعل مساكين خاصة وأنه كان من واجبهم فى كثير من الأحيان أن يحرموا أنفسهم حتى من النزر اليسير من الطعام .

ويظهر أن الحقيقة كانت غير ذلك . اذ يبدو أن الحيوانات أو

(١) وتحريم الفول فى الأغلب الأعم كان بقصد تجنب الغازات المعوية التى يسببها أكل الفول . . وأما النوم فقد كان أكله محرما على الكهنة فى الأغلب الأعم بسبب ما ينبعث من رائحته النفاذة . (المترجمة) .

الخضراوات التى سبق ذكرها كانت محرمة فى بعض الأقاليم ولم تكن كلها محرمة فى كل الأقاليم فى الوقت نفسه . وفى الواقع ان تحريم انواع بعينها من الأطعمة فى اقليم ما كان خاصا بعمقيدة الاقليم نفسه .

وتروى الأساطير أن اله كل اقليم كان يكره حيوانا معيناً ولكنه نادراً ما كان يكره نباتاً معيناً . وكان من واجب كهنة هذا الاقليم أن يمتنعوا عن تناول شيء من لحم هذا الحيوان المكروه أو لبنة . ومع ذلك فلم يصب هذا التحريم فى العادة سوى كهنة المنطقة الجغرافية المتصلة بهذه العبادة . ومن ناحية أخرى فقد كان الحيوان المقدس - الذى يختلف حسب اله المنطقة - بالطبع محرماً أكله فى الوقت الذى تحلله البلدة المجاورة . ومن هنا كان منشأ الممارك بين قرية وأخرى .

وقد روى لنا بلوتارخ فى كتابه « ايزيس وأوزيريس ٧٢ » أن أهل مقاطعة اكسيرينكوس وهى البهنسا كانوا يقدسون نوعاً من السمك وهو ما يسمى «القنوم» من اسمه الاغريقى اشتق الاغريق اسم الاقليم على حين أكلت مقاطعة كينوبوليس (القيس والشيخ فضل) هذا السمك وهم الذين كانوا يقدسون الكلاب ؛ فما كان من أهل البهنسا الا أن ضحوا بالكلاب فذبحوها وأكلوها . وكان من نتيجة ذلك أن نشأت بين البلدين حرب كانت وبالا عليهما معا . وقد فض الرومان فيما بعد هذا النزاع وعاقبوا المتخاصمين . ولقد كان أكل حيوان ما فى اقليم يعتبره سكان الاقليم المجاور سبباً أرضياً لالههم من أكثر الأسباب التى يمكن أن تخلق الخصومة بين أهل الاقليمين .

وقد كان معروفاً فى هذا المجال أن الكاهن كان عليه - أكثر من أى رجل عادى - ان يمتنع عن تناول طعام معين حسب الشرائع الدينية التى يفرضها المعبود الذى كان الكاهن من خدمه .

ولانصاف هؤلاء القوم يجب أن نذكر أن منهم من كان يعرف كيف يمنع نفسه . فقد كان كهنة قفط الذين استقبلوا « ساتنى باشر ان بتاح » الشهير من منف زميل يطمبوس ايولييتيس (الزمار) فى اللهو ، وكانوا فيما يبدو أشخاصا يعرفون كيف يعيشون . وقد نقش هذا الأخير الموعظة التالية التى وجهها الى « باشر ان بتاح » على اللوحة الجنائزية لاحدى زوجاته « أيها الأخ والزوج .. كاهن بتاح لا تتوقف اطلاقا عن الشرب والأكل والنشوة وممارسة الحب وقضاء أيام الأعياد . وعليك أن تتبع قلبك نهارا وليلا ، ولا تجعل للحزن فى قلبك مكانا فما هى السنين التى تقضيها على هذه الأرض مهما طاللت ؟ » وكل ما نعرفه عن كاتب هذه السطور ، اننا نعتقد أن هذا الكلام لم يكن الا تشجيعا لاغناء فيه .

كانت الحياة الكهنوتية تحتم نوعا آخر من أنواع الصبر الجسمانى وهو الامتناع عن الاتصال الجنسى على الأقل خلال العكوف فى المعبد . وكان للكهنة المصريين أن يتزوجوا اذ أن وظائفهم لم تجبرهم على حياة العزوبة . واذا صدق ديودور (الجزء الأول ص ٨٠) فقد كان عليهم على الأقل أن يكتفوا بزوجة واحدة على حين كان لكل امرئ بعيد عن العمل فى المعبد أن يتمتع بغير واحدة . ومع ذلك فلم يكن هذا القيد عاما فنحن نعلم أن الكاهن « باشير ان بتاح » المرح الذى مر ذكره كان تحتته عدد من النساء . وهكذا يبدو أن حياتهم الخاصة كانت تختلف من كاهن لآخر كل حسب حالته . ومع ذلك فقد كان عليهم جميعا على الأقل أن يتطهروا حينما يعبرون السور المقدس ، ويذكر لنا هيرودوت (الكتاب الثانى فصل ٦٤) أن عادة تحريم الاتصال بالنساء فى الأماكن المقدسة أو تحريم دخولها عقب ملامسة المرأة دون أن يغتسلوا قد انتقلت إلينا من مصر أيضا ، فكل الرجال فيما عدا المصريين والاغريق يباشرون النساء فى الأماكن المقدسة وينتقلون الى اقداس الآلهة دون اغتسال ، ويرون ألا فرق بينهم وبين طوائف الحيوان والطير

التي تفعل ذلك فى المعابد وفى الأماكن المخصصة للآلهة ويرون أنه لو كان مما لا يرضى الآلهة اذن لامتنع عنه الحيوان والطير » .

والنصوص الدينية المصرية واضحة حول هذا الموضوع .
فالتطهر من ملامسة النساء فرض محنوم فى أيام كثيرة .

ولقد كان من العسير تمييز الكهنة بهيئاتهم وأزيائهم عن غيرهم من المصريين . فكان محرما عليهم بعض الأقمشة والصوفية منها بخاصة ، ذلك لأنها مستخلصة من مخلوقات حية تصيب لايسها بالقدر وتحط من قدسية الأماكن التي يؤدون فيها واجباتهم . ويبدو أن هذه القاعدة كانت قاطعة لا استثناء منها ولا هودة فيها بدليل ما كتبه « هيرودوت » (Herodote) و « أبوليه » (Apulée) فى شأن العقوبات المادية الباهظة التي كانت توقع على المخالفين .

كان الزى الكهنوتى دائما من نسيج الكتان الرقيق وكانت هيئاته لا تتغير أبدا . والواقع أنه يبدو فعلا أن الكهنة قد احتفظوا - وعلى مر العصور - بزيم ذاك الثابت الذى ارتدوه منذ العصور الأولى للحضارة المصرية . ولم يكن يميز هذا الزى الا بعض التفاصيل التي تحدد وظيفة كل كاهن كالوشاح الذى يتشح به الكاهن المرتل . فأما الكهنة المتخصصون وكذا كبار الكهنة فقد كان من حقهم أن يخالفوا ذلك . فالكاهن الذى يلقب عندهم « سم » كان يرتدى جلد فهد ، على حين كان كبير كهنة هليوبوليس يحمل رداء من جلد فهد مزخرف بحليات على هيئة النجم ، كما كان لكبير الكهنة بمنف الحق فى حمل قلادة ذات شكل خاص وله أن يزين رأسه بدوابة مصفورة تنحدر على السالفة .

واذا استثنينا كبار الشخصيات الدينية فإن الكهنة تميزوا عن بقية الجماهير بقد زيم ووقارها . وليس من شك فى أن هذا الاحتفاظ بالشكل القديم كان يضيف الى هيبتهم ومكانتهم شيئا من الشهرة فى مجتمع كل ما فيه جيد وجديد .

وليس يفوتنا أخيرا ، وقبل أن ننتهى من هذا العرض ان النعال المصنوعة من سعف النخيل كانت من أزياء الكهنة الذين عاشوا وسط شعب كان يمشى بمحض اختياره حافى القدمين أو ذلك ما يرويه الكتاب القدماء عن الكهنة على كل حال . كما أن النصوص المصرية قد وضعت « النعال البيضاء » ضمن لباس الكهنوت .

وإذا كان من الغريب أن المعلومات اللاهوتية لم تكن ذات بال اطلاقا عند تعيين أى كاهن – وكان على الكاهن أن يقضى مدة ى التدريب على طقوس العبادة الصارمة – فان الدراية بتلك الطقوس لم تكن فيما يبدو من الشروط التى تحدد اختيار كاهن جديد . وهنا يخطر بالبال سؤال هام . هل كان الكهنة الجدد يتعلمون المهنة تو ممارستهم لها بداخل المعابد ؟ فى الحق أننا قد نميل الى هذا الظن فان كل الأدلة تشير بصفة قاطعة الى أن الحياة الكهنوتية انما كانت تحتم على الكاهن أن يكون قد تتقف ثقافة دينية . ومن هذه الأدلة وجود علم مقدس متطور تطورا واضحا وبعض اشارات الى تأملات دينية ذائمة فى محيط المعابد وخلال الشعائر المقدسة الا أننا نكاد نجهل كل شئ عن تشكيل ذلك . وكل ما نعرفه هو ما ورد فى قرطاس من عصر متأخر يقيد بوجوب معرفة المتقدم لشغل وظيفة الكاهن قراءة النصوص الدينية المدونة فى القراطيس انظر : (بردية تيبتونس / ٢ فصل ٢٩١) – فأما ما سبق ذلك من عصور فتكاد تخلو مما يشير الى هذا الموضوع .

الانخراط فى سلك الكهنوت :

يبدو مستحيلا ان نستخلص قاعدة تحدد بصفة عامة شروط الالتحاق بالوظائف الكهنوتية بالنسبة لكل طبقة من طبقات الكهنة فى مصر فى شتى العصور .

وانه ل يبدو مما تقدم أن البساطة النسبية لما ينبغى للكهنة معرفته من فرائض الدين كانت تفتح السبيل أمام الجماهير الفقيرة من الراغبين فى الوظائف الدينية . على أن الواقع قد كان غير ذلك اذ أن حياة الكهنة كانت تقتضيهم واجبات معينة . ولكنها كانت تهى لهم مزايا لا يستهان بها ، وخاصة فى بلد كان الخوف من الغد المجهول يسيطر فيه على جمهرة الشعب ، ومن هنا كان التطلع الى الوظائف الدينية دائما محط أنظار الكثيرين .

ولقد كانت هناك سبل متفق على اتخاذها ، أو كانت تتخذ على الدوام : فهناك حقوق الوراثة ، وطريقة الترشيح وشراء الوظائف ، كل ذلك كان يتيح فى أغلب الأحيان الحصول على عدد كبير من الكهنة اللاتقنين . فكان فى استطاعة الأسر المضطلة بعبادة معينة جيلا بعد جيل أن ترتبط ارتباطا وثيقا بعبودها ، وتثبت عند ممارسة عملها جدارة حقيقته . على حين كانت كذلك أسرا مطمئنة الى وفرة ربحها من الأوقاف الدينية ؛ فلم يكن لها من عمل غير قدر ضئيل يبرر وجودها . ويتيح لها التمتع بالاسترخاء فى ظل الهياكل وازاء هذه الفكرة التى يؤيدها الكثيرون لا ينبغى أن يخفى علينا أن امر العبادة ظل يعتبر تفويضا أو انتدابا ملكيا - بصرف النظر عن الحقوق الفعلية التى اكتسبتها أسر الكهان من الالتزام بخدمة معبود معين أعواما طويلا - فان قرعون قد كان دائما من الوجهة العملية الوزير الأوحد للعبادات فى مصر كلها ، وهو بذلك صاحب الحق فى وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب ، مادام يرى ذلك وفى أى وقت يشاء . وكان لابد لمثل هذا النظام الذى لم تحدد قواعده الأساسية بطريقة سليمة أن يخلق بالضرورة نزاعا أو خلافا . وذلك ما حدث بالفعل ، فتاريخ العبادات فى مصر يعتبر انعكاسا دائما للتدخلات الضارة . وسوف نتناول بالبحث كلا منها على حدة .

حقوق الوراثة :

يحدثنا « هيرودوت » (الجزء الثانى فصل ٣٧) أنه عند موت أحد الكهنة كان يخلفه ابنه فى مكانه . ومع ذلك فلم تكن هذه القاعدة مطلقة من الناحية العملية ، وإنما كانت تقليدا متبعا رسخ فى الأذهان . ومنذ عصر الدولة القديمة ونحن نجد أمثلة من الوصايا يطلب فيها الكاهن بان تتول وظيفة الى وريث يحدده . فهو يرى هذه الوظيفة حقا كحقه فى كل ما يملك من متاع خاص . والواقع أنه يوجد كثير من الأمثلة لوظائف دينية وغير دينية آلت الى بعض المنتفعين للوثوق من أنها سوف تنتقل من أب الى ابن ومن مورث الى وريث . أما فى الدولة الحديثة فكان يحدث أن يتقدم أحد الأشخاص مطالبا بوظيفة كهنوتية فى معبد ما . ولم يكن ينبغى عليه الا أن يتذرع الى ذلك فى بساطة بأنه ابن الكاهن . بل أكثر من ذلك ؛ فإن من العصر المتأخر لوحات تعرض لنا سلسلة من أنساب أصحابها يذكر بعضهم أن أسلافه حتى الجيل السابع عشر كانوا من كهنة معبود بعينه . وأصبح من الممكن بناء على ذلك التحدث عن تسلسل أسرات من الكهان يتلو بعضهم بعضا .

من كل ما ذكرنا ، أصبح الحكم على الاتجاهات العامة للمجتمع المصرى ممكنا . فهو لم يكن ذلك المجتمع الذى حاول الكتاب الاغريق أن يصوره لنا مجتمعا معزولا ، وليس صحيحا أنه وليد بيئة معينة لم يكن له أى مستقبل الا أن يرث مهنة أبيه . فقد كان هناك نوع من التآلف بين الحرف المختلفة . ومع أن وراثة الوظائف لم تكن تحكمها قوانين معينة الا أنها كانت مع ذلك تمثل اتجاهها عاما . فالمجتمع بحكم طبيعته كان دائما ينزع الى الاستقرار والثبات فى ظل نظام واضح ؛ يعزز ذلك ما ورد ضمن الأمانى التى كان يتنناها المصرى القديم ويرردها فى صلواته : « فأى امرئ يود أن يرى ابنه قد خلفه فى الوظيفة التى كان هو يشغلها » . وفى ضوء ذلك

نستطيع أن نفهم أن أسر الكهان الاقليمية التي كانت تضطلع بتنظيم عبادة معينة ، كانت تفخر بذلك وتراه من الامتيازات الهامة التي يجب أن تظل الأسرة دائما في اطارها . ومع أن الوظيفة كانت تنتقل بالوراثة من الأب الى الابن ومنع ثبوت شرعية هذا الارث ، فقد كان ينبغي أن يكون فضل الملك في هذا الموضوع واضحا . فبفضل الملك استطاع الابن أن يحل محل أبيه . وعندما أراد الملك پسماتيك (حوالى ٦٤٨ قم) أن يكافئ « پتيزيس » لخدماته الجليلة التي أرضته كل الرضى منحه لقب كاهن فى كل المعابد التي كان يشغل فيها أبوه هذه الوظيفة ، هذا مع أن «پتيزيس» هذا لم يكن حتى ذلك الوقت قد مارس وظيفة الكاهن على الاطلاق . من ذلك نتبين أن أسر الكهان فى قرى الأقاليم قد استطاعت ان تحتفظ باتصال شغل وظائفها بأفرادها . ومع كثرة انتقال هذه الوظيفة من أب الى ابن فقد ظلت صفتها الوراثة مجرد تقليد معترف به على حين احتفظ الملك بحق تعيين من يشاء وحيث يشاء .

الترشيح والابتياع :

كانت الأهواء الملكية فى أغلب الأحيان تهدد بخلق الاضطراب فى النظم المحلية المتبعة اذ كان الكهان ينظمون فيما بينهم تشكيل كهنوتهم . ومع ذلك فمن الانصاف أن نعترف بأن الملك كان من النادر أن يتدخل فى مثل هذه الأمور وذلك بسبب ضخامة عدد المعابد وعدد الكهان أيضا . ولذلك كان فى استطاعة أسر الكهنوت أن تزدهر فى غير خوف . واذا لم تستطع حقوق الوراثة الىفاء بحاجة عبادة ما الى من تقتضى من الرجال قامت مقام ذلك وسيلة أخرى وهى الترشيح . فكان العاملون يعقدون اجتماعا ويتفقون فيما بينهم على اسم من أسعده الحظ بالانضمام الى طوائفهم المقدسة . ويبدو أن هذه الطريقة كانت أمثل الطرق المتبعة لتزويد الوظائف المشاغرة بمن يشغلها . ومن المرجح كذلك أن كل كاهن جديد ،

ولو كان من أسر العاملين فى المعبد أن يوافق المجلس الملى على تعيينه وأن يتم تكريسه للخدمة الدينية ببراءة مسجلة •

وتشير النصوص من العصور الفرعونية المتأخرة الى وجود حق ابتياع الوظائف الدينية بكل ما تغل من دخل • وقد عرف الرسم الذى كان يحصل على هذا الشراء فى اليونانية باسم (Telestikon) وانتشرت هذه العادة فى العصر الامبراطورى وبخاصة فى وظائف صفار الكهنة او الكهنة خدام الاله (١) واذا جاز لنا ان نرجع ممارسة هذا العمل الى أيام الدولة الوسطى ، فان معلوماتنا تظل قاصرة عن تتبع الطرق التى كان يتم بوساطة هذا الشراء فى عصور أقدم •

التعيين بمرسوم ملكى :

كانت كل العبادات فى أى معبد تقام باسم الملك • جاء فى أحد فصول الشعائر « ان الآلهة أعدت لى السبيل ، وان الملك هو الذى يرسلنى لاجتلاء طاعة الاله » • فالملك هو الذى كان يعين سائر طوائف الكهنة • ومن الواضح أن مثل هذا التركيز كان يقتضى وجود وزارة ذات اعتبار ويسبب كثيرا من التأخير (فى التعيين) • وواقع الأمر ان عمل الملك قاصر على تعيين كبار رجال الدين وكبار الكهان فى العبادات الكبرى • فاما تعيين الكهان من ذوى المناصب الدنيا فقد كان يتركه للوزير •

وقد جاء الخبر أن الملك الشاب « توت عنخ أمون » حين رأى أن يعيد تنظيم الأكليروس فى مصر وكان من رجاله كثيرون قد قتلوا خلال اضطرابات العمارنة « عين قديسين وكهنة اختارهم من أولاد الأعيان فى الأقاليم ، وكانوا من أبناء الطبقات ذوات الأسماء

(١) خادم الاله : هو ترجمه لاسلام المصرى القديم Hemmeter وهى التى أطلق عليها الاغريق اسم Prophète

المعروفة ، • بذلك أبدى الملك كثيرا من الحكمة عندما ندارك الأمر بالاهتمام به من جديد وبذلك رد الاعتبار لأهل الاقاليم • وكانت هذه وسيلة فيها مهارة وبراعة لكسب كبار رجالاتها الى جانبه وكانت سلطة « اخناتون » التي اتصفت بطابع الفردية قد أضرت بهم •

ركان من سلطة الملك فى بعض الأحيان ترقية من يعجب بنشاطه واستعداده من الكهان • كما وقع للكهان «نبوى» فى عصر تحتمس الثالث الذى رقى أولا الى رتبة رئيس كهنة أوزيريس ، ثم أصبح بعد بضع سنوات - وبفضل حظوته لدى الملك - المتحدث الشخصى باسم الملك « فى معبد أحمس الأول » فى أبيدوس • وظاهر أن تدخل الملك هناك كان لغرض منه احسان الجزاء لكاهن مسن شاب فى خدمة مولاه •

وكانت الترقيات الى المناصب الرسمية تحدث أحيانا لغرض مختلف ، خاصة عندما يقع الاختيار على كاهن معين لينتقل الى طائفة الكليروس أخرى • ومن ثم كان اختيار « رمسيس الثانى » كبير كهنة آمون من بين كبار رجال الكليروس بمنطقة «أبيدوس» • وكان ذلك بالطبع على غير رضا من كهان طيبة الذين باتوا ينظرون الى هذا المكان فى تشاؤم ••• وإلى القارىء ما جاء فى قصة ذلك •

وعند عودته من طيبة « رسونا فى مقاطعة طينه » ومثل « نبونف » أمام جلالته وكان يومئذ يشغل منصب أول كهنة الاله « أونوريس » و « أول قساوسة » « حتحور سيدة دندرة » وزعيما لقساوسة كل الآلهة فى منطقة وهبت له • وهنأ قال جلالته : «ها أنت من الآن فصاعدا أكبر كهان آمون ، وسائر كنوزة وخزائن غلاله تحت يمينك • أنت رئيس معبده ، وكل خدمه تحت سلطانك • فاما معبد حتحور « سيدة دندرة » فسيؤول الى سلطان ابنك وبالإضافة الى وظائف آبائك والمركز الذى كنت تشغله أنت •

بقدر الحب الصادق الذى يغمرنى به الاله «رع» ، والمديح الذى يختصنى به أبى آمون ؛ سميت له كل العاملين فى البلاط قائد الجند وقساوسة الالهة ، وكبار موظفى القصر المائتين بين يديه . فلم يرض عن واحد الا عندما ذكرت له اسمك ! فلتكن له اذن وليا لأنه استدعاك » .

وببالغ النفاق نرى رجال البلاط يهنئون انفسهم بهذا الاختيار الالهى الذى وجه اليه به « رمسيس » ثم ينتهى احتفال التنصيب .

وأعطى جلالته « لنبونف » حلقتين من ذهب وعصا من الالكتروم . وبذلك عين كبيرا كهنة آمون ومديرا للبيت المزدوج - بيت الفضة والذهب - ومديرا لحزائى الغلال ، ومديرا للأعمال ، ورئيسا لسائر الطوائف المهنية فى طيبة . وقد بعث برسول ملكى الى بقاع أهل مصر كافة ليبلغ أن دار آمون قد أصبحت تحت يمينه بكل متاعها والعاملين فيها .

والواقع أن هذه الطريقة لم تنغير على الاطلاق . فمن لوحة كبير كهنة بتاح « باشير - ان بتاح » بعد ألف ومائتى عام من عهد رمسيس ، نجد أن الملوك لم ينهجوا نهجا جديدا فى اختيار كبير الكهنة .

ومن ذلك نلاحظ بصفة عامة أن النفوذ الملكى لم يتدخل فى تعيين رجال الدين الا فى حالتين محددين : الأولى عندما كان الملك يود أن يكافئ أحد الكهنة (أو أحد موظفيه) . والثانية عندما كان يود - مدفوعا بأغراض السياسة الداخلية - أن يغير ميزان القوى فيختار رئيس كهنة طيبة من خارج اطار كهنة آمون الأقوياء . وفيما عدا هاتين الحالتين يبدو أن الوصول الى المناصب الدينية المختلفة كانت تنظمه إحدى الطرق الثلاث التى مر ذكرها .

التنصيب :

وفيما يختص بالمرحلة الأخيرة لاختيار الكاهن ، فإن المعلومات التى وصلت إلينا مع الأسف أقل مما كنا نود . فالنصوص البطلمية التى وصلت إلينا فى لغتين ، قد عرضت لطقوس « التنصيب » إلا أنه ليس من اليسير تفسير أساليبها .

فإذا جاز أن يؤخذ بما جاء فى بعض النصوص ، بدا أنه بعد عمليات التطهير التى تقتضى كل من يدخلون المعبد ، لم يكن هناك شيء ذو بال » لم يبق على الكاهن الجديد إلا أن يحظى بلون من التعميد البسيط : وأنطلقوا يبحثون عن « بتاح نفر » كاهن آمون الجديد وقادوه إلى المعبد ومسحوا يديه لتمكينه من خدمة آمون (انظر قصة بتيزيس) . وذلك هو نفس الأسلوب الذى كان يتخذ فى حالة التنصيب فى الوظائف غير الكهنوتية . وإذا كنا الآن نقلد الوظيفة باللباس ، كان قدماء المصريين يقلدونها بالدهان .

ولكننا نستطيع استكمال ذلك من نص على تمثال بالمتحف المصرى يمدنا ببعض معلومات اضافية . حيث يقول صاحبه وهو كاهن شاب : « مثلت فى حضرة الاله وكنت شاباً ممتازاً حين قدمونى فى أفق السماء ... وخرجت من النون (المياه الأزلية) وقد تخلصت من كل ما كان عالقاً بى من مساوئى . وخلعت ملابسى ، وخلصت من الدهون التى كانت عالقة بى ، كما ينطهر حورس وست . وتقدمت إلى حضرة الاله فى قدس الأقداس مليئاً بالرهبة أمام قوته » . ومن ثم كان خطوات التكريس ممثلة فى المثول فى المعبد ، فالتطهر ثم رؤية الاله أخيراً . كان إلى جانب ذلك بالطبع بعض التوصيات ثم تبليغ بعض الأسرار التى لم يكن يستطيع معرفتها سوى الكهنة المبتدئين ، مثل معرفة تلك الاصطلاحات السحرية التى من شأنها أن تسمح « بفتن السماء والأرض وجهنم والمياه ورؤية الشمس

تتصاعد الى السماء بين ركب من آلهتها ، وكذلك مطلع الفجر ،
والنجوم فى كامل هيئتها » انظر : (قصة ساتنى فصل ١٢١) .
ولم يكن المعبد مجرد بناء صامت بسيط أو اطارا لا يكثر
بالأحداث التى تدور داخله ؛ بل كان صورة مختصرة للكون أو بمعنى
آخر نموذجا يصور بطريقة رمزية مناطق الكون ؛ حيث يتحرك
الاله . ويبدو أنه كان على الكاهن الجديد أن يتسلم عند تعيينه
شرح معانى هذه الرموز المختلفة .

ونود أن نسير فى هذا المجال الى الطفوس التى ارتبطت بالمام
« لوسىوس » بعبادة ايزيس فى روما التى وصلت إلينا عن طريق
Apulée, Métamorphoses . فنجد ان الكاهن الأكبر
يعرض عليه أولا طقوس تعيينه وذلك حسب ماورد فى قراطيس
البردى المصورة بالنقوش الهيروغليفية . ثم يتطهر «لوسىوس» فى
« البحيرة القريبة » ثم « يرش بالماء المطهر » ثم يقوده الكاهن حينئذ
« الى قدمى الآلهة نفسها ، ويسر اليه بعض المعلومات التى تفوق
كل كلام البشر » . تلك كانت المرحلة التمهيدية . وكان على الكاهن
المرشح أن يقوم بذلك لمدة عشرة أيام وفجأة يتم الامام بكل شيء .
وبعيدا عن أنظار العالم يتم الباس « لوسىوس » ثوبا من الكتان لم
يلبس من قبل ثم يأخذ الكاهن بيده ويقوده الى أقصى مكان فى قدس
الأقداس . وهناك له ما تبقى من الأسرار . وهو يذكر لنا ذلك فى
قوله « اقتربت من حافة الموت ووطاة عتبة الالهة «برسفوني» (١) ،
ورجعت منها تحملنى كل العناصر ، وفى الليل رأيت الشمس
ساطعة . واقتربت من الآلهة القاطنين فى الأماكن السفلى والآلهة
القاطنين فى الأماكن العليا والذين رأيتهم وجها لوجه وعبدتهم عر
قرب » .

(١) زوجة بلوتورورة عالم الموتى عند الاعريق (المترجمة) .

وقد كتب كثيرا فى شرح هذا النص الشهير الذى يبين أن الكاهن الشاب قد قام برحلة كونية ، ومات فى الدنيا ليعث فى صورة متغيرة . ويبدو ولاشك « أن الديانات التى تحوى السحر فى صميمها » قد أثرت بشكل واضح على العقلية التى كانت تفهم وتقرر تعلم الأصول والأوليات . هذا وقد تعرضت هذه الديانات لاتجاهات كثيرة كانت أقرب الى مذهب التصوف اليونانى منها الى التقاليد المصرية . على أنه يبدو لنا - ويستطيع القارئ الحكم على ذلك من واقع الملاحظات التى أوردناها فى أوائل هذه الفقرة - ان مراحل الاحتفال ظلت فى شكلها - ان لم يكن فى روحها أيضا - قريبة جدا مما كانت عليه فى الوقت نفسه فى المعابد المصرية .

الباب
الثالث



حياة المجتمع في دور العبادة

حياة المجتمع فى دور العبادة

يمكن أخيرا من أن نفلت من كئائب السائحين وصخبها •
فهاهم ينطلقون الى مخارج المعبد حيث ينتظرهم صف طويل من
المركبات • وهما نحن نستمتع الى صوت ضربات السياط تقرقع فى
الفضاء ، ثم يخيم السكون على هذا العالم الكبير من الأطلال •

نحن الآن فى الكرنك وعلى رأس الصرح الأول فى أمسية يوم
دافئ من أيام الشتاء بحيث يبدو النيل وجبال طيبة وقد بدأ يطويها
الظلام تحت سماء كساها الشفق بلونه الأحمر ، ويبدو على الجانب
الآخر معبد الاله « آمون » ضخما ورائعا ، الى انسجام لم يكن فى
الحسبان لحواء حجرى هائل ، وعلى مدى نظرنا الى الجدران البعيدة
نرى الآثار تترى فيتلو بعضها بعضا ، وتتراكم بعضها فوق بعض •
أو منبعثة كالنباتات وسط الأرض أو متداعية منقضة ، صروح
ومسلات ، وتماثيل شوامخ ، وطرقات بين صفوف الكباش ،
ومقاصير على مدى النظر • وعن يمين نخال البحيرة المقدسة بسطحها

الهاديء ترفرف عليه بعض أسراب الطير • وفيما وراء الأسوار الخارجية تتوقع أطلالا أخرى محتجبة وراء التخييل ، ثم معابد وبحيرات أخرى ، وكذلك أصنافا وصفوفا من تماثيل الكباش •

ذلك الشعور بالعظمة قد عرفناه من قبل في دندرة ومدينة هابو وفيلة • ويعتبر كل منها فى نمطه عالما رائعا ؛ فهو مجموعة ضخمة من نتائج التنقيبات من الأبنية الراسخة فوق مساحات ضخمة من نتائج التنقيبات من المباني الراسخة فوق مساحات وهياكل فسيحة تبلغ فى اتساعها سعة المدن حيث يتراص فيها الصخر الناطق بابهة العواصم والمعبر عن عظمة الملوك ، والمشير الى ساعات التاريخ الحافلة •

واذ يغشى الظلام محيط المعبد الكبير وهو ظلام مشوب بما يلف القرى من ضباب أزرق يتوارى ما خلف الماضى من آثار البلى ويبدو لنا وكأننا نشهد المعبد كما كان فى أيام أبهته عندما كانت الجباهير من رجال الدين تبعث الحياة الى أبوابه • وفى هدأة الليل وغمرة الظلام تبدو الصور المنقوشة على الجدران وكأنها تتحرك من حولنا •

لقد كان هناك حقا عالم من الكهنة يعمر تلك الهياكل العظمى ، من كبير الكهان - وكان من الشخصيات الكبيرة المرموقة فى سياسة الدولة - الى أدناهم رتبة حتى أصحاب الحرف • وهكذا كانت هناك طوائف من الخدم والكهنة والمساعدين فى شتى المجالات من مختلف الكفايات يذيعون الحياة فى سائر الأبنية والمجازات داخل المحيط المقدس • وفى الكرنك - وفى عصر « آمون » الزاهر - كان عدد العاملين الموجودين بالمعبد خلال ساعات اليوم يعد بالآلاف ، ان لم يكن بالآلاف • ولدينا من عصر رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ ق م) قرطاس يسجل مجموع من كانوا يعملون فى خدمة « آمون » من الرجال بين كهان وفلاحين ثم صيادين ومن رجال الملاحه

والاداريين وغيرهم من مختلف العمال • قد بلغ عددهم ٨١٣٢٢ شخصا • كما نعلم من المصدر نفسه أن المعبود المحظوظ كان له ٤٣٣ حديقة ومساحة قدرها ٢٣٩٣ كيلومترا مربعا من الحقول و ٨٣ سفينة و ٤٦ دارا لأعمال البناء ، و ٦٥ قرية صغيرة تعود غلاتها على تلك الأماكن المقدسة • ومن هذه الأرقام نستطيع أن نصور الأهمية الكبرى التي يتمتع بها موظفو « آمون » والتي ينعدم نظيرها ، كما يمكننا أن نتخيل - في سهولة ويسر - العدد المذهل من الكهنة والرجال الذين يؤدون مختلف الأعمال المتصلة بالعبادة وبادارة مثل هذه المنظمة الكبرى • وقد أمكن معرفة ١٢٥ وظيفة من الوظائف المختلفة التي كان يشغلها الموظفون الملحقون بخدمة هذا المعبود العظيم •

وتلك كانت بالطبع حالة شاذة • فأمام هذه الثروة الضخمة تبدو ثروات المعابد الأخرى ضئيلة بشكل واضح ، فمعابد « هليوبوليس » و « منف » - وهما أكبر مدينتين في مصر بعد طيبة - كانت مواردهما أقل من ذلك بكثير • فكان عدد العاملين في كل منهما $\frac{1}{7}$ ، $\frac{1}{37}$ على التوالي من عدد العاملين في معبد آمون • وفيما يلي جدول يبين موارد من المعابد الثلاثة وامكاناتها •

طيبة	هليوبوليس	منف	
٨١٣٢٢	١٢٩٦٣	٣٠٧٩	رجال
٤٢١٣٦٢	٤٥٥٤٤	١٠٠٤٧	ماشية
٤٣٣	٦٤	٥	حدايق
٢٣٩٣ (بالكيلو متر المربع)	٤٤١	٢٨	حقول
٨٣	٣	٢	سفن
٤٦	٥	-	ورش
٦٥	١٠٣	١	قرى

من ذلك يبدو واضحاً تفوق «طيبة» مع العلم بأن «هيلوبوليس»
« ومنف » كانتا مدينتين كبيرتين جداً . ولقاء هذا الاكليروس الأيد
القوى النفوذ ، والذي كان يمثل دولا داخل الدولة ، نجسد على
النقيض بعض العبادات التي كانت تمارس في مكان ضيق صغير
ولا يعمل في خدمتها أكثر من شخص أو اثنين . بل كانت هناك
معبودات تحدثنا النصوص أنه لم يكن لها اكليروس خاص على
الإطلاق ؛ وإنما كان لها بعض الفائض من خدام معبودات ذات غنى
وتأبى مكانتها قبول مثل ذلك .

وبين هاتين الحالتين المتناقضتين - في تطرف - عاشت غالبية
المعابد المصرية بعدد متوسط من الكهنة . فكان معبد « أنوبيس »
القريب من هرم الملك « سنوسرت الثاني » (١٩٠٦ - ١٨٨٨ ق.م)
بالفيوم يخدمه خمسون شخصا : ٦ من الكهنة الدائمين و ٤ مجموعات
متغيرة يتكون كل منها من ١١ خادما . أما في أسيوط فكان المعبود
(ابو واوروت) يكتفى للخدمة في معبده بعشرة من الخدم ، على حين
كانت « الحنية » ؛ بلدة « پتيزيس » التي سبق الكلام عنها في
الفصل الأول يخدم في معبدها ٨٠ كاهنا بصفة دورية ، أى بمعدل
٢٠ كاهنا في كل شهر بالإضافة الى وجود بعض الأشخاص
الدائمين . ومما لا شك فيه أننا لا نجاوز الصواب اذا ذكرنا أن أى
هيكل متوسط كان يتبعه - بصفة دائمة - عدد من الموظفين يتراوح
بين ١٠ و ٢٠ أو ٢٥ موظفا .

رتب الكهنة :

لم يكن ذلك الحشد المختلط الذي يعيش داخل المعابد كله
من الكهنة . وان كانت كثرة منهم من ذوى الرتب المختلفة .

الواقع أنه ينبغي ان نفهم أن المقصود بالكاهن كل أمرئ قد
تظهر جسدا بالقدر الذى يسمح له بالاقتراب من المكان المقدس

او مس أى شىء ، او اى طعام مكرس للاله . وكانت الوسيلة الى ذلك مختصرة . اذ لم يكن التعيين - بخاصة فى وظائف الكهنة الصغيرة - يحتمل أى تأجيل . فكان واضحا أنه اذا تضخم عدد الكهنة (المطهرين) استدعى ذلك وجود هوة سحيقة تفصل بين الكاهن المرتل والكاهن الموكل برؤية الاله .

ومن ذلك يتبين أنه كان هناك عدد كبير من الدرجات يشغلها أولئك الأشخاص الذين يعملون فى المعابد ويستحقون لقب الكاهن . وعلى ذلك فقد كان من الممكن التمييز بين طبقات الكهان العليا والدنيا ، وطبقة الكهان المساعدين . الا أننا نجد صعوبة اذا حاولنا التفارقة الدقيقة بين كل هذه الطبقات .

وأول هذه الصعوبات أن تلك الطبقات يمكن أن توصف بأنها كانت دائما بين مد وجزر فمن الطبقات الكهنوتية ما كانت تعتبر أحيانا من العليا وأحيانا أخرى من الدنيا وأحيانا ثالثة من طبقات الـ *pastophores* مثلا ، أو من المنشدين كذلك . وجائز أن المكان كان يتحكم فى الترتيب فيجعل منهم شخصيات أساسية وأخرى ثانوية ، ويحتمل كثيرا أن أهميتهم كانت تنمو بمرور الوقت والواقع أنه من واجبا ان نقيم السلطة المقدسة فى الوقت نفسه على أساس ما جاء فى المصادر المصرية المتعددة فى جميع العصور وما جاء فى القوائم الاغريقية التى لايمكن أن تكون غير انعكاس متأخر لصور من نظام الكهنوت .

وتانى هذه المصاعب أن ما وصل الينا ليس كافيا ؛ لأن الطبقات المختلفة لرجال الدين أو المتخصصين الذين يعملون فى المعابد لا يمكن ربط بعضها ببعض بأسلوب قياسى رتيب . وكذلك كانت الحال فى شأن الاداريين ، ورجال الدين أحيانا ، والعلمانيين غالبا ، ثم هى كانت كذلك فى شأن الفنيين ، وهم الكهنة المرتلون ومفسرو النصوص ، والكهنة المتناوبون الذين يؤدون فى العبادة -

أو فى الحياة الجارية فى المعبد بمعنى أصح - دورا بالغ الأهمية .
ومن السهل مع ذلك اعتبارهم من العلمانيين المتخصصين . وعلى
ذلك سنتخذ تنظيما أكثر تفصيلا يعتمد فى انشائه على الدور
الفعلى الذى كان يقوم به كل خادم بدلا من الاعتماد على الأهمية
المرفوقة التى تسند الى نشاطه .

العمال الإداريون :

وحين يكون المعبد متواضع الحجم ، وليس له من أملاك الأرض
غير قدر ضئيل ، ولا يضم غير عدد محدود من العاملين ، كانت
إدارته بالطبع ميسورة . ويقتصر العمل فيها على مراجعة الغلات
الرتيبة التى ينالها المعبد من حقله لتزويد مائدة المعبود وموائد
خدامه من ناحية ، ومن ناحية أخرى مراقبة حسن القيام بالخدمة
الدينية وحسن السير بالأحفال المرسومة . ولم تهمل النصوص من
الصور مايرينا كهنة هياكل صغيرة تجمع الى القباب الكهنوتية ألقابا
إدارية ، وينصرف أصحابها عن العبادة الى الاهتمام بالغلال وتعبثها
فى العباب .

وحين يحظى المعبد بشيء من الاهتمام يصبح مثل هذا الجمع
الذى أشرنا إليه مستحيلا . فلقد كان لمعبد «أمون» فى طيبة جهازه
الإدارى الخاص الذى كان يعتبر وزارة قائمة بذاتها ولم يكن فيها
للموظفين الدينيين أى شأن . فكان هناك من يديرون الأراضى
كرئيس كتبة الضيعة ، وكتبة الحسابات ، ورؤساء الجنود ،
ورؤساء الرديف ، كل أولئك كانوا يحتلون وظائف هامة بجانب
منصب رئيس الخدم فى بلاط المعبود ، وكبير خدامه ، والمشرف على
موظفيه ، «ورئيس الشرطة» . وكان يوكل بنتاج المعبد وغلاته من
يدعى «رئيس قطعان الماشية» ، من ذوات القرون والأظلاف
والريش . أما الحقول فكانت تحت إشراف مدير الحقول والأراضى

الصالحة للحوث . على حين كانت المحاصيل تحت اشراف « رئيس مخزن القلال المزدوج » وسيطرته . وكانت الخزينة تحت اشراف « مدير الخزانة ورئيس كل شئ يقع تحت يمين الاله آمون » .

وكان تحت كل شخص من كبار الاداريين أولئك جيش من النواب والمساعدين والكتبة وصغار الموظفين الذين يكونون الجهاز الادارى العام الذى يعمل فى الأجهزة العديدة ببلاط الاله .

ومن القرطاس نفسه الذى سبق ان استخلصنا من نصوصه قائمة أملاك المعابد الثلاثة الكبيرة ، يمكن أن نتبين الارقام الضخمة التى توضح لنا النفقات الباهظة التى تتكلفها سنويا كل ضيعة من ضياع تلك المعابد ؛ نذكر من ذلك - على سبيل المثال - ما كان يناله كهنة آمون من المقادير الضخمة من الذهب والفضة والنحاس فضلا عما كانوا يحصلون عليه من الالوف من قطع النسيج ومئات الالوف من الحبوب ومن أعداد الطير . ويمكننا كذلك أن نتخيل عدد الكتبة وعدد القراطيس التى كانوا يستخدمونها فى احكام مثل هذا التنظيم . كما نستطيع ان نفهم كذلك لماذا اعفى الكهان أنفسهم من حمل هذا العبء وألقوه على كاهل جهاز ادارى ، ومع ذلك فقد كان من الممكن - عمليا - أن يصبح أعضاء الجهاز الادارى الدينوى على اختلاف درجاتهم من «رجال الدين» . وفى أغلب الاحوال كانت الهيئة الادارية لمعبد معين - بما فيها مدير المعبد ومدير قطعان الماشية ورئيس خزانة الاله ، وكاتب داره ، ومدير خزائن غلاته - يرأسها أمير المقاطعة الذى كان يضطلع الى جانب وظائفه ببعض المهام الدينية . فقد كان «حاج زفاى» أمير أسيوط فى عهد «سنوسرت الاول» (حوالى ١٩٥٠ ق.م) يعتبر نفسه عضوا من أعضاء الجهاز الدينى ولا يقل عمله فى المعبد عن عمل الذين يؤدون الطقوس الدينية فيه .

وبالتدريج ، ومع مرور الزمن فقدت وظيفة الادارى مطهرها الكهنوتى فأصبح Iêsonis العصور المتأخرة (وقد أصبح شخصا «سنويا») مجرد وكيل أكثر منه كاهنا ، كما أن ال épistate وهو الذى حل محله فى العصور الاغريقية والرومانية – قد أصبح فى الحقيقة هو الرئيس المدنى لممتلكات الاوقاف • ويخصص لأشرافه وسيطرته محصول الضرائب والعوائد الذين يتولون جباية هذه الاموال وتوزيعها للمعابد ، وكذلك الوكلاء المكلفون بإدارة الاراضى المقدسة والمحاسبون الذين يتولون القيد بالدفاتر أولا بأول •

العاملون فى الخدمة الدينية :

ومقابل هذا الجهاز الادارى – الذى لا يعادل الدينى – كانت هناك طائفة من رجال الدين انتظمت فى « خدمة الاله » سماهم ، الاغريق – فى غير دقة – بالنبيئين (prophètes) وليس الاله المصرى فى الواقع قوة معنوية تعبد فى كل مكان ، بل يعتبر سنداً قوياً محصوراً قابلاً بصفته المادية فى المقدس ، كما أن الخدمات التى تقدم له خدمات مادية سخية تتمثل فى الطعام والزينة • الخ ومن هنا كان العاملون فى خدمته من رجال الدين أشبه بمن يحيطون بعظيم فى قصره ويتسمون مثلهم «خدماً» •

وفى كثير من الاحيان نجد أن المعابد المتوسطة فى يد عدد محدود من «خدام المعبود» • ولكن حين يكون المقدس من الاهمية بمكان ويتضخم عدد العاملين فيه كان الامر يقتضى وجود عدة طبقات تحمل هذا اللقب • وهكذا كما اقتضت طبيعة الحال فى الكليروس آمنون الذى تدرجت طبقات «خدم المعبود» فيه أكثر من غيره من المعابد ، فقد احتوى على أربع طبقات من العاملين ذوى الأيد والسلطان ، فضلا عن الخدم الذين لم ينتظمهم سجل الدرجات العلى •

مثل هذا التقسيم الذى انتظم طبقات رجال الكهنوت فى معبد آمون - وقد كان ضروريا بالنسبة اليهم - قد امتد الى بعض الفئات الأخرى من رجال الكهنوت بسبب ضخامة العدد .

وبعد تحديد هذا التابع فى رتب الكهنوت نرى من المنطق أن تـلا منها تبدأ فى التقدم بانتظام على حسب مراحل الوظائف الدينية المتتالية . ولدینا فى الواقع الكثير من الوثائق التى توضح أن الكهنة كثيرا ما كانوا يتخطون بسرعة أدنى الدرجات وأوسطها . والواقع أن حياة كل كاهن لم تكن شاقة أو متعبة كما قد يتبادر الى الذهن ويمكن القول بأن الترقيات كانت تؤدي الى اختيار أكثر الاشخاص صلاحية لشغل الوظائف الكهنوتية وأن عدد الكهـان الذين بلغوا أعلى الدرجات كان يقل كلما علت الوظائف .

فى اكلدروس آمون الطبيعى كان ثانى كهانه الاقربين يحتل فى الدولة مكانا مرموقا ، وكان ذا حيثة كبرى ، وكان يحل فى بعض المناسبات محل خادـم المعبد الأول الذى كثيرا ما كانت تضطـره مهام وظائفه المتعددة - السياسية منها والدينية - الى التقيـب عن معبده . وكان يضع يده بصفة خاصة على جزء كبير من دخل الاله آمون ، وكان له الاشراف على دور الصناعة والحقول ومراقبة الجزية الاجنبية التى تؤدي الى الاله . وقد كان مخصصا له «بيت» مزود بجيش كامل من الموظفين والكتبة والمرءوسين المباشرين الذين يقومون باعداد الوثائق الادارية باسمه ويسهرون على حسن سير المصالح الموضوعـة تحت اشرافه .

فأما خادـم المعبود الاول أو «الكاهن الاكبر» فقد كان صاحب مكانة عالية جدا ، يستمد قوته فى الدولة بالطبع من قوة الاله الذى يقوم على خدمته . وكان يحمل فى بعض الاحيان اسما خاصا ارتبط بوظيفته المحددة التى كان يمارسها قديما فى عبادة الاله ، ومن ثم

كان أكبر الكهان فى طيبة لا يحمل سوى اللقب البسيط « رئيس كهنة آمون فى طيبة » • فأما العنشى (صاحب « عين شمس » هليوبوليس) - اذا أخذ بأحد التفاسير الجديد - فكان له اسم واضح البلاغة • فقد كان يدعى « من يستطيع رؤية العظيم (الاله) » وهو اللقب الذى حور - بعد أن أعادت تفسيره الاجيال التالية الى « أعظم الثرائين (من يستحلون) طلعة الاله رع » • فأما رئيس كهنة الاله بتاح بمنف فقد كان يحمل اللقب الفنى « أكبر رؤساء أهل الصناعة » (= الصناع) • اذ كان الاله بتاح ، كما نعرف حامى الصناعات جميعها •

وكان فى مقدور رؤساء الكهنة أن يخرجوا أحيانا عن الصف، بعد أن يكونوا قد رقوا درجات المناصب الكهنوتية المختلفة • وفد كان من المألوف - فى الوسط الكهنوتى الهام فى مصر - أن يرتبط مصير الكبار من أولئك الكهان بالظروف السياسية المحيطة بهم وبمكانهم من الملك • وكان من الجائز اختيارهم ممن يخدمون فى دار آمون ومن سائر رجال البلاط وكبار قواد الجيش • الا أنه كان من حق الملك فى الوقت نفسه اختيارهم من خارج نطاق هذه الفئات ذات الحظوة ، فهكذا كانت الحال فى أمر «نبونف» • فقد كان فى حرية الاختيار هذه ما يسمح للملك بوضع رجال جدد من خلائه على رأس الوظائف الدينية ليستطيع الى حد ما مقاومة مطالب ذوى النفوذ القوى من الكهان ؛ وقد كانت فى ازدياد مستمر • ولسوف نرى أن أعلى المناصب الكهنوتية ما كان يشغلها رجال الكهنوت أولئك الذين أصبحوا أعلى شخصيات الدولة •

وعندما كان الملك يعين رئيس الكهنة من غير رجال الاكليروس الذى سوف يتولى قيادته فقد كان من المتبع آنذاك أن يؤيد هذا التعيين بنبوءة الهية • وعند اتمام التعيين - سياسليا وسماويا - كان

الرئيس الجديد للكهنة يتلقى حلقتين من الذهب وعصا رمزية على حين يصدر الملك نطقاً تقليدياً : « ها أنت الآن كبير لكهنة الاله (فلان) ، خزائنه ومخازن غلاله تحت يمينك ، كما أنك رئيس لمعبده » .

كانت تلك هى عناصر الاكليروس الخاص بالهة مصر ، طبقة خدام الاله والذين يستطيعون - كما يقول النص الخاص بذلك - « فتح أبواب السماء » واستجلاء طلعة الاله أثناء العبادة اليومية . وكانت هذه الطبقة هى الصفوة المختارة من تلك المجموعة الدينية التى تضم الرؤساء الروحانيين فى مصر وكبار الكهان أحيانا أخرى وأمام هذه الطبقة المميزة كان يعيش جمهور غفير من أهل الدرجات الدنيا للكهنوت وطبقة المساعدين . ولا يصح أن نغفل عالم الكهنة المنعزلين بعض الشيء عن غيرهم ؛ ويقصد بهم أولئك الاشخاص الذين لم يكن لهم من عمل سوى دور معين من طقوس العبادة وهم الذين يمكن أن نسميهم « المتخصصين » .

الاخصائيون :

كان هؤلاء الاخصائيون فى الاغلب الاعم يستظمون أما فى قوائم كبار الكهان ، أو يدرجون مع من هم أدنى من أولئك فكانوا بذلك قسمة بين الفئتين ، وأحيانا أخرى لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . والواقع أن أهم ما فى الامر هو جانب التخصص الوظيفى وليس جانب التقويم الادبى الذى يجعل منهم كبارا من ذوى الايد أو عمالا غير مرموقين .

بين هؤلاء الكهنة غير المتخصصين ، كانت هناك طائفة المزيين stolistes الذين عرفوا فى الوثائق الاغريقية بأنهم الكهنة الذين يقومون كل يوم بالباس التماثيل الالهية وتزيينها . كما كانوا يحتفظون بالمجوهرات والملابس وأدوات الطقوس والعبادات فى قاعات المعبد المخصصة لذلك ، ولم يكن لأولئك المزيين تعريف خاص

فى النصوص الهيروغليفية • وتحدثت وناقى الدولة الوسطى عن «كاهن التنوره» الذى كان فيما يبدو أحد هؤلاء الكهنة • فأثما نقوش العصر المتأخر فقد وصفت أولئك الكهنة فى اسمهاب «فهم الذين يشرفون على زينة الاله ويدخلون قدس الافداس ليجملوا الاله بأقمشتهم» • (مرسوم كانوبس) • ومعنى ذلك أن هذا الدور كان فى العصور القديمة من اختصاص أحد «خدام المعبود» على أن يحتفظ باللقب السابق الإشارة اليه وحده دون غيره من الالقاب وذلك بصرف النظر عما يتمتع به من امتيازات أخرى كان من المنتظر أن ينالها • وأخيرا أصبح من المناسب تعيين أولئك الذين يقومون بالباس التماثيل الالهية بلقب خاص • وفى عداد المتخصصين انتظم العلماء والمفكرون فى «بيت الحياة» وسوف يتاح لنا أن ندرس بالتفصيل معارفنا عن هذه المؤسسات الملحقه بالخدمة الدينية وحسبنا الآن أن نشير الى أنها كانت تجاور المعابد وفيها كانت تنشأ وتدون الكتب الدينية التى تقتضيها العبادات وحيث كانت تسوى عناصر العلم المقدس • والى هذه المؤسسات كان يفتسب كتبة بيت الحياة ، وكذلك خدامها وعمالها • وهم أولئك الذين سماهم الاغريق مفسرى النصوص • وكان بعضهم كهانا ذوى تقدير خاص مبعثه ثقافتهم الواسعة باعتبارهم ممثلى العلم الرسميين داخل محيط المعبد • ومن بينهم كان يختار موكلو الاكليروس الملكى عند قيام البعثات الرسمية التى ينبغى من اجلها اشتراك المعابد المصرية • من ثم نرى أنه فى السنة الرابعة من حكم الملك «پسماتيك الثانى» (٥٩١ ق م) عندما اقتضى الأمر اختيار كاهن يحمل ضميمه زهر من آمون الى الملك ، اختبر فى الحيلة «پتيزيس» كاتب بيت الحياة ذلك الاديب الذى يمكن أن يسأل فى أى شىء فيجيب عليه اجابة مرضية • وقد اجتازت شهرة العلم هذه شواطئ البحر فهناك كثير من النصوص الاغريقية واللاتينية تتحدث ولا زالت عن حكمة هؤلاء الكتاب المقدسين ومعرفتهم الفنية • كانوا يستطيعون

ابراء المرضى (Horapollon, II, 28) ويعرفون العقاقير (Galien) .
والجغرافيا (هيرودت جزء ٢ فصل ٣٨) ، والعلامات المميزة
للحيوانات المقدسة وتاريخ الملوك والقدماء (ديودوروس) ، ويتفاهمون
على التنبأ بالمستقبل (Joseph, Suidas, Elien) ، وكذلك العمل
على نزول الامطار . فأما زملاؤهم الكهنة المنشدون من نساخ الكتاب
المقدس - الذين سماهم الاغريق ptérophores بسبب الريشتين
الكبيرتين اللتين كانتا تزدان بهما شعورهم - فقد شاركوهم هذه
الشهرة العالمية وتلك الشعبية فى بلادهم الاصيلية .

ولم يكن هؤلاء الكتاب العلماء دائما من الكهان ؛ فغالبا ما كان
يجيء ذكرهم فى نصوص علمانية ! فهم مثلا كانوا يعملون عن رضا
فى الاحفال الجنائزية باجراء بعض الطقوس الخاصة ؛ «يؤدون الطقوس
لندن الطبى ٨ ، ١٢ وقرطاس برلين الطبى ٨ ، ١٠» . وهم يقومون
فى الاحفال الجنائزية باجراء بعض الطقوس الخاصة «يؤدون الطقوس
التي تنفع الارواح السعيدة حسب ما جاء فى الكتب السرية المنزلة
من علم الكاهن المرتل » . كما كانوا فى النهاية للشعب المصرى
بخاصة طرازا للسحرة الشعبيين أبطال الروايات والحوادث
الخرافية التي كانت تروى فى أمسيات السمر .

من ثم نسبت النبؤات التي استمتع بالاصغاء اليها الملك
«سنفرو» فى عصر الدولة القديمة الى الكاهن المرتل (نفرنى) أحد
علماء شرق الدلتا . على حين تنقل لنا قصة خوفو التي نزلت بالكاهن
المرتل «أوباونر» الذي تمكن بواسطة السحر التخلص من منافسه
الذى أغرى زوجته بحسنه وجماله . ومن خلال الفصل نفسه
نتعرف على «جاجا - ام - عنخ» الساحر الماهر الذي توصل بالأعبيه
ان يسرى عن الملك ويعيد اليه البهجة التي كان قد فقدوها . ولن
ننسى أخيرا أن قصة الساحر الناشئ ؛ تلك القصة الشعبية قد تبحت
عن اسطورة «لوسيان» وكان يطلقها «كاتب مقدس من منف» . واليك

ما روى لنا مؤلف (Philopseudes) اللطيف من الكوارث التي
حلت ببطلها .

« كنت لا أزال شابا صغيرا أعيش بمصر - حيث أرسلني أبى
لاستكمال دراستي - وخطر لي يوما أن أصعد في النيل حتي «قفط»
ولأنه من هناك لرؤية تمثال ممنون وأستمع الى ذلك الصوت
الشجي العذب الذي يردده للشمس عند شروقها . وحينئذ سمعته
يرسل صوتا غير متصل اللفظ كما يفعل الناس . غير أن ممنون
نفسه قد فتح فمه ونطق بنبوءة من سبع أبيات من الشعر أستطيع
أن أسردها عليكم ، لولا أنها ستكون خارج موضوعنا . وعند ركوب
اليم ، حدث ان كان بين الركاب مواطن من مدينة منف ، واحد هؤلاء
الكتاب القديسين ، وكان رجلا رائعا بمعرفته وتعمقه عقائد
المصريين كلها . وقيل انه قضى ٢٣ عاما في الهياكل القائمة تحت
الارض حيث كانت ايزيس تعلمه السحر .

وقال «اريجنوتس» : ان «بانكراتيس» الذي تتكلم عنه ، هو
معلمي . وهو رجل مقدس حليق يلبس الكتان ، مفكر ، يتكلم
اليونانية (ولكن في غير طلاقة) وهو ضخم أفطس الانف ، غليظ
الشفتين هزيل الساقين .

ويستطرد «أيوكراتيس» أنه هو بعينه «بانكراتيس» . . . وكنت
أول الامر أجهل من يكون الرجل ولكن عندما رأيته يقوم بالمعجزة
تلو الأخرى كلما القت السفينة مراسيها - وخاصة اعتلاءه ظهور
التماسيح وسباحته مع الوحوش التي كانت تنحني أمامه وتداعبه
بذبولها - أيقنت حينئذ أنه رجل مقدس . وأخذت أنقرب إليه
بالبشاشة ، الى أن صرت رفيقه . وظلت الصلة تتوثق بيننا الى حد
جعله يفضي الى بكل أسرارهِ . واستجنتني آخر الأمر على أن أترك
كل من كان يخدمني في منف وأن أتبعه وحدي ، قائلا لي : اننا لن

نعدم من يقوم على خدمتنا • ومنذ ذلك الوقت عشنا بالطريقة التالية :

عندما نصل الى نزل كان صاحبي هذا يعهد الى قضيب الباب او المكنسة أو المدق ويغطيه ببعض الثياب ويتلو عليه أحد التعاويذ السحرية ، فيجعله يسير ويعتقد كل الناس أنه رجل ، وكان هذا الشيء يسعى ليأتينا بالماء ويعد لنا الطعام ، ويقضى لنا حوائجنا جميعا بكل مهارة ، ويقوم بأداء ما يلزمنا ، واذا يرى الساحر أنه في غير حاجة الى خدماته يرد المكنسة مكنسة ، أو يجعل المدق مدقا بعد أن يتلو عليه تعويذة أخرى • وساء بسى بعض رغبات فى معرفة هذا الساحر ؛ الا أننى لم أتمكن الحصول عليه منه ؛ إذ أنه كان ضنيناً به ، أما فى سائر ما عداه فقد كان دائماً فى خدمتى • وفى ذات يوم اختبأت فى ركن معتم قليلاً فسمعت التعويذة دون أن ينتبه هو الى ذلك ، وكانت كلمة من ثلاثة مقاطع • ثم اتجه بعد ذلك الى الساحة بعد أن أمر المدق بما كان يريد منه القيام به •

وفى اليوم التالى ذهب الساحر الى الساحة ليقضى بعض حاجته فتناولت المدق وألبسته كما كان يفعل المصرى ، ثم نطقت بالمقاطع الثلاثة وأمرته بإحضار الماء • وعندما ملأ الجرة وأحضرها الى قلت له : « كفى هذا ولا تحضر ماء آخر وعد مدقا » • الا أنه لم يطعن واستمر فى إحضار الماء الى الحد الذى جعل الماء يخرم بيتنا كله • وقد أخذنى ضيق شديد وخشيت أن يحضر «بانكراتيس» فيغضب منى ؛ وذلك ما حدث بالفعل • فما كان منى الا أن أخذت فأسا وشققت المدق شقين ، فاستمر كل شق يعمل فى ملء الاوانى بالماء وإحضارها • وبدلاً من أن يقوم واحد بإحضار الماء أصبح الذى يحضر اثنان • وفى اللحظة ظهر «بانكراتيس» وأدرك ما حدث فجعل من حامل المياه قطعاً خشبية كما كانا • ولكنه تركنى دون أن اشعر واختفى ولا ادرى الى أين » •

وينضم الى هؤلاء المتخصصين فئتان من الكهنة : كهنة النوبة (١) ، والكهنة المنجمون ، وقد ترددت الآراء المختلفة فى شأن الفئة الاولى نم تداولتها الكتب فيما بعد . فقد ظن مُلا أن أولئك «الدينين» لم يكونوا سوى أشخاص مدنيين من أهل الرأى الصائب ممن كانوا يأتون لقضاء ساعة فى خدمة المعابد دون أن يكونوا مجبرين على ذلك ، وتوضيح وضعهم هذا قد ساعد على تعليل النصوص المتعددة التى عرضت لذكرهم . ويبدو فى الواقع أن كهنة النوبة كانوا غير ما يصورون تماما ، فهم الفلكيون الموكلون بتحديد الوقت الذى يجب أن يبدءوا فيه أى طقس من الطقوس فى ساعات الليل والنهار . وهم الذين تجعلنا بعض النصوص نتصورهم جاتمين فوق شرفات المعابد يتابعون بالابصار التحركات السماوية فى الليل .

أما المنجمون فكانوا يعرفون التقويم الخرافى فيتحدثون عن الايام السعيدة وأيام النحس فى السنة المصرية . وقد عثر بالفعل على أمثلة متعددة لمثل هذا التقويم ذكر فيها كل يوم من أيام السنة موضعا فيها يوم الخير ويوم الشر وما بين هذا وذاك طبقا للأحداث التى جرت فى الاساطير الالهية والتى حدثت فى ذلك اليوم فى الماضى السحيق . وهناك أيام معينة كانت تعتبر أياما مشؤمة ، فمن قدر عليه حظه التعس أن يولد فيها كان حتما أن يلقى حتفه بطريقة أو بأخرى .

واذا جاز لنا أن نأخذ بما جاء فى الروايات الشعبية كان لنا أن نقرأ من أنبائها أنه عندما يولد لأحد الملوك وليد كانت الجنيات (الارواح) البقرات السبع (المعبودات السبع) تهرع لتحدد مصيره .

(١) يسمون فى اللغة المصرية كهنة الساعة . لأنهم كانوا يتناولون على عملهم لساعات معينة (المترجمة)

غير أنه لم يكن حتماً على تلك المعبودات النيبيلات أن يحملن أنفسهن ذلك العناء عند كل مولد . بل كان على الأب - سعيداً كان أم شقيماً - أن يسعى بنفسه إلى متخصص فى علم التفويم ليسأله عن عاه النبؤات السعيدة أو المشئومة . وهنا كان على الكاهن المنجم ان يقوم بارضائه : وفيما بعد وفى أواخر عصور الحضارة المصرية أصبح الكاهن المنجم عالماً كبيراً . اذ سرت الى مصر فكرة ربط مصير كل كائن حى فيها بظروف مولده الكونية . وهنا نشأت - وازدهرت فيما بعد - عادة التنبؤ بمستقبل الجديد من المواليد عن طريق ربطها بالتأثيرات الكونية التى كانت سائدة وقت الولادة . ولكن لم يكن لهذه العادة التى ظهرت فى العصور المتأخرة مايرسيها على أى أساس مصرى قديم . ومن ثم يمكننا تحديد وظيفة الكاهن المنجم - ان صح أنه كان موجوداً بصفة مستمرة فى معابد العصور الزاهية - بأنه كان يقوم بتحديد طبيعة أيام ميلاد سعيدة هى أم شقية ، وذلك عن طريق الربط بينها وبين الاحداث الاسطورية التى حدثت فى مثل هذه التواريخ .

المنشدون والعازفات :

وكان للمنشدين والعازفات ، كما كان للمتخصصين دور هام فى الحياة الدينية بالمعبد . اذ لم تتضمن العبادة فصولاً يترنم بها فحسب ، بل كان يصاحب أداء طقوسها فى مختلف الاوقات بعض القطع الملحنة فتغنى أحياناً على نغمات العود . وسوف نتكلم فيما بعد عن تحية الصباح الموسيقية التى تشنف سمع الاله عند كل صباح، كما ان هناك بعض النصوص فى «دندرة» وفى «الميلدامود» وفى أماكن أخرى منظومة على وتيرة ايقاعية مع بعض مقاطع يرددوها مجموعة من رجال التخت كما كانت تتضمن أيضاً لازمة متكررة . وهذه المظاهر الفنية كانت تتطلب اخصائيين .

ولدينا الكثير من المعلومات عن أهل العزف والانشاد الدينى
من رجال ونساء • ويبدو أن أهمية دورهم قد أخذت فى الازدياد
مع مرور الوقت • فهذا «كليمنت السكندرى» يجعل المغنيين – وهم
الذين أطلق عليهم لفظ hymnodes ضمن طائفة الكبار من الكهان •
فلضرورة ضبط الاصوات ومطابقة الايقاع فيها لتقاليد البيان
المقدس القديمة ، كان لا بد من بعض التدريبات لتكوين هؤلاء
الفنانين الذين احتلوا فيما يبدو مركزا اجتماعيا مرموقا • وتحت حكم
الامبراطور «جوليان» فى نهاية الفترة الوثنية كان الموسيقيون يجندون
فى الاسكندرية للاحتفالات الدينية • (Julien, Lettres 109 (56)

أما فى العصور الاقدم فائنا نشك فى أن المنشدين فى المعابد
وكانوا من الشخصيات المرموقة فهناك كثير من الوثائق الاقتصادية
والاجتماعية ذات أهمية كبيرة وهناك صكوك المنسح تصورههم لنا
فقراء يملكون رقاعا صغيرة من الارض يهون موسيقاهم الجميلة
ويهبون أنفسهم وممتلكاتهم الى معبد معين • ولقاء تلك المواهب
الفنية كان الاكليروس يكفل لهم الامن واسباب العيش •

وتشير كل الدلائل الى أن جشع خزانة الدولة والاحتكارات
العسكرية لم توفر لهم الامتيازات نفسها فى حياتهم المدنية •

أما فريق النساء الذين نراهم هنا للمرة الاولى فى محيط
المعبد فيبدو أنهم قد تمتعن بمركز اجتماعي أكثر تقديرا • والواقع
فيما يبدو أنه كان فى استطاعة النساء فى بعض المناسبات القيام
ببعض المهام الكهنوتية • ولدينا من أيام الدولة القديمة أمثلة من
خدمة النساء فمهن من كن كاهنات لآلهات بل لآله • ويبدو أنهم
قد قمن بطقوس العبادة مثل الرجال • وقد كن من سيدات المجتمع
الراقى أو مجرد بنات لكهنة ثم ورثن وظائف آبائهن •

ومع ذلك فقد ضعفت هذه الظاهرة بمرور الزمن . فأخذ
التخصص في الدور الذي قامت به المرأة في العبادة يتضح
بالتدريج . فالمعبد الطيبى الذى جعل للاله صاحبة فى الارض
وكانت تدعى «الزوجة الالهية» - والى احتلت مكانة سامية فى كهنوت
أمون - ظل أمره منفردا ليس له فى المدارس الدينية الأخرى نظير .
أما وجود المنشدات العازفات فى المعابد فقد كان أمرا ثابتا تقريبا .
وتصورهن لنا النقوش وهن يقمن بهز الصلاصل أو يداعبن أوتار
قيثارة فى حضرة المعبود . وفضلا عن هذا الدور الفنى
البحث كان النساء يظهرن فى مناسبات محدودة جدا ، نذكر
منها على سبيل المثال : أثناء تمثيل الاسرار الدينية كانت تقوم
سيدتان بتمثيل دور الالهتين : ايزيس ونفتيس ؛ فيؤتى بعدراوين
ظاهرتهى الجسد خالصتين من كل شعر فيه ، يزين رأس كل منهما
شعر مستعار ، ويبد كل منهما دف وعلى كتف أحدهما : « ايزيس »
وعلى كتف الأخرى « نفتيس » . ثم يقومان بغناء أبيات هذا الكتيب
فى حضرة الاله (من قرطاس رقم ١٠١٨٨ بالمتحف البريطانى) .

ومما جاء فى قرطاس آخر (برلين ١٤٢٥) فإن هذا المشهد
كان يمثل أمام بوابة معبد أبيدوس الموصلة الى أبهائه . ولكن ليس
فى الامكان التأكد من أن هاتين الفتاتين اللتين تقومان بهذه الطقوس
تدخلان فى عداد العاملين الدائمين فى المعابد ، وإن كان من الممكن
أنهما كانتا تدعيان فى مناسبات الاحتفالات الدينية كما كان
يدعى الكثيرون غيرهما من الإخصائين لأداء هذا الدور بعد القيام
ببعض مظاهر التطهر . تلك كانت على الأقل حال فتاتين عودتنا
النصوص اليونانية على تسميتهما « توامتا السيرايوم » . وقد
تكون قصتهما طويلة جدا إذا ما رويت بكل تفاصيلها وهذه على
الأقل سماتها الرئيسية : كانت أمهما قد فرت مع جندي اغريقى
فأختبأ أبوهما فى « هراكليوبوليس » خشية أن يغتاله منافسه

المحفوظ الى أن توفي . وهكذا ظلت الفتاتان وحدهما فجا كان
منهما الا أن طلبتا الحماية لدى كهنة السيرايوم بمنف ، وكان
هناك صديق لأيهما (١٦٣ - ١٦١ ق م) . وهناك كان عليهما
للحصول على وسائل العيش أن يقوما بأداء دور الالهتين الأختين
ايزيس ونفتيس خلال احتفالات الجنائز التي تقام عند دفن
« العجل أنيس » .

وهناك أخيرا بعض النقوش التي تصور لنا نساء مقببات
يؤدين دور الالهتين أثناء الاحتفالات . وليس من شك في أن النساء
قد كن يقمن بأدوار أخرى في المعابد فقد أقرد « التقويم الكهنوتي
في تانيس » بابا يمثل نشاطهن في طقوس العبادة .

وقد سبق أن أشرنا الى أن أى هيئة كهنوتية تابعة لمعبد معين
كانت تتضمن بعض كهنة دائمين ومجموعات أخرى من الكهنة
تتناوب العمل . وكان يحدد هذه الدورات نظام « المجموعات »
الكهنوتية . من سماهم الاغريق « الفياقي » ، وفيما يلي القاعدة
التي بنى عليها تنظيم هذه المجموعات والتي انسبت بالسلطة
المتناهية :

كان العاملون غير الدائمين ينقسمون الى اربع طوائف متساوية
في العدد وفي توزيع الوظائف . فكانت طائفة من هذه الطوائف
تقوم بالخدمة الدينية لمدة شهر ، أو بمعنى آخر مدة لا تزيد في
مجموعها على ثلاثة أشهر في السنة ، يفصل بين كل مدة وأخرى
- بالنسبة لكل مجموعة - ثلاثة أشهر للراحة . وفي العصر البطلمي
زادت تلك الطوائف فاصبحت خمسا ونقص بذلك مدى مشاركة
كل مجموعة في صيانة العمل وسيره في المعابد . ويوجد على رأس
كل من هذه المجموعات الأربع أو الخمس رئيس . وفي نهاية الخدمة
الشهرية تخلي الطائفة التي تغادر المعبد مكانها للطائفة التالية التي

ستحل محلها فى الخدمة وتسلمها جميع المعبد بأدواته ومطالبه .
وفى هذه المناسبة كانت تستخدم « سجلات المعبد » المدونة على
لوحات من الخشب أو أحيانا على فراطيس من البردى ، لتمكن
الفرقة الحالية من التأكد وقت استلام العمل من وجود
الأدوات جميعها والمعدات اللازمة لطقوس العبادة من تماثيل
وأدوات موسيقية ومصليات سهلة النقل وأوان مخصصة للطقوس
.. الخ .

أدنى طبقات الكهان :

تشمل هذه الطبقة كل الكهنة الذين لهم الحق فى حمل
لقب المتطهرين ، ولكنهم لا يؤدون فى العبادة - وأنساء تأدية
الطقوس الدينية - الا دورا ثانويا . وهم فى النهاية طبقة
الشمامسة .

هؤلاء « المتطهرون » كان فى امكانهم أن يقوموا بأعمال مثل
حمل المراكب المقدسة والقيام برش المعبد ، أو الاشراف على
النقائين والرسمين . ورياسة الكتبة ورياسة الصنائع فى
الضيعة المقدسة ، أو أن يكونوا مجرد صنائع فيها يشرفون مثلا
على نعال الاله . وفى العبادات التى يتسع فيها الاكليروس كانوا
ينقسمون فيما بينهم الى طبقات . فمنهم طبقة رؤساء المتطهرين
« او كبار المتطهرين » . وذلك فضلا على مرءوسيهم الذين يدخلون
فى زمرة الكهنة الذين ليست لهم صفات خاصة بل هم كهنة يقومون
بكل شئ .

وفى عداد طبقة الكهان الدنيا هذه كانت تنطوى طبقة
ال Pastophores وهم الذين يحملون الأدوات المقدسة
ويشتر دورهم بل اسمهم مشاكل يصعب حلها . والنحارون الذين
يذبحون الحيوانات المخصصة للقربان لم يكونوا قصابين عاديين .

فالنصوص الاغريقية تربطهم بطبقة دنيا من الكهان ، على حين تضعهم بعض النصوص المصرية فى مصاف العاملين فى « بيت الحياة » مشيرة بذلك الى أنه كان عليهم معرفة بعض قواعد الرموز الدينية، وأن وظيفتهم كانت أجل من أن تكون مجرد عمل مادي . فالحيوانات المخصصة للآلهة كان من الواجب اختيارها طبقا لقواعد معينة .

وهناك أخيرا « معبر الرؤى » ويسميه الاغريق (onirocrates) وكان مثقفًا وصاحب دراية قوية بعلم الرؤى الليلية . وكان على استعداد لخدمة المؤمنين الذين يتشوفون الى تفسير أحلامهم .

ومن المرجح أن يكون للعصور التي انتشرت فيها عادة قضاء الليل فى المعبد لتلقى انذارات الاله أثر فى وقوع عادة تفسير الرؤى واقتضى ذلك أن اكتسب أولئك السدنة من طبقات الدنيا أهمية وتضاعف عدد كتبة بيوت الحياة .

المساعدون والنزلاء الطارئون :

وعلىنا أخيرا أن نذكر على الأقل العاملين الكثيرين من المساعدین العلمانيين الذين كان نشاطهم يؤدي الى دفع عجلة أمور المعابد المادية برغم أنهم لم يكونوا كهنة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة . وهم البوابون وحراس المباني المقدسة ، والعاملون القلائل فى دور الصناعة ، فالقصابون والخبازون ، وزارع الزهور وورعاتها ووكلاؤهم وحاملو القرابين الذين كان عليهم نظريا تقديم الطعام للاله على المائدة مرتين فى اليوم . والكناس وهو الذى كان يقوم بإزالة كل أثر للأقدام على الرمال فى المقاصير . ثم طاقم الفنانين والمهندسين والنقاشين والرسميين والنحاتين الذين كانوا يقومون بأعمال الترميم والتشييد والزخرفة فى المباني الدينية طبقا لتوجيهات العارفين فى بيت الحياة ، ثم الرقيق الذين لم تحدد

وظائفهم بعد • وأخيرا طبقة المساعدين الذين يسهرون على رعاية الحيوانات المقدسة واطعامها ويمكنون السائحين فى بعض المناسبات من رؤيتها لقاء مكافأة مشروعة •

والى جانب هذه الأعداد الهائلة من المساعدين الذين لم يتمكنوا من الخطوة بلقب كهنوتى الا فى حدود متواضعة ، كانت هنالك مجموعة من الأشخاص ضخمة وغريبة فى آن معا لا ينبغي أن يهمل حسابهم وأولهم النساك (الخلوتية) ، وفى أواخر عصور الحضارة المصرية نشأت مؤسسات مدنية طابعها التقوى ، وألزمت نفسها بقيود دينية حتمت عليها الاسهام فى الانفاق على صيانة الهياكل وبقائها ، وكان لذلك أثره فى تشجيع كثير من المدنيين الراغبين فى البعد عن الحياة بصورة ما يمكن أن نسميه بالانعزال أو الاختلاء مع أنهم احتفظوا بالامتياز الذى يخول لهم حق الخروج من المعبد متى يشاءون • يقابل ذلك فريق آخر من الأفراد كانوا لا يجدون فى قربهم من المذابح راحة لنفوسهم فحسب بل يجدون فيه ملاذا يهرعون اليه هربا من واجبات الحياة التى يلقونها على أيدي رجال الشرطة ، ومحصلى الضرائب والتجنيد ومشاكل أخرى • وفى استطاعتنا أن نتخيل هذا الموكب البائس ، ونتصور من فيه من المساكين العراة ، أو من المشاغبين قطاع الطرق الذين جاءوا يطلبون لقمة تقيم أودهم فى ظل أسوار الضيعة المقدسة التى لا تنتهك حرمتها أبدا ؛ يطلبون الأمان من مصيرهم المظلم • ومنهم من نذر نفسه فى الظاهر مدى الحياة لخدمة الاله مثل أولئك الرعاع الأتقياء - اذا صحت التسمية - فى سيرابيوم منف أو أولئك الذين رغبوا فى اختلاء للعبادة والذين عثرنا على بعض عقود لهم • وكانوا يحصلون من رجال الكهنوت على نوع الحماية لقاء تنازلهم لهم عن بعض ممتلكاتهم وكان فى استطاعتهم أن يمارسوا إحدى الوظائف الملحقمة بخدمة الاله • فهذه امرأة تدعى «تانبينس» وهبت نفسها

لاله معبد صغير بالعيوم وربطت نفسها به بما يفسره قولها الآتى :
« اننى خادمتك وكذلك أولادى وأولاد أولادى . ولن أستطيع التحرر
من رباطك ابدا ، ولسوف تحمينى وتحفظنى سليمة معافاة ، كما
أنت ستدفع عني كل روح شريرة ، ذكرا كانت أو أنثى ، ومن كل
متكلم فى نومه ، أو مريض بمرض الصرع ، ومن كل شخص معرض
للمرض ، ومن كل ميت ، ومن كل غريق ، ومن كل روح معاكسة » .

اما الأشرار فقد كانوا يكتفون بالأمن المادى الذى يكفله لهم
المعبد على أن يقوموا لقاء ذلك ببعض الأعمال البسيطة من أجل
لقمة العيش التى ينالونها كذلك .

والى جانب أولئك اللاجئيين بمحض اختيارهم ظهر كذلك المرضى
الذين جاءوا طلبا للتنفيس عن آلامهم أو التماس وسيلة لشفائهم
عن طريق الاحلام .

وأخيرا عرفت معابد العصور المتأخرة نوعا من النزلاء كان
أمرهم غاية فى العجب : أهل الكشف وهواة العذاب . وقد رسمت
لنا نصوص « المنجمين » صورا حية لهم : « كان اهمالهم للعناية
بأجسادهم رهانا لكمالهم الروحى . فقد كانوا يلبسون ثيابا
رثة ، ويتركون شعورهم بدون تهذيب فيبدو على شكل ذيل
الحصان . وكانوا أحيانا يكبّلون أجسامهم الهزيلة بالسلاسل
إشارة لسجنهم الاختياري . ولا شك أنهم كانوا يفرضون على
أنفسهم الامتناع التام عن بعض أشياء ، ويجبرون أنفسهم على
النظام . كما أن زهدهم فى الحياة كان يجعلهم فى نظر عامة
الشعب يستحقون أن يتجلى لهم الاله Fr. Cumont
وكانوا يفهمون أحيانا بشرح الأساطير الالهية للزوار والسائحين
والحجاج قائمين بذلك بوظيفة التراجمة ، كما كانوا كثيرا ما
يتنبئون بالغيب ، وتتناوبهم الرعدة قبل التنبؤ فسجنون بعض
المكاسب بسبب الجنون الالهى الذى يعتربهم .

البياب

الرابع



أوجه النشاط المقدس

يُتَذَكَّر كل من زار مصر منظر مصاطب سقارة العجيب . فعلى ضواحيها يتوهج ضوء الشمس المحرقة فى عالم مدمر : آثار تثول الى السقوط ، وتلال من الرمال لا تستطيع العين احتمال وهج الضوء المنعكس منها ، وعلى العكس من ذلك يشيع فى المقابر جو منعش جميل ويفاجئ الرائي بعث عالم قديم قدم الأهرام . وفى صفوف متراصة ودقيقة تصور النقوش فى الوقت نفسه كثيرا من الشخصوس متحركين عاملين مغنين تحت عين سيدهم المسعدة اليقظانة فى آن معا . فها نحن فى ضيعة غنية ولواحد من أثرياء العصر الماضى ، يحيط به عدد من الخدم والمريدىن الذين يعملون فى خدمته . فهذا أحد الخدم يضبط على رأسه شعره المستعار حين يفيق من نومه . وآخر يدلك له قدميه ، وثالث يقدم له ملابسه . وأولئك بعض أقزام ممن ألف يتخيرون القلادة التى سوف يتحلى بها ، على حين يستقبله من يعزفون على القينارة ومن يغنون مايشجى من النغم . ثم يحين وقت العمل فنجد وكلاءه يقدمون اليه تقاريرهم . ويبدو أن هذا اليوم سيكون من الأيام الحافلة بالعمل وأنه سيمضيه

فى البتفتيش على الضيعة الواسعة التى يعيش فيها كسيد ، وعليه يقع
وأجب نجاحها وازدهارها .

مثل هذه الحياة التى يحياها ذلك السيد الاقطاعى المهيمن على
ضيعته والمقيم فى قصره ومن حوله طوائف من الخدم يتزاحمون على
خدمته ، نقول مثل هذه الحياة قد صورها المصريون القدماء لألهتهم .
فقد نزل الكائن الأعظم (الاله) الى الأرض وسكن قصرا منيفا
« قصر الاله » بينما كفل له خدام الاله وهم الكهنة الرعاية التى
تقتضيها حياة ذوى الشخصيات العالية ؛ فهو منذ اليقظة حتى النوم
يغسل ، ويلبس ، ويعطر ويطعم ويسرى عنه بالغناء والموسيقى
والحرص على صفاء مزاجه لينفذ قضاءه الالهى الخير ، وهو تأكيد
مسيرة الكون فى سلام . تلك كانت الخدمة الواجبة لكائن أعلى يقوم
بها الكهان .

وهو سيد أيد لا يدع أحدا يتقرب منه كأتى عمدة من عمد
الريف . ومن ناحية أخرى فان اعتدال مزاجه أو انحرافه لن يفضى
بتقرير مصير بضع عشرات من الفلاحين فحسب ، بل قد يؤدى غضبه
الى فناء البشرية جمعاء . ولن تستطيع قوة الهية فى نهاية الأمر أن
تقيم على الأرض حيث تكون عرضة لأن يمسها شئ من الفساد والشر
فيعتورها . ولذا اقتضى الأمر اتخاذ الاحتياطات اللازمة كافة لضمان
سلامة الوجود الالهى ، وذلك فى أكثر أماكن المعابد سرية وأبعدها
عن الأنظار وعن مافى الوجود من رجس . ومن هنا كانت العزلة وطهارة
المعبد والقائمون فيه بالعبادة زيادة على الصرامة المتناهية فى
ممارسة العبادة مع حسن تنظيم القرابين وترتيبها الدقيق من الزم
ما يؤدى لارضاء الاله . تلك كانت هى المبادئ التى لا تتغير أبدا
وسود العبادات فى مصر جميعها .

الآن وقد غشى النوم الحياة فى مصر ، ونشر السكون جناحيه
على المدن والقرى ، ثم على النيل والصحراء ، ومن وراء أسوار المعبد

المقدس الشاهقة ، وعلى شرفة المعبد وقف رجل يرقب ؛ أنه يرصد بروج السماء ويسجل عند جنوح النجوم انقضاء ساعات الليل . وينقضى الليل ويحين الوقت ٠٠٠٠ وعلى ندائه (أو أذانه) يهب فى محيط الحرم الالهى حى بأكمله فتضى أنوار وتوقد نيران ، وتبدأ الحياة من جديد ، وخلال الساعات التالية تبدأ الخدمة المقدسة ، ويكون كل شيء قد أعد لذلك . فتملاً الحياة أنحاء المعامل وأماكن البيع والتجارة والمخابز ؛ فهؤلاء الكتبة يدفعون الى رؤساء العمال قائمة القرايين فى اليوم الذى حل . ويسير العمل فى سرعة سريعة ؛ فبينما توقد الأفران لاعداد الفطائر وأصناف الخبز ، يقوم القصابون بذبح حيوان الضحية بعد ما قرر الكاهن البيطار سلامته . وتعد الفاكهة والخضر تمتلئ بها الصحف وينشغل المحاسبون بتسجيل ما ينتظر تقديمه ضمن القرايين من ثمار ؛ ويظهر بعض الكهنة قطع اللحم بماء البئر المقدس . وفى هذا العمل الجارى داخل أماكنه فى حماسة ونشاط تنقضى الساعات التى يعلن انقضاء كل منها صوت قوى يطلقه المؤذن القابع فوق شرفته .

ويبيض وجه السماء ، ويهب فريق آخر من مدينة الحرم . فنرى الكهنة وقد غادروا دورهم قاصدين الى البحيرة المقدسة فى جموع صغيرة تنم عليهم تحت بقية الليل الباهتة ثيابهم الكتانية البيضاء ، ومن الدرج الأربع فى جوانب البحيرة ينزلون الى الماء الذى يغشاه الضباب . وهم عند اغتسالهم لا يطهرون أجسادهم فحسب وإنما هم يبتغون أن تسرى الى نفوسهم حياة الهية تدب فيها شيئاً فشيئاً . فالماء المقدس فى اعتقادهم يجدد ويخلق خلقاً جديداً ؛ تماماً كما يفعل النون الذى خرج منه العالم فى البداية . فمن اغتسل به أحس قوة جديدة تملؤه وتنقله من هذا العالم ليدخل فى العالم اللانهائى حيث تقيم الآلهة .

وهاهم يبلغون هذا العالم فيدخلون اليه ، ولا يكادون يجاوزون أول الأبواب فى سور ذلك البناء المقام من الحجر الرملى من حول

المعبد حتى يصبحوا فى المجاز الخارجى الكبير الذى يحيط ببناء
القدس كله . وهناك يتفرقون فيذهب كل منهم ليقوم بعمله . ومن
ذلك القيام بتجديد الماء فى حوض « الاحتياطى » ، ثم حرق البخور
وعمليات التطهير المختلفة . تلك خدمة دينية تحضيرية تجرى فى
الحوائن الجانبية التى تضم الأدوات المقدسة ، وفى الطريق الذى
سوف يسلكه بعد قليل موكب القرايين . ويمر الوقت ويبدو فى
شرق السماء لون أفق الصباح وهنا يبدأ الاحتفال بتقديم القرايين .
وتنشط المعامل فى انجاز أعمالها ؛ وهى كدأبها دقيقة فى مواعيدها
- فوجة الصباح التى تقدم للاله - تعد فى وقتها المحدد فترى الخدم
ينطلقون فى المجاز الى جانب القدس وبأيديهم صحاف رصت عليها
ألوان الزهر والفاكهة ، وفوق رؤوسهم المرتفعة فى اتزان دقيق
أحمال ثقيلة من الحبز أو اللحوم التى يشتريها الاله ، وجرار الجعة
أو النبيذ التى سوف تروى ظمأه . ويمضى ذلك الموكب متقدما الى
القدس يقوده كاهن يرتل بعض الأناشيد وتفتح أبوابه واحدا بعد
الآخر . وعند تقديم الطعام الى رب المعبد ترتفع الأصوات داعية
إياه أن يتقبلها وحين يبلغ الموكب رحبة المذبح التى تتوسط المعبد
بالقرب من قدس الأقداس ، يتوقف عن المسير فيضع الخدم الصحاف
على الموائد والمذابح ، وينزلون جرار الشراب على حوامل تبلغ فى
ارتفاعها النصف الأسفل من أجسادهم النحيفة ناثرين بين القرايين
المتنوعة ألوانا من الزهر والنبات الغض .

وينسحب حمالو القرايين ، فيأخذ الكهنة فى تطهيرها برسومها
بالماء ؛ ويحرقون من حولها البخور . وتبدأ مرحلة أخرى من مراحل
الخدمة الدينية . وقد أخذت أشعة الضوء الذى انسر فى الخارج
تنفذ الى قاعة المذبح من الكوات الضيقة تحت جدران السقف .
وفى مواجهة الكهنة والمرتلين الذين وقفوا الى جانب القرايين ترتفع
واجهة المدخل الى قدس الأقداس شماء . ويتقدم واحد من كبار

الكهان تفرد وحده بالمشول بين يدي الاله فيرقى الدرج المؤدى الى قدس الاقداس مفضيا الى ختم الصلصال - الذى كان قد وضع فى عشية اليوم الفائت لتحريم الدخول الى هذا الجزء من المعبد - فيفضه ثم يدفع الباب فينفرج مصراعا . وعندما تأخذ الشمس طريقها مرتفعة الى السماء من أفقها الشرقى ينشد رئيس المنشدين فى حضرة الاله مرتلا أنشودة الصباح « أفق أيها الاله الكبير فى سلام ، أفق فانك فى سلام » .

يردد المنشدون معا بصوت يجلجل من تحت السقوف التى ارتفعت فوق البناء منذ مئات السنين ؛ لينتقل من مصلى الى آخر فى دوى صاحب هائل « مفيق أنت » وانك فى سلام . أفق فى بهاء وسلام أفق يا رب هذه المدينة بحياه ! ان الآلهة يمجدون روحك مضحين ، أيها القرص المقدس ذو الجناحين ؛ الذى يضىء عند الاشرار من أمه « نوت » ! انك أنت الذى تفضى ختم حجابك من الصلصال وتنشر على الأرض ذهبك المنثور . أنت يا من تولد فى الشرق ثم تغيب فى الغرب لتريح فى معبدك كل يوم » .

ويردد الكاهن ابتهالته القصيرة مع تغيير ما سبق من صفات الاله ، على حين تردد بطائنه باستمرار لأزمته دون تغيير بعد كل مقطع . ويتم المنشد ذكر الصفات الالهية جميعها لينتهى الى الأرباب من رفاق الاله ، ثم الى أعضاء الجسد الالهى التى انبعثت الى الحياة فيقول : « عيناك ترسلان لها ، عيناك تضيئان الليل ، يرتفع حاجباك فى بهاء . أيها المحيا المشرق يا من لا يعرف الغضب » .

وبذلك كانت الأعضاء المقدسة التى كانت تولد كل يوم من جديد خمسا وأربعين مرة على حين تردد المجموعة بالتالى لأزمته

نفسها خمساً وأربعين مرة « أنه مفيق ، انك فى سلام . . انك تنشر على الأرض ذهبك المنثور . . » .

فى المواجهة :

ويدخل الكاهن المنفرد بحق الاقتراب من الاله الى القدس وقد غشيه ظلام مطبق ، ذلك لأن الشمعة التى أوقدت بالأمس قد أخذت تذبل شيئاً فشيئاً حتى انطفأت الى أن يعود الليل . وعلى أحد الجوانب استقر الزورق المقدس فوق قاعدته ، وهناك الناووس وهو خزانة صغيرة من الجرانيت أو البازلت ويغلقه باب ذو مصراعين من خشب . وفى جانب آخر صندوق من الخشب به بعض ما يقتضيه أداء الشعائر من أدوات وبعض قطع من النسيج ، وأخيراً المذبح الذى وضعت عليه أمس صحيفة القرايين .

يبدل الكاهن المصباح فينتشر النور . ونبدو ظلال الرورق والناووس والكاهن فى تحركه ، وينعكس كل أولئك على الجدران المنقوشة وتزينها ألوان زاهية ، فتعود الحياة الى القدس بعد السبات الطويل الذى استغرق الليل كله . ويفضى الكاهن بعدئذ الى الناووس فيفيض ما على بابه من خنم ، ثم يجذب مصراعى الباب فى حرص ودقة . . تلك لحظة جليلة ، لحظة اشراق الاله فى صورته من عالم الليل . وذلك فى الوقت نفسه الذى تبزغ فيه الشمس من الأفق مشرقة مع الكلمات الأولى من نشيد الصباح . . .

ولابد أن يذكر سائر من طوفوا بقاعات متحف اللوفر تلك المقصورة الصغيرة التى خصصت لتمثال الاله «أوزيريس» والمستقرة فى ممر تحت الأرض . هناك حيث يبدو الاله فى كوته وقد انتشرت على جوانبه أضواء المصابيح . وكثيراً ما ينبهر الزائر بذلك المنظر الرائع لهذا التمثال الخشبي وهو يشرق من جوف الظلام فى فتنة

وسحر برغم ما يبدو في نحتة وإخراجه من خشونة ونقص في الاتقان .

وعلى هذا النحو ويمثل هذه الصورة كان يبدو - غالبا - اشراق الاله عندما يفتح الكاهن باب الناووس على مصراعيه ، أو تلك صورة ليس من اليسير تمييز ملامحها في الظلام ؛ غير أن بريقا كانت تلمع به عيناه المطعمتان وتاجه وسائر علائقه وحليه المعدنية . ولم تكن مشاهدة الاله من الأمور التي يتاح للناس جميعا أن يحظوا بها إذ المفروض أن الملك وحده هو الذى يستطيع ذلك بوصفه ابنا للاله . والواقع انه قد كان بكل معبد عدد يسير من ذوى الدرجات العليا من الكهان لهم الحق أن ينوبوا عن الملك فى مشاهدة التمثال المقدس الذى تتمثل فيه قوة الاله كامنة وجها لوجه عند كل صباح . وعندما كان الكاهن يضع يديه على رأس التمثال فيما يشبه العناق لكائنا كان « يرد عليه روحه » . وهكذا كان الاله الظاهر فى سماء مصر يعود فيهيمن من مستقره الأرضى وليستوى ملكا طوال اليوم فى معبده ، وبذلك يمثل وجوده صورة فى ناووسه وهو حقيقة رمز لوجوده فى العالم كله .

ويقوم الكاهن للصلاة مرخيا ذراعيه على جانبيه فى خضوع واحترام مكررا دعاءه مرات أربع ليبلغ آفاق الوجود الأربعة وهى حدود الكون . « واننى أُمجد جلالتك بتلك الكلمات المختصرة ، بصلوات تزيد من جلالك فى أسمائك العظمى وفى تجليك المقدس الذى أشرقت به أول أيام الدنيا » .

طعام الاله :

على أن القرايين لا تزال على المذابح الى أن يرضى الاله فيقبل الاستمتاع بها ؛ وهنا يجيء الكاهن فيرفع صحيفة الأمس الموضوعة فى

القدس ، ثم يمضي ليملاها من قاعة المذبح بالخبز والفطائر الحلوة الطازجة . وكانت تلك المجموعة الرمزية فقط هى التى تقرب من الاله لتمثل مجموعة اللحوم والحلوى والحضر والفاكهة التى تفيض بها الموائد . تم يتم فى فصلين رمزيين : تقديم البخور ، وتقديم « ماعة » ، بهما يتم للاله غذاؤه ، ثم ما للكون الذى يهيمن عليه سلطانه .

تلك عملية رمزية روحية ، فالاله لا يطعم ما كان يقدم اليه ، وانما كانت الطعوم والأشربة انما تقدم الى تمثاله حيث نكمن الروح . لذا كان ذلك يتم بعيدا عن الأنظار . فما خال القوم فى الطعام من روح كان مصيره الى ما خالوا للاله من روح ، كل أولئك دون أن يبدو أى تغيير فى ترتيب القرايين التى تكدست فوق المذابح أو تنظيمها . وحين يخال القوم - بعد وقت محدد - أن الاله قد شبع وشبعت معه أرباب أخرى من بلاطه فى معبده ، توصع القرايين على المذابح أمام تماثيل ذوى المقامات العلا ممن حظوا بشرف إقامة تماثيلهم داخل النطاق المقدس . تم ترد بعدئذ الى المعامل حيث توزع طبقا لنظام محدد بين مختلف كهان المعبد وهكذا كان يعيش السدنة الدينيون من تلك القرايين المخصصة للاله مستمتعين بحقيقتها المادية بعدما شبعت روح الاله وأرواح الموتى من ذوى المقامات العلا بجوهرها الروحى . ولما عرف نظام الوقف الزراعى لصالح احد العبودات ضمن الفراعنة فى الوقت نفسه طعام الاله ومن يقومون بخدمته الدينية . ولم يكن الاكليروس دائما من الدقة بحيث ينفذ ما تقتضيه الشرائع . وبذلك كان ينحرف نصيب من هذه الموارد دون أن يقدمها للاله ليتمتع بها ، وان كانت النصوص قد حددت ذلك بكل دقة « انهم يعيشون من مئونة الاله ، وهى كل ما يخرجه من المذبح بعد أن يستمتع به الاله » (معبد أدفو) .

الزينة :

وينتهي الطعام ويبدأ التزيين ، فيغسل تمثال الاله ، وتخلع عنه أردية الأمس ، ويبدلونه بأخرى جديدة ثم يزينونه • ومن المعروف أن كل نسيج لم يكن صالحا للباس الاله والكهنة • فالصوف بخاصة لم يكن فى الامكان بأى حال تقريبه من الأشخاص أو الأدوات المخصصة للاله • والكتان الرقيق وحده كان صالحا للباس الأكليروس ، ومنه تنسج اللقائف اللازمة لتمثيل الآلهة • ومن أجل ذلك ألحقت بالمعابد مصانع للنسيج يقتصر عملها على اعداد النسيج الخاص بالعبادة • ولدينا من الوثائق التاريخية الخاصة بذلك مايلى : « ١١٠ » واشتهرت معامل سايس فى الدلتا بخاصة « • وفى أثناء العصر اليونانى الرومانى ما يذكر بكثرة ما كان يقع من خلاف بين المعابد وبين السلطان على تحديد نصيب كل منهما بما تخرج هذه المعامل •

وقامت هذه المعامل بامداد المعبد امدادا متصلا ، وكان بين أبعائه قاعة تعرف « بغرفة النسيج » وكانت مخصصة لحفظ الاحتياطي من النسيج • وبعد فقد كان هناك الكاهن المختص الذى يدخل القدس ليقوم بالباس الآلهة لباسهم ، وكان هو المسئول عن تلك الأقمشة وصاحب الحق فى احتكار استعمالها •

ويجرى تزيين الاله فتقدم على التوالى لقائف أربع من الكتان الرقيق أخرجت من الصندوق الخشبي المحفوظ بالقدس ، أولاها من نسيج أبيض ، والثانية من الأزرق ، والثالثة من الأخضر ، والرابعة من الأحمر • والواقع أن لباس الاله لم يكن يبدل كل يوم ، وانما كان يحدث ذلك فى مناسبات قد تقع مرة أو مرتين من كل أسبوع • أما الذى كان يحدث يوميا فقد كان مجرد تقديم اللقائف الأربع التى مر ذكرها وعلى هذا النحو كانت تجرى عملية التزيين على تمثال الاله ، فهى لم تكن تقع الا فى الأعياد •

ونود أن نذكر في هذه المناسبة أنه قد كان بكل معبد فاعلة صغيرة يحكم إغلاقها في الأوقات العادية وكانت تسمى الخزنة ، يحفظ بها الثمين من أدوات الشعائر وكل مقتنيات الاله المادية من قلاند وعقود من كل نوع ، وقلانس صغيرة دقيقة وغير ذلك مما يمثل سائر اللوازم التي لا يكاد يحصيها العد مما يتاح لكبير كهان الاله أن يتحلى بها . كل أولئك الى طائفة من القرايين الرمزية مثل العين الواقية «أوجات» والساعة المائية والصلاصل والقلاند التي يسمونها « منات » ، والصوالج والأساور . كل أولئك المحفوظات قد كانت تصاغ من أجمل المواد الذهبية أو الفضية المطعمة باللزورد أو بمعائن من المينا من مختلف الألوان . وكل هذه الأشياء كانت متقنة الصنع ، وبلغت صناعتهما درجة رائعة من الفن وقام بانجازها صناع مهرة . ولم تكن هذه الأدوات تظهر الا أثناء أداء الشعائر في الاحتفال حين كان الكاهن يخرجها واحدة واحدة ويقدمها للاله ليكمل بها زينته وبهاءه بعد أن يكون قد البسه كتانا رقيقا . ولم تكن تلك القرايين النفيسة تقدم أثناء الخدمة الصباحية اليومية المعتادة ، وإنما كان يجري عوضا عن ذلك حفل تنتهي به زينة الاله بمسحه بزيت يسمونه « مذجت » . فنرى الكاهن ممسكا بيده اليسرى قارورة صغيرة من المرمر مملوءة بذلك الدهن الثمين ، يغمس فيها الخنصر من يده اليمنى ثم يمس به تمثال الاله وهو يردد ما ينبغي أن يقال في هذه المناسبة . والى هنا في الواقع تنتهي شعائر تزيين الاله . فالاله قد غسل والبس وزين ومسح بالزيت المعطر وهو فوق ذلك قد شبع ، فصار معدا لاستقبال الظلام الذي يغطي القدس . وهكذا كانت القوى الالهية مصونة من كل عدوان وقادرة على أن تنهض يوما آخر للقيام بدورها الكونى .

خاتمة الطقوس في صلاة الصبح :

وتبقي بعد ذلك طائفة معينة من الشعائر ينبغي أن تؤدى لتتم بذلك طقوس العبادة ، اذ أن الضرورى قد تم بالفعل . ولم يبق غير بعض اجراءات مثل رش الماء على الناووس وعلى التمثال ثم على القدس تأكيداً للطهارة المادية ، ثم يقدم الكاهن الحبات الخمس من النظرون (نظرون « وادى الملح » - وهو وادى النظرون الحالى - ونظرون من ناحية الكاب بصعيد مصر) . ثم خمس حبات من ملح نظرونى آخر ، وأخيراً خمس حبات من صمغ الصنوبر . وبعدئذ يحجب الكاهن من جديد وجه التمثال فى الناووس الذى يخلق بابه ويختمه بختم من صلصال ليظل على هذا الوضع حتى اليوم التالى . وأخيراً وقبل أن ينسحب بعد احراق البخور للمرة الأخيرة لتطهير الهواء من كل مكروه ؛ يريق على الأرض ما تبقى فى إبريقه ، ويزيل بمكنسته ما نركه على الرمال التى تغطى الأرض من وطأ الأقدام ، ناذاً ما أفرغ ، انسحب تاركاً الناووس مغلقاً ، على الشمعة التى اخذت تذبذب شيئاً فشيئاً وصحفة الخبز على المذبح ، ثم يغلق أبواب القدس على ذخائره النفيسة وبهذا تنتهى خدمة الصباح . اما ما يبقى من تفاصيل تلك المراسيم الدقيقة ، مثل الزمن المادى للتلاوات والأناشيد واعادة تنظيم المعبد بعد انتهاء خدمة الصباح ، فقد كانت تتطلب فسحة من الوقت . وحين تكون الشمس قد ارتفعت فى السماء ، وقت مغادرة غرف القدس المظلمة ، يبهز الكهان ما يلقون من ضوء الشمس القوى ينبعث من سماء مصر . وهناك مضمون وقد تحرروا من واجباتهم المادية الى أن يحين وقت خدمة الظهيرة ، والى أن يحين ذلك ماذا تراهم كانوا يفعلون ؟ من المحتمل أنهم كانوا يبدون راحتهم ليستردوا نشاطهم . وفى الوقت نفسه نكون القرايين قد نقلت الى مذابح الاله ، ثم الى مواثد ذوى المقامات العلا المنصوبة تماثيلهم فى المعبد . ثم ترد أخيراً الى المعامل لتكون فى

انتظار الطامعين • ويستطيعون بعد ذلك أن ينصرفوا الى كثير من الأعمال المتصلة بوظائفهم الدينية كالادارة الداخلية ، والقيام بالتسجيلات المختلفة ، واعداد التقارير ، وحل المشاكل المتعلقة باقامة المباني المقدسة أو اصلاحها وأخيرا تحقيق العدالة في محيط الاكليروس فاذا ما كانت الظهيرة ، وحين خدمتها ، انصرفوا عن تلك المشاغل العديدة •

خدمة الظهيرة :

كانت خدمة الظهر أقصر بكثير من سابقتها الكبيرة في الصباح • فقد سبق توزيع كل ما تقتضيه خدمة الاله بالفعل؛ ولذا يظل القدس مغلقا والآلهة لا تتناول شيئا من طعام قبل غروب الشمس ، ولم يكن هناك من غرض يهدف اليه بصلاة الظهر سوى الاشارة بطقوس دينية معينة الى اللحظات الكونية الهامة في حياة الاله ، وحيث تكون قد بلغت من سيرتها وقت الزوال ، ولما تبدأ بعد في الانحدار • ومعنى ذلك أن الأمر لم يعد أن يكون مجرد زيادة عدد المراسيم التي كانت تحظى بها التماثيل المقدسة عند الفجر •

وكانت خدمة الظهيرة تتمثل أساسا في رش الماء وحرق البخور أمام مظلات الأرباب وذوى المقامات العلامن يحظون بقرب الاله وجواره في المعبد ، وحول القدس أمام القاعات الصغيرة التي خصصت للعبادات المشتركة • فتنظيف الأباريق وتجديد الماء في الحوض الذي ينبغى أن يكون دائما ممتلئا - وذلك لون من ألوان حياض الماء المقدس - الذى ينبغى أن يظل فى قاعة المذبح ، ثم سكب الماء ، واطلاق البخور فى مختلف الأماكن التى تحددها الخدمة فى الظهيرة ، كل أولئك من شعائر تلك الخدمة •

الخدمة المسائية :

وإذا كانت خدمة المساء قد كان يكسوها شيء من الجلال فانهما ظلت مع ذلك أقل بكثير من خدمة الصباح . وهذه الخدمة تعتبر في عموميتها ترديدا للخدمة الأولى من خدمات اليوم ، وإن ظل القدس مغلقا بحيث تجرى المراسيم في زوايا الصلاة التي تحيط بقدس الأقداس من تقديم القرابين والنذور ، وسكب الماء وحرق البخور ، ورفع الأطعمة ، ثم عمليات التطهير الأخيرة . فكل عناصر الطقوس الصباحية تتكرر الى أن يتم التبخير الأخير ، وهناك تغلق أبواب زوايا الصلاة ، ثم ينسحب الكهنة . وحين يسدل الظلام أستاره وشيكا على الوادى تروح الآلهة - كالبحر - فى سباق عميق ، ولا يبقى غير الكاهن الفلكى ليرصد من فوق الشرفة ظهور النجوم يتلو بعضها بعضا ليحسب بذلك ساعات الليل .

وكانت تلك العبادة اليومية كما وصفناها تقام فى الوقت نفسه وبطريقة ثابتة تقريبا فى كل معابد مصر . الا أن أبهة المحافل وأعداد من يشاركون فيها ووفرة ما يفرب من ألوان الطعام ؛ كل أولئك كان مرتبطا بمكانة المعبد . فقد كانت هناك طوائف من أماكن العبادة المتواضعة يقوم بالخدمة فيها شخص أو شخصان ؛ فلم يكن الأمر فيها يقتضى شيئا من مظاهر الأبهة والترف . ومع ذلك تشير كل الدلائل الى أن روح الخدمات الثلاث اليومية التى سبق ذكرها كانت مقدرة . ويمكننا على الأقل أن نؤكد أن نظام الخدمة الدينية كان يتم فى المعابد الكبرى - مثل الكرنك وأبيدوس وأدفو (ومنها أخذنا سائر معلوماتنا) ثم فى دندرة وفيلة - بطريقة مماثلة وفى الأوقات نفسها وبطقوس يطابق بعضها بعضا مع تغيير فى الصفات والأسماء الخاصة بالآلهة . وكانت بعض تفاصيل العبادة تحتل مكانها كبر أو صغر حسب الأحوال . وإذا كنا قد أهملنا بعض التفاصيل الثانوية الخاصة بما يجرى من طقوس العبادة وشعائرها فى معبد بعينه ، فانه يلاحظ فيما سبق أن أشرنا فى اطار الصورة

النظرية التي رسمناها ، الى الترانيم التي كانوا يرتلون بها . كما بينا
فى وضوح كل ما يتصل بنظام الخدمة الدينية مما لم يكن يقع فى
أثناء الخدمات التي تؤدى خلال الأحتفالات ، وذلك لنتمكن من الكلام
عن العبادات فى مصر جميعا . ومع ذلك فلن يخرج المظهر العام
- لما يتبقى بعد ذلك كثيرا - عن كل ما كان يتم فى معظم أماكن
العبادة .

وانه ليتضح لنا بعد ذلك أن العبادة المصرية لم تحل من
مظاهر العظمة ؛ وان كان كثير من مظاهر هذه العبادة يبدو بسيطا
وعاديا . كما أن مظاهر الصور الالهية المادية التي تتصل بالغسل
والكسوة والطعام لم تكن تمثل فكرة الروحية البحتة فى العبادة .
وأنه ليغم علينا - فضلا عما ذكرنا - بعض الرموز المتصلة بالتطهير ،
وقيمة حرق البخور ، وتقديم الإبتهالات . ولكى نجعل ذلك واضحا
ملموسا يجب علينا أن نسرده كثيرا من الايضاحات لا يتسع لها هذا
المجال . ولكننا لن نجانب العدالة اذا أخذنا عن العبادة المصرية
تلك الفكرة التي لا يحددها سوى هذين المؤثرين .

وقد سبق أن أشرنا فى المكان المناسب الى أن أنظمة الخدمات الدينية
كانت تجرى طبقا لما فى السماء من سيرة الشمس والنجوم . وينبغى
ألا يغيب عنا أن هموم الكهان فى معابدهم قد كانت قاصرة على السهر
على صيانة صنم مغمور بالاحتياجات والرغبات الانسانية ، بل كانوا
يدخرون لأنفسهم نصيبا من السلطان الالهى الذى يتجلى فى الحياة
نفسها وفى حركة العالم كله . فكل لحظة ذات بال فى سيرة الشمس
كانت تدعو الى مرسوم خاص من شأنه أن يهذى الى ما يمثل الاله
المشرق على الأرض . فتبدل الكلمات فى نظام المعبد . وتنسيق
الطقوس وتنظيم المراحل الهامة فى حركة الكون ، كل ذلك لم يكن
يخلو مطلقا من الشعاعية والعظمة .

ولا يمكن بعد كل ما ذكر اغفال أن العبادة - فى الصورة التي
كشفت لنا عنها النصوص - كانت من قبل ومن بعد أفعالا صريحة

يتلو أحدها الآخر ، ويحددها نظام معين ترتيب تمليه الطقوس وكانت تتم فى أوقات معينة . فكل شئ سبق التفكير فيه قبل بدء اجرائه وكل شئ محدد ؛ الزمان والمكان والملبس والحركة والصيغة . ومثل خدمة السيد العظيم التى سبق أن أشرنا إليها فى أول هذا الفصل ، تجرى أمور هذه الخدمة على سنين وأفعال يجب أن تؤدى ، وفى غير كثير من المراتن الذهنى الجوانى . فالعبادة شئ هام فى الحياة الدينية ، ولكنها تمثل عنصرا واحدا من عناصرها . ومما يلفت النظر أن الشعب لا يشارك فى شئ من أمور الخدمة الإلهية اليومية فهذه الخدمة من عمل المختصين ، ثم هى عمل جد خاص فى الحياة الدينية لا يعبر الا عن وجه من أوجه هذه الحياة وهو الوجه الذى يوصف بأنه أقل مظاهر العبادة فردية . فأما الروحانية الواسعة التى قد توجد أحيانا عند خدام المعبد فسوف تعبر عن نفسها فى ظروف أخرى . أما الحمية والحماسة الجماعية التى خبت نارها تماما فى القدس والتى لم نقدر اتساع مداها فلن تظهر الا أثناء الاحتفالات الدينية التى تجرى خارج المعبد .

ولم تكن عبادة الآلهة اليومية داخل المعبد لتمثل وحدها نشاط الكهان الدينى ؛ فغالبا ما كان يحل طقس من طقوس أحد الأعياد محل الطقس المعتاد . وكان اجراء هذا الطقس يقتضى من مظاهر الآلهة ما يفوق ما يقتضيه اجراء الطقس المعتاد . فغالبا ما كان يتجلى فيه خروج موكب « الآله » فتجرى الاحتفالات خارج المعبد ويحمل فيها تمثال الآله داخل مقصورة من خشب موضوعة على أكتاف الكهنة ويطوفون به فى أنحاء القرى .

وكان الزورق نموذجا مصغرا من زورق أكبر كثيرا كان يستخدم لنقلات الآله على النيل كما يستخدم لأسفاره الطويلة . وفى الأيام العادية كان الزورق بما يحمل من مقصورة الآله وتمثاله يحفظ فوق قاعدة صغيرة من الحجر داخل القدس أما فى بعض المعابد

الفيحة فقد كان للزورق قاعة مفتوحة من طرفيها كما كانت الحال في معبد الكرنك حيث جعل له مستودع خاص .

وكان مقدم الزورق ومؤخره كلاهما يزدان برأس معبود أو معبودة مثل « حتحور » ذات المحيا الباسم أو « حورس الصقر » ، أو « خسو » يعلو رأسه بدر التمام ، وذلك حسب الأحوال . وفي الوسط تقوم المظلة الخشبية بمصراعيها ثابتة وقد حفظ بداخلها التمثال . ومن فوق هذه المقصورة عريش من خشب رقيق أو من التيل متدد على عمد صغيرة . وكما هي الحال في سائر الزوارق العادية نجد من يقف على أحد جانبي الزورق ممسكا بمجداف طويل ليقوم مقام الدفة ، وكان في بعض الأحيان على هيئة معبود . ومن أمام النافوس يجئ من يقدم الخضوع والتجلة الى سدة الاله المسنور . وأخيرا وعلى الجزء الأمامي تنتشر على الستائر المنسدلة على النافوس صور لبعض الشارات المقدسة التي تختلف من معبد الى آخر . فمن صورة تمثل « أبو الهول » واقفا الى أخرى تمثل الصفر وغيره . . .

ويختلف هذا الزورق في حجمه عن الزوارق النيلية العادية . وليس يفوتنا أنه كان يحمل على ظهور الرجال فيمضون به غالبا مسافات طويلة . كما كان يحفظ داخل قاعات في المعابد ذات أبعاد متوسطة . ولكن رسوما في بعض المعابد الكبيرة تصور لنا زورقا ضخما يقتضي حمله من الرجال عددا لا يقل عن ثلاثين . وإذا كان لقب « حامل الزورق » يبدو ضمن الوظائف الدينية الدنيا فمن المرجح أن الرجال كانوا يتتبعون ليحل بعضهم مكان بعض في حمل هذه الزوارق الضخمة أثناء مواكب الاحتفالات يرون في ذلك ما يرفع من أقدارهم ويذيع من شهرتهم بين أهل بلدتهم ويهيئ لهم في قلب المعبود مكانا للرضا . وهذا أحد المصريين من عصر الرعامسة يقول : « لقد حملت « بتاح » على ذراعى ، فليمنحنى هذا الاله من فضله تورا » .

وإذا لم ينحقق لمن يشارك فى ذلك شىء من المنافع الروحية فقد كان ذلك يهيبه لهم الانتفاع بعقد بعض الصلات مع الآخرين، وبذلك يحددنا من يدعى « موسى » فى النصوص التى نركها على لوح له فى متحف تولوز فيقول : انه تعرف على أحد أقربائه حينما حمل معه زورق الاله ٠٠٠ فكان يتقدم الموكب من أمام الزورق كاهن يحرك بيده مبخرة لينشر منها دخان حبات الترابنتين لطرد الأرواح الشريرة التى قد تحوم حول الزورق ، ومن خلف الزورق نجد الكهنة من ذوى الوقار ، يتهادون فى ثياب من الكتان الناصع البياض وهم يرددون مقطوعة غنائية يوقعونها توقيعا وحولهم جماهير الأتقياء والعمال يسوج بعضهم فى بعض ، وتنطلق من حناجرهم صيحات البهجة والسرور ، أو مشاركة المغنيين والعازفين . وقد احتفظت مدينة الأقصر بصور من تراث هذه الطقوس القديمة اذ أنهم ما زالوا يسحبون خلال احتفالهم المحلى فى عيد ولى الله «أبى الحجاج» - حامى المدينة - زورقا يطوفون به الشوارع موضوعا على مركبة ذات عجلات يسهل دفعها .

الوقفات :

لم يكن موكب الاله أثناء خروجه فى الاحتفالات يقطع المسيرة كلها ثم يعود بعدها الى قدسه دون توقف ، بل كانت تتخلل سبيلها وقفات يريح فيها الموكب فى مقاصير صغيرة خصصت لذلك . وعندها يستريح الحاملون بعض الوقت ، على حين يؤدى الكهنة فى ظلها طقوسا معينة (تتمثل غالبا فى احراق البخور وتقديم مختلف القرابين ، وقراءة الكتب المقدسة) . وكانت تقع فى هذه المناسبة أيضا بعض التنبؤات عن طريق الاستشارات المكتوبة . فإذا ما كان المساء يعود الموكب بالاله الى معبده أو ينزل ضيفا فى أحد المعابد الأخرى ثم يتابع فى اليوم التالى رحلته خارج معبده .

ولم يكن ذلك الأمر بالشئ النادر وقوعه ، فهذه « التقاويم الدينية » التى ما زالت ماثلة فى مختلف المعابد تحدثنا أنه كان يفع فى كل شهر - تبعا للفصول - من خمس الى عشر مرات ؛ فيخرج على هذا النحو موكب اله أو أكثر من آلهة المنطقة ، غير أن طريق المسيرة كان يختلف باختلاف الهدف الذى أقيم من أجله الاحتفال طبقا لظروف المعبد الذى وقع عليه الاختيار لقضاء الليل .

على أن الاله كان يخرج فى مناسبات أخرى ، فى غير زورق ، ففى مدينة « بوتو » مثلا كان الاله « مين » يبدو فى لباس أحمر اللون يزدان عنقه بقلادة تتدلى على صدره فيتجه به الموكب محمولا على عجلة تجرها الخيل الى حيث يريح وكانت الجماهير وهى تشعر حينئذ بأنها تشهد عرضا هاما لماثر الاله تهزها الرهبة من أثر ما يأخذها من قدسية وجلال .

ويوضع الاله آخر الأمر على عجلة يجرها المخلصون من أتباعه فكانوا يهيئون بذلك جوا خالصا من تاريخ الأساطير . ولقد كان ذلك هو نفس ما يحدث فى أعياد « پاپريمس » التى يحدثنا عنها هيرودوت فيقول : « ان الكهنة كانوا حين احتفالهم بها يتبادلون أقوى الضربات وأعنفها اكراما لالههم حتى كان ذلك ينتهى الى وقوع بعضهم صرعى متأثرين بجراحهم » .

فالحياة الدينية كما نرى كانت تعرض أصحابها لبعض المخاطر . هذا علما بأن أعمالهم خلال الاحتفالات الشعبية كانت تتسم بكثير من الهدوء . ولقد كان دورهم يختلف باختلاف طبيعة الاحتفالات ، فهم فى حرس الاله عند اشراق موكبه ، وعليهم أن يقوموا بتأدية بعض الطقوس حين تتوقف المراكب . كما كان عليهم القيام ببعض الفرائض الدينية المتصلة بجوهر الاحتفال . وكانت هذه الأعياد انما تقام بمناسبة أحداث معينة . فعيد للفيض (عيد النيل) وعيد للحصاد - وكلاهما يتصل بالسنة الزراعية - ثم عيد الشراب وأعياد

لأوزيريس وأعياد لآمون بالاقصر ؛ تقام لذكرى مراحل حياة الآلهة .
ثم عيد الوادى فى طيبة وكان مخصصا لآلهة الموتى وذكرى الموى
أنفسهم من النواوين فى الجبانة . وأخيرا أعياد خاصة بكل معبد احياء
لذكرى انتصار الاله على أعدائه ، أو تمجيدها سنويا لذكرى تقديس
حيوان من تلك التى يرمز بها الى لون من قدرات الاله ، أو احياء
لذكرى حلول الاله بتمثاله على الأرض . وكانت بعض هذه الأعياد
شعبية تقام فى المعبد منتقلة من مصلى الى أخرى وسط مظاهر
البشرى والبهجة والخبور . كما كانت هناك أعياد أخرى سرية تختفى
مراحل الاحتفال بها خلف الأسوار . ومع ذلك فقد ظل الكهنة - فى
كل الحالات - أولا وقبل كل شيء « خداما » للاله الذى يقومون على
خدمته داخل المعبد وخارجه . وفى أثناء اشراق الاله كان اشتراك
الجماهير واضحا وصريحا ، فهم قد كانوا يهللون ويهتفون باسم الاله
ويستمتعون بمشهد موكبه وان كانوا لا يشاركون فى طقوس هذه
الاحتفالات بالمعنى المفهوم . وسوف نرى أن الكهنة - فى بعض
ظروف معينة وحسب، مثل استنشاء الوحى - كانوا يقومون بالوساطة
بين الاله وبين البشر من العابدين .

وقد كان تدين الشعب من غير رجال الدين وتقواه يقتضيان
اقامة طقوس يؤديها رجال الاكليروس . حينئذ تتخذ عبادة الآلهة
مجالا تشارك فيه الجماهير ؛ وذلك عندما يرغب أحدهم فى الالتجاء الى
الاله يسأله الهداية . وتبدو قيمة الالتجاء الى بصيرة الاله واستخارته
حين يتصل الأمر بالحصام بين طرفين أو بتعيين أقوم السبل للسير
والسلوك فى مستقبل الأيام . فالاله هو صاحب المعرفة الذى يسع
علمه كل شيء ، كما أنه قادر بالطبع على أن يفرق دون البشر بين الحق
والباطل ، وأن ينبىء بالغيب من أمور المستقبل ، ذلك فضلا عن أنه
- نظرا لكماله - لا يتأثر بالظروف الاجتماعية للشاكين ولا يفرق
فى حكمه بين غنى وفقير . فقد جاء فى نشيد من أيام الدولة الحديثة .

« أيها الاله آمون رع ، انت قاضى البائسين لانك فى غنى عن مال الغاصبين » .

ومن ذلك كان التطور الكبير فى عادة اللجوء الى الاستنباء فى الدولة الحديثة . فأصبح للكهنة منذ ذلك الوقت دور اجتماعى خطير بوصفهم حاملين لكلمة الاله ومفسرين لارادته .

والواقع أن أمر استنباء الاله لم يكن دائما يسيرا ، وانما تعددت الوسائل فى سبيل ذلك .

استنباء الزورق :

وكان من أكثر ألوان الاستنباء ذيوغا ما كان يقتضى التوجه بطائفة من الأسئلة الى الاله خلال تجليه فى مركبه وقد سبق أن أشرنا الى الأعياد التى كان الاله يترك فيها معبده ليزور أصحابه من الأرباب الأخرى . فينتقل المركب بتمثاله على أكتاف حامله وسط تهليل جموع الجماهير من أتباعه . وتلك كانت الفرصة المواتية لسؤال الاله ، فكان الشاكون يشقون الزحام محاولين الوصول الى الزورق ؛ وهناك يعم الهدوء وتسعى الرهبة الى نفوس الجماهير . وكانوا يتوجهون مباشرة الى الاله سائلين : « يا سيدى الطيب ، هل صحيح أننى سرت هذا الشئ أو ذاك من هذا الشخص ؟ » ويكون الانتظار ويسود القلق ، ويطول الوقت أو يقصر حسبما تقتضى ارادة الاله من وقت يردد فيه سؤال السائل بينه وبين نفسه . وعلى حين فجأة يشعر من يحملون الزورق أن الارادة الالهية قد أخذت تسعى اليهم . ويبدأ صدر الزورق يتأقل على حامله ، ويشعر من تحته بذلك حتى اذا ما استحال عليهم النهوض ، ناعوا وكأنهم تحت أثقال من رصاص . وفى ميلة الاله على هذا النحو ما يشير الى الجواب بالايجاب . وفى أحوال أخرى يشعر حملة الزورق أنهم مندفعون بسدة الى أمام ، أو مضطرون الى التقهقر فى عنف ، وكان ذلك يقع

بالطبع بارادة من الاله متجليا في تمثاله حالا في زورقه • فاذا أراد الاله التقدم كان معنى ذلك الرد بالإيجاب أما اذا حدث العكس فمعنى ذلك أن الاله قد رفض • فاذا ما أرضت التبوءة أحد الشاكين ؛ كان من حق خصمه أن يستأنف محاولا تعويض نفسه مما لقيت من هزيمة ، ولم تكن هزيمته اذا ما تكررت بمانعة اياه من الاستئناف لدى اله آخر في مناسبة أخرى ومكان آخر • ولما كان رجال الاكليروس يختلفون في أسلوبيهم وفيما يرون في هذا الشأن ، لم يعدم الشاكى أمله في الانصاف بين يدي اله آخر أكثر تسامحا وأقرب رحمة وغفرانا •

ويبدو أن هذا التقليد الغريب له أصوله العميقة الثابتة في حياة المجتمع المصرى • فلم تكن دهشتنا في الواقع قليلة عندما قرأنا منذ عدة سنوات في احدى صحف القاهرة صدى حادث اهتزت له مشاعر أهل قرية من قرى الصعيد • وليس من شك في أن هذا الحادث قد استمد صورته من نفس المصدر الاجتماعى الذى انبعث من الطقوس القديمة التى مر بنا ذكرها • فتحت عنوان جذاب « نعش يرقص فى الهواء » روى كاتب المقال الأحداث التالية : « كانت احدى القرى فى حداد على شيخ من شيوخها المسنين ، وكان على درجة كبيرة من الحكمة فانتقل الى عالم أفضل من العالم الذى نعيش فيه • وحين انتهى الناس من اعلان نعيه بالصراخ والعويل المألوفين فى هذه الظروف ، لف الشيخ فى حصيرته ، ثم وضع فى نعش حمل به الى مثواه الأخير • وكان حملة النعش يتناوبون بين لحظة وأخرى ، اذ كان كل منهم يرى أن يشارك ما استطاع فى حمل هذا المولى الصالح الى مثواه • وبينما الأمور تجرى فى سبيلها الطبيعى بأسلوب رائع والموكب يتقدم يحدوه المشيعون بتلاوة الأوراد الجنائزية ، يقع الحادث الغريب ! فاذا النعش يتأرجح ويتهاوى حملته من تحته بعد أن ثقل عليهم فجأة وكأنه صخر • وأصبح أمر ذلك يقتضى التفكير ، واشتد

حوله الجدل فى صخب وعنف كما يحدث دائما فى صعيد مصر ، ثم انتهى جدلهم بالاتفاق على أن المتوفى المبجل يفضل قطعاً أن يسلك الى مثواه الأخير طريقاً آخر . واستدار الموكب فعلاً متخذاً طريقاً آخر موازياً للطريق الأصلى ، وهنا أخذ وزن المتوفى يخف على حمائل نعشه عن ذى قبل ؛ كل ذلك بمعجزة طبعاً . الا أن الأمر لم يلبث غير قليل حتى تبدل الحال غير الحال ، فقد تهاوى النعش مرة أخرى بالقرب من المكان الذى سبق أن تهاوى فيه من قبل . وعاد القلق فساد نفوس الجماهير وباتوا يشعرون بوجود قوة تفوق قوة البشر وداخلهم احساس رهيب مشوب بالرعب والخشوع . ولم يكن بد من التوقف والتأمل فى هذا الحادث فالشيخ المسن قد رفض مرتين أن يمر موكبهُ بدار واحد من أهله لا من أمامها ولا من ورائها ، فأخذت الاستفسارات اللازمة تتوالى ، وبات الناس يتساءلون ، وينعمقون البحث، وعنفت وسائله، حتى أفضت الى الاشتباك والتضارب فأتضح أن موت الرجل المسن لم يكن طبيعياً كما بدا للوهلة الأولى . بل كان نتيجة لحادث وأن قريبه هذا قد تسبب فى وقوعه ، ووضعت الموازين ، وأقيم العدل بالقسط فى سرعة سريعة ، ودون انتظار البيان من أحد ، وعلى النحو الذى يلجأ اليه الفلاحون من صعيد مصر لتسوية مشاكلهم العائلية - وهكذا استطاع المتوفى من عالمه الآخر بفعلته حين أوقف حملة نعشه على نحو ما قدمنا ، أن يفضح قاتله من أهل بلده .

وتلك تقاليد قديمة كما نرى ، تجرى متصلة فى حياة المجتمع ، فمنذ ثلاثة آلاف سنة كان الإله يحدد وهو فى موكبهِ مشيئته فى الكائنات ويمليها على من يحملونه بما يشاء من حركات .

أصوات النبؤات :

لم يكن الخروج بموكب الزورق يقع فى كل يوم . وكان هناك

من الأسئلة المعقدة ما لا يقتضى الرد عليها أو الفصل فيها بمجرد الإيجاب أو النفي . فكان الناس فى هذه الحالة يقصدون رأسا الى الاله الذى يرد بصوته الواضح . ولم يكن وصول المصريين فى ذلك العهد الى رحاب الآلهة مستحيلا كما يظن . الا أن لقاءها لم يكن ميسورا كما كانت الحال عند اليونان . ولكن كان يقع فى بعض الأحيان أن يلقي امرؤ على شاطئ أحد المستنقعات ما يربعه فيصاب بمس من جنون . أو لم نقرأ فى الأساطير أن راعيا قد أصيب بالذهول حين رأى آلهة فى أبسط صورها تخرج تحت بصره من وسط الغابة ؟ على أن الآلهة كانت تقيم فى معابدها حيث يذهب اليها الناس لاستشارتها .

وقد كانت الدار الصغيرة التى أقيمت فى العصور المتأخرة على الشرفة العليا من معبد الدير البحرى تجاه مدينة الأقصر مثلا مخصصة لمثل هذه الاستشارات وهى عبارة عن قاعتين تتلو احدهما الأخرى يفصل بينهما باب . وكان الزائرون - وفى بعض الأحوال المرضى الذى جاءوا يلتمسون الشفاء لدى الاله ايمحتب - يقيمون فى القاعة الخارجية ذلك لأن مقر الاله كان فى الداخل . وبينما كانت تلك الطوائف الصغيرة من المعتلين تنتظره صابرة أن يرضى الاله فيرزقهم الشفاء ، كان ينبعث من الهيكل صوت رزين ورهيب فى أن معا حاملا الى كل مريض دواء لآلامه . وفى القبو الذى يعلو الباب كانت هناك كوة فكان فى استطاعة الكاهن المختبئ داخل الهيكل أن يعبر عن ارادة الآلهة . (ولم يكن أحد من المرضى يشك فى تدخل أى قوة فوق العادية) . ومع ذلك فقد كان هناك من ذوى العقول السليمة من لا يعتقد الا فيما يستطيع التحقق منه . وبين أيدينا من المخربشات الصخرية نص يونانى غاية فى الجمال والروعة يحدثنا أنه بينما كان أحد الزائرين واسمه « أثينودور » يقيم الصلاة فى القاعة العامة من المصلى ، سمع صوتا ينبعث من هذا الهيكل وكان

هذا الرجل المستقيم جنديا اكتسب من حياته العسكرية بعض المبادئ العظيمة التي اشتهرت بها تلك المعاهد العسكرية . فكان لديه من الجرأة ما جعله يندفع الى الباب ويفتحه ليعرف بنفسه من المتكلم ليطمئن قلبه - وكان الكهنة يومئذ قد توقعوا حدوث مثل هذه الأمور فأعدوا بطريقة محكمة مكانا يلوذون به - فلم ير بطلنا هذا أى شيء شاذ فتأثر تأثرا شديدا . ومما زاد فى التأثير عليه شفاؤه بالفعل فاعتبر هذا الحادث جديرا بالتسجيل .

والواقع أن الغرباء لم يكونوا - فى الأغلب الأعم - يعتقدون فى النبؤات التى تصدر عن الرؤى ، بل كانوا يشكون فى ذلك . وقد مال بعض الاغريق مطمئنين الى مبادئ الديانة المصرية الى حد جعلهم يشركون المصريين فى عقائدهم . وان كان فريق كبير منهم لم يكن يؤمن الا بما يستطيع التحقق منه فعلا . ونحن نجد فى بعض ما لدينا من القراطيس ما يعبر عن خيبة أملهم ، ثم ما يتبع ذلك بالطبع من أثر الشكوك والريب « أقسم بسرابيس أنه اذا لم يثبت ما ادخر لك من تقدير فانك لن ترانى بعد ذلك على الاطلاق اذ أن كل ما تقوله آلهتكم ليس على الاطلاق لأنهم وضعونا فى موقف لا نحسد عليه . وفى كل مرة تعلن لنا رؤياك أننا سننجو نجد أنفسنا نفوس أكثر وأكثر » (قرطاس السيرايوم رقم ٧٠) . وتجاه مثل هذه العقيدة الشاذة لا نشك فى أنها كانت منتشرة ، ونستطيع أن نفهم كيف دفع كهنة الدير البحرى « اتينودور » الساذج الى أن ينقش على الجدران قصة الحادث المزعج الذى وقع له .

وكانت فى بعض المعابد الأخرى مثل معبد «كارانيس» بالفيوم ما يشبه ما كان فى الدير البحرى . كما كانت بعض التماثيل الالهية جوفاء يتصل بها بوق يستطيع من يختفى وراء التمثال أن يتكلم فيه باسم الاله .

كانت هذه الطريقة فيما يظهر منتشرة بصفة عامة • ولدينا العديد من النصوص التى تحدثنا كيف كان رجال يذهبون الى الأماكن المقدسة يقضون الليل ابتغاء أن يأذن الاله فيريهم - فيما يرى النائم - من الرؤى ما يهديهم الى ما ينبغى لهم • وهكذا كان يفعل المرضى ، وكذلك كان يفعل اللائى يرغبن فى الانجاب من النساء • وفى قصة « ساتنى » الديه وطيقيه ان السيدة « محيتوسخه » كانت تعاني أشد التعاسة لأنها لم تنجب • ولما أدركها اليأس مضت لتقضى ليلة فى معبد « ايمتجب » اله النساء وهناك رأت فى المنام : « من يقول لها : ألسنت أنت « محيتوسخه » زوجة « ساتنى » التى تنام فى المعبد نلتمس البرء من عقمها لدى الاله ؟ اذا ما غدوت فاذهبى الى ينبوع ساتنى زوجك وسنجدين هناك أصل شجرة تنمو • فاذا لقيت الشجرة فاقتلعيها بأوراقها لتصنعى منها دواء تعطيه لزوجك ، ثم تنامين بجواره وسوف تحملين منه فى ذات الليلة » ولما أفاقت السيدة ذهبت لتنفيذ نصيحة الاله بحذافيرها وسرعان ما تحققت أمنيتها •

• وهكذا نرى كيف كان واجب الكهنة يقتضيهم القيام ببعض العمل حتى أثناء الليل • ولم تختف آثار تلك العقائد التى كانت تقتضى النساء الذهاب الى المعبد والاقامة فيه التماسا للحمل سواء تجلى عليهم الاله أم لم يتجل • وفى خلال المرات الست التى قضينا فيها الشتاء للعمل فى صعيد مصر للقيام بنقل نقوش معبد اسنا، كان يحدث كثيرا أن نرى سيدات من أهل القرى يدخلن قاعة الأعمدة الكبرى ويدرن - مؤمنات - حول الأعمدة سبعا وفى غفلة من عين الحارس - مؤمنات بانهن يضمن بذلك انجابا عاجلا • ولم لا ألا تؤكد لنا نصوص المعبد الهيروغليفية ان الاله « يهب أولادا لمن يدعوه وبنات لمن يتوسل اليه ؟ » ولكن كان على الكهنة بوصفهم حاملى كلمة الاله أن يقوموا أحيانا بمعالجة بعض المسائل الأشد تعقيدا من ذلك

بكثير . فقصه « سائنى » نفسها تصور لنا ساحرا أوشكت أن تنتهى
حيله أمام زميل له أكثر منه براعة ؛ تصوره يركب سفينة إلى
الأشمونين - مدينة الاله تحوت - ثم يذهب ليقوم الصلاة لهذا الاله
فى معبده ، ضارعا اليه أن يعينه ، فيريه الاله فى منامه المكان الذى
يستطيع أن يجد فيه الصيغ ذات الأثر القوى الفعال والتى
يستعملها هو (الاله) بنفسه لينسخها . وينفذ الساحر عند
استيقاظه تعليمات الاله فيتم كل شئ كما ظهر له فى الحلم .

وعلىنا أن نذكر أخيرا أن الاله لم يعدم بعض الوسائل الأخرى
المباشرة للتعبير عن ارادته . كأن يحل مثلا فى جسد رجل أو طفل
فيملؤه رعدة ورهبة ، ثم يمل ارادته عن طريقه . وتروى لنا قصة
« ون آمون » حالة مشابهة من حالات الجذب الالهى . وسنعرف
فيما بعد أن الأطفال « الفقراء » اللاجئين إلى المعابد قد كانوا وسطاء
ينقلون كلمة الاله .

وسائل أخرى للاستنباء :

لم يتوقف الكهنوت عند هذا الحد لينقل الارادة الالهية الى
الشعب . فقد استخدمت وسائل فنية أخرى عديدة كانت تقتضى
تقديم توسلات مكتوبة الى الاله . وهذا نص من عصر الكاهن الأكبر
« باى نجم » يعرض لنا الاستنباء كما يلى :

اتهم أحد كهنة آمون بأنه كان يأخذ لحاجته من خزائن علال
الاله فكتب كتابان فى حضرة آمون أثناء خروج الموكب بزورقه جاء
فى أحدهما : « آمون رع يا ملك الآلهة وياسيدى العظيم ! يقال ان
« تحوتمس » الوكيل الذى يدير الأراضى قد أدخل فى حوزته شيئا
لم يمكن العثور عليه » وكتب فى الثانى « آمون رع يا ملك الآلهة
ويا سيدى العظيم ! يقال ان تحوتمس الوكيل الذى يدير الأراضى

لم يدخل فى حوزته شيء مما لا يعثر عليه • وهنا يتوسل كبير الكهنة الى الاله أن يصدر حكمه • فإذا ما استجاب الاله العظيم ووضع الكتابان بين يديه اختار ثانيهما • ثم تعاد الكرة فيعيد الاله اختياره وبهذا يخرج المتهم بريثا معافى من هذه المحنة ويحظى على أثر ذلك بترقية ذات أهمية بعد وقت قصير •

وقد كشفت أعمال التنقيب التى أجراها الفرنسيون فى منطقة دير المدينة عن كثير من اللخاف عليها نقوش يتصل موضوعها بالاستنباء اذ كان الملتمس بنقش سؤاله على بعض قطع من الفخار أو على اللخاف • وكانت الأسئلة تدور حول موضوعات شتى نورد بعضها منها :

- « هل هذا العجل سليم فأقبله ؟
- هل يعطى لنا الوزير رئيسا الآن ؟
- هل يرتضونى رئيسا ؟
- هل افتريت ؟
- هل سآلام ؟
- هل نهبه الجند ؟
- يا الهى الطيب هل احدى معزتاى عند « بتاح موسى » ؟

فأمور الترقى والتجارة وحوادث السرقة فى القرى قد كانت ضمن الموضوعات الكثيرة التى تطرح أمورها بين يدي الاله وكان الاله يرد عليها كلها • فكيف كان اذن يقوم بذلك ؟ قد يتضح لنا الجواب من احدى قطع الشنقف التى عثر عليها الفرنسيون عام ١٩٥١ ولم يكن عليها من النقوش سوى لفظ « كلا » • ومن ذلك يبدو أن الاله كان يختار أحد ردين - نعم أو كلا - ويقوم كاهنه بنقل جوابه الالهى الى السائل •

وكانت العادة التى انتشرت فى الدولة الحديثة لها شأنها الهام بعد ألف عام أيضا • فقد عثر فى المعبد الصغير الذى أقيم للإله « سوكنوبايوس » (Soknopaios) بالفيوم على بعض أسئلة موجهة الى الإله من سكان المنطقة • ومنها نرى كيف ظلت المشاكل تشابه الى حد ما مشاكل أسلافهم البعيدين : شراء وبيع ، ومسائل تختص بالضرائب ، ونصائح خاصة بالزواج أيضا • « هل سيكتب لى أن أنزوج السيدة فلانة • وهل لن تصبح هى زوجة لرجل آخر ؟ اكشف لى عن ذلك واستجب لهذه الضراعة المكتوبة » •

الاستنباء بوساطة الحيوانات المقدسة :

اختلفت الوسائل التى استخدمت لسؤال الإله اختلافا كبيرا فمنها ما كان يتم بطريق استنبائه بوساطة التمثال ، ومنها ما كان يتم باستخدام الزورق المقدس أو أصوات المتنبئين تعبر عن إرادة الإله أو الرؤى وكذلك كان الحيوان من مقدسات الإله من الممكن استخدامه فى نقل رده والتعبير عن إرادته ومن ذلك استخدام العجل أپيس • وقد كان يسمح بإخراجه عادة من مربطه مرة فى كل يوم لقضاء ما تقتضيه حياته ، ومن ذلك مشاهد يستعرضها السائحون لقاء عطاء مشروع •

ويحدثنا سترابو فيقول : « وفى ساعة معينة من ساعات النهار كان يطلق أپيس حرا فى ذلك الفناء خاصة لعرضه أمام الغرباء • وعلى الرغم من أنه كان بإمكانهم أن يروه من نافذة تطل على حظيرته ، فانهم كانوا يصرون على رؤيته حرا طليقا خارج هذا المكان ؛ يرتع فيه ويلعب ، دائرا وقافزا بعض الوقت ثم يـرد الى داره » •

ومما لا شك فيه أن حركات العجل قد كانت تؤول الى نبوءات • ولدينا من النصوص العديدة ما يشير الى أن أپيس كان

يكشف عن المستقبل لمن يستشيرهُ • وفى معبد من معابد العصر اليونانى الرومانى عثرت البعثة الفرنسية للتنقيب على منصة صغيرة كان العجل يرد من فوقها على الأسئلة التى كانت تطرح عليه •

ممارسة القضاء عند أبواب المعابد :

رأينا كيف كان الكهان يردون باسم الهم على ما يطرح فى ساحته من أسئلة أو يرفع الى حضرته من شكايات ، وكيف كانت تلك الردود تقوم مقام القانون • فكتيرا ما كان يحدث فى الدولة الحديثة أن تقام المحاكم فى المعابد أو بالقرب منها • ذلك فضلا عن أن الكهنة كانوا يقيمون بالقرب من الموظفين المحليين فى محاكم كل مدينة (انظر مرسوم حور محب) • ويبدو أن عادة الالتجاء الى العدالة الالهية أيام الدولة الحديثة قد انتشرت بالنسبة للمسائل الدينية أكثر من المسائل المدنية ، وحسبنا دليلا على ذلك أن يصف القوم يومئذ المدخل الى المعبد بأنه « باب السبيل الى ساحة العدل » • كما أكدت الوثائق « هذا هو المكان الذى يستمع فيه شكايات الشاكين جميعا ويحكم فيه الضعفاء والأفوياء التماسا للفصل بين الحق والباطل » • ويبدو أن جوسقا من تلك التى كانت تلاحق المدخل الى معبد الميدامود الكبير كان مكانا لحدى هذه المحاكم المالية • ولكن ترى أى الدعاوى تلك التى كان يترك الفصل فيها لتقدير الاله ؟ وإى الكهان كان أهلا للنطق بالأحكام ؟ وبأى عين كانت تنظر الادارة الى هذه المحاكم غير الرسمية ؟ • ذلك ما لا نستطيع الرد عليه نظرا لعدم توافر الوثائق الهادية فى هذا الرأى • وكل ما قد يمكن ادراكه هو فكرة بقاء هاتين السلطتين القضائيتين جنبا الى جنب - كل فى حدود اختصاصه - ذلك اذا ما ذكرنا أن المحاكم الشرعية ظلت حتى السنين الأخيرة فى مصر الاسلامية الى جانب المحاكم الأهلية •

وقد أخذ الكهنة فى القرون الوثنية الأخيرة مأخذ الجد الدور الذى مارسوه كمفسرين لارادة الاله تماما كأسلافهم حملة الزوارق ومن كانت كواهلهم تحس بأقل دفعة أو حركة يقوم بها الاله .

وهناك وجه آخر من أوجه النشاط الذى كان يجبر الكهنة على ترك معابدهم والقيام برحلات عبر البلاد تبعا لما تقتضيه واجبات الكهنوت ؛ ونعنى البعثات الرسمية دينية كانت أو سياسية . فكانت الأولى تقع أثناء الأعياد الكبرى الى المعابد المجاورة . فبرغم ما يبدو من استقلال هذه المعابد بعضها عن بعض - لأن كلا منها انما خصص لمجموعة معينة من الآلهة - فإن الجوار كان يخلق بينها من الصلات ما ييسر أمر ادارة الممتلكات أو الجمع بين اقامة الشعائر والعبادات تحت قيادة مشتركة . وقد ينتهى الأمر الى اندماج أصوله من معين قديم تفجر عن بعض العبادات . فمعبدا مدينتى أخميم وأبيدوس مثلا كان يستطيع أن يديرهما - فى بعض المناسبات - كاهن واحد . وقد كان قرب احدى المدن من غيرها من العوامل التى تقتضى ذلك وتعين على قيامه .

وكانت هذه الحالة أكثر حدوتا بالنسبة لمدينتى منف وتل المقدام المتجاورتين واللتين كان لهما فى الأغلب الأعم أيام العصور المتأخرة - كهنوت مشترك من الطبقة العليا . وكانت لمعبد «فيلة» و «أباتون الفنتين» أيضا ادارة مشتركة . وكان على الكهنة المنوط بهم مثل هذا العمل أن يقضوا أوقاتا معينة من حياتهم فى سفر .

ولقد كانت القرابة بين عبادتين - على بعد الدارين - تؤدى الى اتصالات كثيرة الوقوع بين رجال الكهنوت فى كليهما . فكذا كانت الحال مثلا بين ادفو ودندرة؛ حيث كان يعبد الاله الصقر حورس وصاحبته الرقيقة الآلهة حتحور . وفى « عيد اللقاء الجميل » من كل عام ، تغادر الالهة معبدها فى دندرة ، وتبدأ رحلة على النيل مداها خمسون ومائة كيلو متر لتلقى صاحبها الاله فى معبده بمدينة ادفو

ولتقيم عنده أسبوعين • وعلى طول الرحلة من مدينة الى أخرى يزداد حجم الأسطول الصغير بما ينضم اليه من زوارق جديدة ، فقد كان كل معبد هام يرى من المناسب أن يوفد أحد ممثليه ليشارك في حضور الزواج المقدس ، حتى اذا ما بلغ الأسطول من الرحلة المدى أصبحت المراكب القليلة التى غادرت دندرة محاطة ومتبوعة بعدد لا يحصى من السفن الرسمية التى تقل ممثلى الطوائف الكهنوتية الصديقة ومندوبيها فضلا عن تلك المجموعة الهائلة من الزوارق الصغيرة الخاصة التى استقلها أصحابها لمشاهدة هذا الطقس السنوى يشاركون المحتفلين فى أفراحهم وفى أعمال البدل والتجارة التى تجرى خلال ذلك .

ولقد كانت بين الكهان لقاءات ذات صبغة ادارية وسياسية بحثة • فبالرغم من تعدد طوائفهم المختلفة ، ومظاهر استقلال كل منها عن الأخرى ، كانت العبادات فى مصر كلها تنضم اداريا تحت رئاسة كهان المصريين • ومن هنا يستطيع المرء ان يتصور وجود « كهنوت مصرى واحد » تسمو فيه المصالح العليا على كل المشاكل الفردية البسيطة للمعابد الاقليمية الصغيرة • وكان الملك يحرص أشد الحرص على كسب ولاء هذا الكهنوت خالصا لنفسه ، فهو يصدر فى بعض الأحوال مرسوما يقضى باستدعاء كاهن من كل معبد ويجعل من هؤلاء ما يشبه مجعما مقدسا ؛ يشهد معه حفلاته ويرافقه فى رحلاته • ومن ذلك ما حدث فى العام الرابع من حكم « پسماتيك الثانى » حين أراد فى اليوم التالى لانتهاء حملته على بلاد النوبة أن يثبت قيام سلطانه فى أقاليم آسيا : « وأمضيت الرسائل بالمعابد الكبرى فى مصر العليا ومصر السفلى تقول : ان فرعون ماض الى بلاد خور بسوريا • وعلى الكهان أن يقبلوا باقات الزهر من لادن آلهة مصر ليحملها الى بلاد خور مع فرعون • وبناء على ذلك بعث برسالة الى مدينة الحبيبة جاء فيها : وعلى أحد الكهان ومعه باقة

زهر من لدن آمون ليذهب مع فرعون الى بلاد خور • فاجتمع الكهنة واتفقوا على أن يقولوا لبيتزيس : « أنت الذى وقع عليك الاختيار لتذهب مع فرعون اذ ليس فى المدينة أحد غيرك يستطيع أن يقوم بذلك • فأنت فى الواقع كانت بيت الحياة وليس هناك شئ تسأل عنه ولا تستطيع الاجابة عليه اجابة مناسبة • فضلا عن ذلك فأنت كاهن آمون » وليس خافيا أن كهنة كبار آلهة مصر هم الذين يصاحبون فرعون •

وكانت معابد مصر تبعث بممثلينها برفقة تمنال لالها للمشاركة فى الحفاوة ومظاهر البهجة والسرور فى مناسبة الاحتفال بعيد الذكرى الملكى • وتوضح لنا لوحة من الكاب (يرجع تاريخها الى نهاية الدولة الوسطى) ، وأنباء بعثة الوزير « تا » فى العام التاسع والعشرين من عهد رمسيس الثالث بعض الحديث عن هذه العادة • ذلك فضلا عما ادخره لنا معبد أعياد الذكرى فى « بوسطه » من صور تمثل وفود الكهان التى جاءت الى مدينة الدلتا الكبرى فى مناسبة عيد الملك « أوسركون » • وفى حديث هيرودوت « أنه كما كان الشعب الطيب يشرب من النبيذ فى هذه المناسبة أكثر مما كان يشرب فى بقية العام » فالشئ الذى لا شك فيه أن أعضاء الوفود الدينية لم يحرموا الاستمتاع ببعض أوقات يقضونها فى اللذات • وتحديثنا بعض النصوص فى دقة - أن الكاهن قد كان يلقي زميلا له من غير بلده فلا تترك فرصة اللقاء تمر دون أن يتساقيا كأسا صغيرة من النبيذ الصافى الذى يثير الضحك والغناء وذلك أمر يبدو منطقيا لا غرابة فيه • ولكن هذه اللقاءات بين الكهان قد كانت برغم ذلك تتيح لهم أن يشتركوا فى مناقشة المشاكل الخاصة بمختلف معابد القطر وبخاصة ما اتصل منها بالضرائب والايادات والاصلاحات التى يجب القيام بها والتوسعات المرغوب فيها • فيستطيعون بذلك أن يرفعوا ملتمساتهم الى الملك • وكانوا يتلقون

منه - لقاء الاستجابة لذلك - التعليمات المجمعّة الخاصة بإقامة عبادات جديدة كالعبادات الملكية مثلا أو بإنشاءات جديدة . ومن مثل هذه اللقاءات نشأت « المجمع » التي رأيناها تستكمل تكوينها ونموها أوائل عصر البطالمة . فكانت جماعة من الكهان تلتقى كل عام فى هيئة مؤتلفة ، وتنعقد اجتماعها فى العاصمة لتتلقى التعليمات الملكية ثم لتناقش مع كبار الشخصيات فى الدولة المشاكل التى تخص المعابد ورجال الدين . وكانت اجتماعاتهم تلك تتصل ويطول زمانها فيبذل فى بعض الأحيان أربعة أشهر . وبذلك أصبح الكهنوت دولة داخل الدولة، وصار فى مقدورها التعامل مع الملك، ولكن على أى نحو أو بأى طريق كان يجرى ذلك ؟ ليس من العسير أن نصور ذلك . فالبطالمة لم يكونوا ينظرون الى العبادات المصرية الا بعين الازدراء . وكانوا يرون الكهنة كالرعاة الحريصين على تربية الماشية واشباعها . أما الكهان فقد كانوا يطوون صدورهم على احتقار لأولئك النعساء الذين لا يحملون من الفرعونية غير الاسم ، ويصورون فى المعابد كبارا يديرون أمور العبادة ويشرفون عليها . ومع ذلك فقد كان البطالمة فى حاجة الى كهان يؤثرون تأثيرا فعلا على الجماهير الشعبية ويشاركون فى المحافظة على أسطورة المقدونى - الفرعون - وقد نال الكهنة فى مقابل ذلك بعض الامتيازات المالية من الخزانة وبعض الحقوق والاعفاءات وذلك عن طريق اظهار ولائهم لسادتهم الجدد . وفى جو من الاحتقار المتبادل رأى الاكليروس أن مصلحته تقتضى أن يسير فى سبيل الدولة ويبادلها العون .

ولكن المجمع الكهنوتية قد كان بقاؤها رهنا بأيام البطالمة الذين كانوا يرون ارضاء رجال الدين فى مصر عن طريق بعض المنح والهبات . فلما وصل الرومان تبدل الحال غير الحال ، ولم يصبح الكهنة سوى موظفين يقوم بالاشراف عليهم - فى دقة وصرامة - جهاز ادارى .

ولا ينبغي أن ننتهى من هذا الفصل الخاص بألوان نشاط الكهان خارج المعبد أن يفوتنا الحديث عن طائفة أخرى من الكهنة لم نشر إليهم بعد ، وأولئك هم الكهنة الذين كانوا يضطلعون بطقوس الجنازة . وسوف نضطر - نظرا لعدم وجود وصف فنى خاص بهم فى لغاتنا الحديثة - الى استخدام الوصف نفسه «خدام الاله» و « كهنة الجنازة » . والواقع أن هاتين الفئتين من الكهنة لم تشاركا الا فى طبيعة وظائفهما الدينية . فاذا ما حدث أن انتمى كهنة الموتى الى كهنوت خاص بآلهة العالم الآخر مثل : انوبيس وأوزيريس، فإنهم كانوا فى الأغلب الأعم يبقون منفصلين عن المعابد يشكلون ما يشبه النقابات المهنية ، ولا شأن لهم على الاطلاق بعبادة الآلهة ولا بأى نشاط خارجي مما اعتاد الكهان أن يقوموا به . أما الكهنة المنتسبون فكانوا يستطيعون وحدهم - بسبب معرفتهم بالمخطوطات المقدسة - أن ينضموا الى عداد العاملين فى المعابد والمشاركة فى الشعائر الخاصة بالموتى .

وكان على « كهان الجنازة » أن يقوموا بدور هام أثناء اجراء ذلك . فهم الذين يتلون فصول الطقوس الجنازية ويؤدون على مومياء المتوفى أو تمثاله كل الشعائر والأدعية الخاصة بالاستعطف والطقوس المحيية التى تجعل من الهيكل العظمى - الذى جف بالطبع وأصبح مملحا بعد التحنيط - جسدا غضا أعيد اليه الشباب ومنح كل حواسه الأرضية القديمة حتى يزین للظهور بمظهر يرضى فى جنات العالم الآخر .

وغالبا ما كان يتسمى الكهان الذين نرى صورهم فى موكب الجنازة بأسماء عتيقة قد تكون من أسماء أجدادهم الأولين الذين كانوا يشتركون فى الجنازات الملكية فى عصور فجر التاريخ مثل

« ايمى خنت » وحامل ختم الاله ، ومرافق ٠٠٠٠ » وتسود اليوم فكرة عامة مؤداها أن احتفالات الدفن المصورة على جدران مقابر من كانوا من سرة المجتمع المصرى انما تصور طقوساً مخصصة فى الماضى لجنازات صغار ملوك الدلتا . ولذلك يكون الكهان قد احتفظوا بالألقاب التى كان يحملها فى تلك المناسبات أسلافهم والمقربون ممن كانوا يشيعون الرئيس الراحل الى مقره الأخير . وقد تكون تفاصيل هذه الاحتفالات شديدة التعقيد ان نحن أوردناها هنا ، ويمكن أن نقول ببساطة : انها كانت تقتضى تلاوة ترانيم متعددة ورش المياه وحرق البخور . كما كان يؤدى على باب المقبرة أكثر الطقوس ضرورة وهو طقس « فتح القم » الذى يقوم أحد الكهنة أثناءه بفتح شفتى المتوفى ممثلاً فى تمثاله ليرد عليه قدرته على الكلام ومختلف قدراته الجسمانية .

وكان الحرص على التأكد من استئناف حياة من انتقلوا الى الآخرة بعد أن ردت اليهم شهوتهم الى الطعام ، يتردد فى تلك النقوش والرسوم الملونة التى تزين جدران المقابر ؛ فهى فى الواقع تبين لنا عقيدة القوم أن مجرد تصوير كل ما يمكن أن يحتاج اليه المتوفى فى عالمه الآخر يكفل تزويده به . على أن هذا التصوير لم يكن سوى اجراء أخير ؛ فقد كانت طقوس الجنازة كفيفة ، بتوفير حاجات المتوفى الجسمانية كافة .

وكانت هناك طائفة خاصة من الخدم هم « خدام الكا » كان عليها أن تمنون يومياً أو دورياً موائد الفرايين بالوان الطعام ، وتسكب على الطاهر حاجة الموتى من الماء . وكان الموتى يهبون من الأرض الزراعية ما يكفى نفقات من يخدمون قبورهم من كهان الجنازة ويقيمون فيها الطقوس . وقد كان المفروض أن تقدم هذه الأطعمة الى

الموتى بانتظام على نحو ما كان يجرى لهم وهم أحياء . ويتغير الحال
بمرور الزمن فيصبح رمزيا . فإذا ما كانت العصور المتأخرة تنحصر
أمر ذلك في سكب الماء ، تقوم به طائفة معينة من الكهنة يطلق
عليها اسم (coachytes) يفعلونه ذلك وهم يرددون أناشيد موروثة
يترنمون بها ، التماسا لما يعتقدون أنه ينفع الموتى ، ويهدى ظلالهم
الخفيفة وهي تهيم بين مسالك الآخرة .

الأيام
الخامس



العالم المقدس

لن يغفل المطلع على النصوص القديمة رأى الكتاب القدامى فى مصر ، فهى عندهم مهـ العلم والحكمة جميعا . فأكـر العلماء والفلاسفة الهيلينيون شهرة قد عبروا البحر يلتمسون الأصول والمبادئ فى كل جديد من العلوم فى رحاب الكهان . وكان الذين لم يتمكنوا من ذلك ، يضيفون الى ما يسطرون من سيرهم من الوقائع بعض ما يشير الى وقوع هذه الرحلة التى أصبحت تقليدية بقدر ما كانت ضرورية فى حياتهم .

ترى من هم أولئك المشاهير من الرحالة ؟ - كان أولهم كبار السلف مثل Orphée الذى سـارك فى الاحتفال بأعياد الأسرار الخفية الخاصة بإلاله ديونيس (ديودورس الجزء الأول صفحة ٢٣ ، ٢) وهوميروس نفسه الذى زار البلاد (ديودورس الجزء الأول صفحة ٦٩) . وفى العصور التى برئت أيامها من اللون الأسطورى الطاغى ، عبر « صولون » البحر بدوره الى مصر . أما « أفلاطون »

فقد روى عن رحلته ما يلى : « كان صولون يقول : ان أهل سايس قد أحسنوا استقباله ، وأنه عندما استفسر عن الآثار القديمة - وكان الكهان أعظم العلماء فى هذا المجال - وجد أن أحدا من الاغريق - وهو على رأسهم - لا يعرف كلمة واحدة عن هذه المسائل . وأراد ذات يوم أن يستوضح الكهنة المصريين ما يعرفون عن الآثار فأخذ يحكى لهم أقدم ما نعرفه : فوروينوس المسمى أول مخلوق ، ونيوبى طومان دو كاليون ، وبيرا بكل ما ينقل عنهم . ثم قام بوضع سلسلة لأنسابهم ذكر فيها كل أحفادهم ثم حاول بحساب السنين أن يحدد تاريخ هذه الأحداث . ولكن صاح فيه أحد الكهان من الطاعنين فى السن قائلا : صولون . صولون - انكم يا معشر الاغريق ما زلتهم أطفالا ؛ فليس فى اليونان شيوخ ! فسأله صولون : ماذا تقصد ؟ فرد عليه الكاهن المصرى : ان مداركم ما زالت شابة ، ذلك لأنهم لا تملكون قديما من التقاليد ولا من المعارف ما شئبها الزمن » . ثم يستطرد الكاهن الشيخ فى بيانه : ان هناك كوارث متصلة تخرب وجه الأرض ، وأنها لتحدث فى الأجناس خلطا وتغيرا وقد تهدم بذلك حضارة لتقيم مكانها أخرى . وقد تكون هذه الأخيرة بعيدة كل البعد عما للحضارة التى سبقتها من تراث عقلى وحضارى ينبغى أن تجنى ثماره ، ومن هنا تجد نفسها فى نقطة البداية ، وعليها أن تقطع الطريق المفقود مرة أخرى . ولكن مصر بخصائصها الجغرافية والمناخية لا تخضع لهذه القاعدة شبه العامة : « ففى مصر - وفى كل الأحوال - لا تتدفق المياه من المرتفعات الى المزارع بل قد يبدو على العكس ، وكأنها تخرج من بطن الأرض . وهذا هو السبب - فيما يقال - من أن التقاليد القديمة قد حفظت فى هذا المكان . وما من شئ جميل أو عظيم أو عجيب وقع فى أى مجال من المجالات سواء عندكم أو عندنا أو فى أى قطر معروف لدينا الا وذكر - منذ أمد طويل - مكتوبا أو محفوظا فى معابدنا ،

(Platon, Timée, 22-23)

ففى مصر اذن يستطيع المؤرخ الهيلينى أن يستقى أجود مصادر المعلومات . ولكن لم يكن هذا هو العلم الوحيد الذى استطاع الكهنة فى مصر أن يقدموه الى ضيوفهم الأجانب . وقام « طالس المايطى » من أجل ذلك برحلة « قصد فيها الى كهان مصر ومنجميها (رجال الفلك فيها) » . وظاهر مما جاء فى احدى نراجمه أنه أخذ الهندسة المساحية عن المصريين (Diogène Laerco) . فالهندسة والفلك كانتا مما يشير اليهما الكتاب الاغريق فى أغلب الأحوال عندما يذكرون كهان مصر ، وقد يضيفون اليهما أحيانا علم اللاهوت عندما يرضى الكهنة فيكشفون لضيوفهم عن أسرار هذا العلم . غير أن أمر ذلك لم يكن غالب الوقوع . ولم يكن الكهنة يتحمسون دائما لاستقبال هؤلاء السائحين المتسائلين . فما أكثر ما استقبلوهم ضائقين بهم ضنينين عليهم بكل سر وأظهروا لهم فى صراحة ما فى تفكيرهم من منطق ولو أنهم كانوا فى بعض الأحيان يفعلون هذا عن غير اقتناع ؛ فأظهروا أنفسهم بمظهر من يميلون الى الاعتقاد فى النتائج التى يملئها العقل بدلا مما ترويه القصص الخيالية عن تقاليد ضربت فى القدم . ولقد فطن الكهان من سابق تجاربهم الى مقدار ميل أولئك الهيلينيين وما فيهم من حب الاستطلاع ؛ فحاولوا لذلك التخلص من « فيثاغورث » الذى جاءهم بناء على نصيحة « طالس » يلتمس من لدنهم معرفة العلم والتقوى .

وقد تحدث برفيروس (٢٣٣ - ٣٤٠) عن رحلة فيثاغورث

بما يأتى :

« بعد أن استقبله الملك « أحمس » (ملك مصر ٥٦٨ - ٥٢٦ ق م) حصل منه على رسائل توصية لكهنة هيليوپوليس الذين أرسلوه بدورهم الى كهنة منف باعتبارهم أعرق منهم . والحقيقة أن هذا الاجراء لم يكن مقصودا به سوى ابعادهم عنهم . ولكن كهنة

منف - وللأسباب السابقة نفسها - أرسلوه الى كهنة «ديوسبوليس» (طيبة) . وهنا - خوفا من الملك ونظرا لعدم عثورهم على عذر لابعاد هذا الذى وفد حديثا على معبدهم - اعتقدوا أن فى استطاعتهم التخلص منه اذا ما أجبروه على الخضوع لنظام فيه قسوة شديدة ، وأن ينفذ فى سبيل ذلك أوامر غاية فى الصرامة . وغريبة كل الغرابة عن نظام التربية الهيلينية . وهكذا نرى أن كل ذلك كان مقصودا به دفعه الى اليأس ثم العدول عن مهمته . ولكنه صبر على ذلك وثبت له فكان ينفذ فى همة ونشاط كل ما كان يطلب اليه حتى أثار إعجابهم به ، فعدلوا عن سلوكهم ، وأخذوا يعاملونه باحترام ، وبلغ من ذلك أنهم سمحوا له بالتضحية لآلهتهم . وذلك أمر لم يكونوا قد أكرموا به غريبا حتى ذلك الوقت (Porphyre, Pythagore, 7)

وهكذا انتهى هذا النشاط والاصرار والظمأ الى المعرفة بأن فتحوأ أمامه أبوابا كانت من قبل مغلقة فى صرامة وحزم . وأتيح له بذلك أن يرضى عنه الكهنة ويكسبهم الى جانبه . ويصور لنا (Jamblique) وهو أحد المشاهير من كتاب السير أن « فيثاغورث » كان يتردد على معابد مصر فى نشاط كبير وقد أعجب به الكهنة والعراقون الذين عاش معهم ، كما أخذ هو يعلم نفسه كل شئ فى كثير من الاهتمام محاولا أن يعرف بنفسه كل من اشتهروا بذكائهم . وكان حريصا على ألا تفوته احدى الاحتفالات الدينية ، كما كان يزور أى بلد يترا له أنه يستطيع أن يتعلم فيه شيئا جديدا . وهكذا كان يلتقى بكل الكهنة ويأخذ من كل منهم ما يعرفه . وهكذا استطاع أن يمضى تحت هذه الظروف اثنين وعشرين عاما بين معاهد مصر (Jamblique, Vie de Pythagore, 4, 18-19)

وهنا يتردد التساؤل . ترى ماذا كانت العلوم التى حاول بحث عناصرها بصفة خاصة ؟ نعتقد انها كانت الهندسة بوجه

خاص اذ « كان يوجد لدى المصريين كثير من المسائل الهندسية .
فنظريات الخطوط جميعها كانت تنبع من هناك Jamblique وكذلك
الفلك الذى درسه فى المعابد طوال مدة اقامته فى مصر » . ويمكن
أن نقول فى ايجاز : انه قد أخذ العلم الذى أكسبه صفة العالمية
بوجه عام عن كهان طيبة ومنف . وبلغ من ذلك حدا جعله يؤيد فى
التعليم الخاص به وسائل رمزية وسرية كانت فيما يبدو مما اعتاد
عليه الكهان (بلوتارخ - ايزيس وأوزيريس ١٠) .

وقد جاء الى مصر حكماء وفلاسفة آخرون من الأغارقة ليتعلموا
فى المعابد المصرية . ونحن نملك من التفاصيل أحيانا ما يبين مراحل
تدريبهم . فهذا « أونوبيدس » مثلا أخذ عن « الكهنة والفلكيين كثيرا من
الأسرار ومنها بخاصة أن الشمس تدور فى شكل اهليلجى » (أى
أن سمت الشمس المنحرفة يقع على خط الاعتدال فى السماء) «
وتتجه اتجاهها مضادا لاتجاه الكواكب الأخرى (ديودورس الجزء
الأول ٩٨) . أما « ديموقريط » فقد عاشر الكهنة خمس سنوات
ليتعلم ما يتصل بالفلك (ديودورس الجزء الأول ٩٨) والهندسة
(Diog ne Laërce, Democrite, 3)

وأما أفلاطون فيبدو أنه قد جاء ليبحث فى مصر
عن أصول الهندسة واللاهوت والعلم المقدس بصفة عامة
(أو لمبيودورس ، حياة أفلاطون) . وقد لقي أفلاطون من التعليم
مثل ما لقي « فيثاغورث » . أما الجغرافى « سترابون » فهو يروى لنا
فى وصفه لمصر (السابع عشر صفحة ١ ، ٢٩) رحلته الى هيليوپوليس
فى الكلمات الآتية : « لقد رأينا هناك الابنية التى كانت مخصصة
فى الماضى لسكنى الكهنة . ولكن لم يكن ذلك هو كل شئ . فقد
أطلعونا على مسكن « أفلاطون » و « ايودوكس » لأن الأخير كان قد
صاحب « أفلاطون » حنى هذا المكان » . وعندما وصلا اليها استقرا
فيها وعاش كلاهما ثلاثة عشر عاما فى مجتمعا الكهنة . وهذه حقيقة

يؤيدها كثير من المؤلفين ؛ فهؤلاء الكهنة الذين انصرفوا يتمفون بحولهم لمعرفة المظاهر السماوية كانوا فى الوقت نفسه أشخاصا غامضين ولم يكن من اليسير تتبع أحاديثهم . فلم يستطع «ايودوكس» ولا أفلاطون الحصول منهم على بعض ما يعرفون من أسرارهم العلمية والنظرية الا بعد مرور وقت طويل والا بعد كثير من حسن التدبير . على أن هؤلاء البرابرة قد استطاعوا أن يدخروا قدرا كثيرا من علمهم . واذا كان العالم يدين لهم اليوم بمعرفة الجزء من اليوم الذى يجب أن يضاف الى ٣٦٥ يوما كاملة لتبلغ بذلك السنة الكاملة ، فان الاغريق قد جهلوا المدى الحقيقى للسنة وجعلوا حقائق أخرى من النوع نفسه الى أن نشرت تلك المعلومات من خواطر الكهان المصريين مترجمة الى اللغة الاغريقية ، فعرفت بين الفلكيين العصريين الذين ما زالوا الى الآن ينهلون من هذا المعين نفسه كما ينظرون الى ما فى كتابات الكلدانيين وملاحظاتهم » .

ولقد كان « ايودوكس » موصى عليه من « اجيزيلاس » لدى «نقطنيو» ملك مصر الذى قدمه بدوره الى الكهنة . ولم يكتف خلال اقامته بالتماس العلم لدى كهان هليوبوليس ، ويحدثنا بلوتارخ أن « ايودوكس » انتظم فى دروس «خنوفيس» من علماء منف (ايزيس وأوزيريس ١٢) . ويحتمل ان كهنة هليوبوليس قد ردوه فى دهاء - كما حدث أيام الملك أمازيس - الى كهنة منف ليعتنوا به بحجة أنهم «أقدم منهم عهدا وأعلى فى العلم درجة» ومهما يكن من أمر فان ايودوكس قد أفاد من اقامته فى مصر واليه ينسبون عادة ترجمة بعض المؤلفات المكتوبة باللغة المصرية الى اللغة الاغريقية (Diogène Laërce) وادخال بعض معلومات دقيقة الى بلدته عن « سيرة الكواكب الخمسة » التى ما زالت لم تحدد بعد بدقة والتى عرف ما عرف عن طبيعتها الحقيقية خلال اقامته فى مصر (Sénèque, Quest. Nat.VII, 3) وتلك فى الغالب هى « نظرية الدائرة التى وسطها على محيط دائرة كبرى » .

ترى ما قيمة هذه الشواهد ؟ ينبغي الحذر ، وحاشا أن نكون من الساذجين . فالجزء الأكبر من هذه الروايات التي سبق أن أورد ذكرها كتاب السير من عصور متأخرة وأيام كانت الرحلة الى مصر فى نظرهم من الضرورات فى حياة فلاسفتهم وكانت تشبه الى حدما تلك السنين التى يقضيها طلاب العلم من أفريقيا وآسيا فى الجامعات الاوربية فى الوقت الحاضر للحصول على شهادة الدكتوراه . فقد كانت مصر تعتبر موطن العلوم ، وكان على كل شيوخ الحكماء أن يمضوا فيها وقت المران والدرية . ولقد نجحت التقاليد فى تأكيد ذلك على الأقل حتى ولو كان بعضهم لم تطأ قدمه على الاطلاق أرض مصر .

وعلى أننا لم نذكر رحلات الفلاسفة تلك لوصف ميراث روحانى غير محدد أو لاطهار «ماتدين به بلاد يونان لمصر» ولا نقصد حتى تحديد البقاع التى نما فيها علم مصر ، اذ أن الرحالة انما كانوا يسألون عما يهمهم وحسب . وسوف نرى فيما بعد ، أنه فضلا عن الهندسة والفلك واللاهوت والتاريخ ، كان الكهنة المصريون يمارسون ثقافات أخرى كثيرة لم يذكر سائحونا عنها شيئا .

هذه اشارات عن حقيقة هى لدينا أهم من الحقيقة التاريخية لهذه الرحلات الدراسية ، ونعنى الشهرة العامة للحكمة والعلم اللذين استقرا فى أذهان الاغريق من أهل العصور القديمة مرتبطين بطبقة كهنوت المعابد المصرية الكبرى . وهذه نقطة هامة ؛ ففلاسفة اليونان مهما كانت شهرتهم كانوا يكتسبون مزيدا من أعجاب شعبهم اذا ما استطاعوا أن يبينوا أن رحلتهم الى مصر كانت مصدرا من مصادر علمهم . والنقطة الثانية فى هذا الموضوع هى أننا أصبحنا نعرف الآن - بفضل هؤلاء الاغريق - بعض اتجاهات العلم المقدس ومظاهره مثل طبيعته السرية والازدراء الذى كان يبيديه الكهنة لبيان مقوماته . وكذلك الرمزية والغموض اللذين كانا

يحيطان بكل ما كانوا يرون الكشف عنه . . وأخيرا نرى تلك
المكانة التى كان يحتلها ذلك الايمان الذى لا حد له فى تنمية هذه
العلوم فيما كشفتها لنا النصوص المكتوبة الى جانب التقاليد الادبية
فى الماضى البعيد .

العلم المقدس واتجاهاته :

نستطيع الآن وقد أصبح لدينا الكثير من الأفكار الغنية أن
نتجه الى المصادر المصرية لنحدد «الجو الروحي» الذى بلغ فيه العلم
المقدس حد النضج ، ولا يكفى استعراض مبسط سريع للمجالات التى
كان يغطيها لمعرفة خطوطه النوعية التى ميزته عن أسلوب البحوث
«غير الدينية» والتى كان لها أثر قوى على طبيعته ونجاحه . وقد
رقى أعلى درج هذا العلم رجال كانوا يعيشون فى عالم متجه كل
الاتجاه ناحية المشاكل الدينية وعلم اللاهوت وممارسة العبادة .
وعلى ذلك فقد كان هذا العلم «ذا غرض عملي» وفى اطار جهاز معين .
كما أنه علم « تقليدى » يعادى كل ما هو جديد . وأخيرا يتضمن
بصفة أساسية «معرفة الكتابة» كوسيلة للوصول الى النصوص
القديمة التى تعتبر المنابع التى لا تتغير لكل الهام ، كما يعطى مجالا
لطريقة من التفكير أساسها القيمة الالهية لنطق اللغة والإمكانات
المعبرة التى لا حدود لها تقريبا للعلامات الهيروغليفية .

وقد كانت العناصر الدائمة التى تحكم « العلم الكهنونى »
وتعطى له مظهره الاصلى عبارة عن البحث فى الكتابات القديمة
والاعتقاد فى قوة نفوذ الأصوات والتخصص المتدرج فى الكتابة
الهيروغليفية بغرض الاستعمال الدينى ثم البحث فى هذه الكتابة
عن طرق متعددة للتعبير .

· الالتزام بالنصوص المكتوبة :

ان فكرة البحث في المخطوطات القديمة عن عناصر حقيقة «مفقودة» قد لازمت المصريين في سائر العصور، وذلك ميل استمدوه من طابع حضارتهم التي تميزت بكثرة ما ضم تراثها من مخطوطات غير دقيقة. وان كان من الواجب ان نضيف الى هذا العيب السائد عيبا واحدا قد يكون أعمق وأشد أثرا ونعني رداءة الخط .

وينبغي لكى نفهم موقف المصريين أن نضع دائما فى الاعتبار التناقض الواضح بين نظرتهم الى الحياة ونظرتنا اليها . فنحن نعيش فى عالم نعلم أنه فى حركة مستمرة . وان كل مشكلة جديدة لابد أن يكون لها حل جديد . فأما المصريون فلم تكن لديهم هذه الدراية بالزمن الذى يغير العالم ولا بالتغيير الذى يحدث فى العوامل ويقتضى بالتالى تغييرا فى الوسائل المستعملة لحلها . وفى الاصل خلق المعبود عالما خالدا ثابتا نهائيا يتحرك ويجرى كمحرك (كآلة) سليمة موفورة الوقود . واذا وقعت بعض المشاكل ، كان يبدو فى المحرك شىء من ارهاق ؛ فمعنى هذا أن أحد العناصر التى يتكون منها المحرك قد يبيل أو يتحطم ، ووجب أن يخلق مكانه عنصرا آخر وهنالك يأخذ كل شىء سيرته على خير حال ويبقى المحرك كما هو لا يتعطل ولا يتغير فى تركيبه أو مظهره أو فى عمله . فكل ما يشغل البال من احداث ، أو يقع من توقف فى سيرة المؤلف من نظام الامور لا يكون فى الواقع جديدا ؛ اد أن كل ذلك كان متوقعا حدوثه فى العالم . وحله أو علاجه متوافر معروض منذ القدم فى لون من سيرة الكون كما رسمه الارباب يسوم برأت الكون نفسه . وكل ما يقتضيه الامر هو النظر فى الكتابات القديمة للبحث عن الوصفة التى كانت منظره لعلاج هذه الحالة أو تلك . فازاء حادث بعينه أو ظاهرة مادية بعينها أو كارثة تحقيق بالبلاد كلها لم يكن العلماء

يبحثون عن الاسباب المادية لما حدث ليجدوا له - اذا أمكن - العلاج المناسب ، ولكن كانوا ينقيون بكل نشاط في أكوام الكتب القديمة لمعرفة ما اذا كان ما وقع قد كان له نظير من قبل وبلتمسون ما يناسبه من علاج .

وليس أدل على ذلك من رواية المجاعة الكبرى التى امتحنت بها مصر فى زمان أحد الملوك البطالمة والتى انتهت إلينا منقوشة على لوحة بين صخور جزيرة سهيل :

« لم يصل الفيضان فى حينه خلال سنوات سبع . ولم تكن الغلات متوافرة على الإطلاق وجفت البذور . وكل ما كان مدخرا للطعام كان مقداره ضئيلا للغاية . وينس كل امرئ من مجىء رزقه . بل بلغت الحال حدا تعذر معها علي الناس المشى ؛ فدموع الاطفال منهلة ، وأفئدة الشبب مكلومة ، وقلوب الشيوخ محزونة وهم يجلسون على الارض مثنية أرجلهم مرخية أيديهم على أجسادهم حتى رجال البلاط قد باتوا محتاجين . وغلقت أبواب المعابد وامتألت المقاصير بالتراب . وفى ايجاز بات الجميع فى هم وكرب .

ترى ماذا كان ينبغى عمله ازاء تلك الازمات ؟ أيقضى الامر مراجعة نظام التوزيع الداخلى أو استيراد الغلات من الخارج ؟ أم يقتضى تحسين نظام الري ؟ كلا . فاذا كان النيل لايفيض فى موعده فلا بد أن خلا قد حدث فى «جزيرة الفيلة» فأصاب القداسة التى تهيم على الفيضان . وهنا يبدأ البحث فى الأوراق القديمة المهمة .

واذن يقول الملك : « لقد عزمت أن أطوى الزمن القهقرى ، لأبلغ الماضى ولأسال كهنة ايمحتب : من أى مكان ينبع النيل ؟ أى مدينة تقع هناك عند منحرج النهر ؟ وأى اله استوى هناك يمكن

أن يسعفنى ؟ ثم هب واقفا ليقول : «سوف أذهب الى مدينة «توت» وسوف أدخل قاعة الوثائق استعرض الكتب المقدسة ثم أهتدى بهديها . وهنالك انطلق ثم عاد الى فى لحظة لينبئنئى بمخرج النيل (فى مناطق الشلال) وبكل ما يعبر هذه المناطق . ثم كشف لى عما هو عجيب وغامض فى آن معا . وآية ذلك أن السلف قد قصدوا الى ذلك المكان . وان لم يقصد اليه ملك منذ البداية » . (ترجمة بارجييه) .

ويمضى فى الرواية ليقول : ان الملك يتبين كيف أن المعبود « خنوم » يسيطر على تلك المناطق وكيف اله قد أخذ يتوسل اليه بقرايين يقدمها اليه ويوقف على معبده قطعة من الارض . وهنالك يعود النظام الى كل شيء كما كان .

وهكذا نرى أن البحث فى المخلقات من تراث الماضى كان أمرا غالب الحدوث فى المخطوطات المصرية ؛ فهى قد كانت الملاذ الأكبر للعلماء حين يغم عليهم الامر . وقد كان يحدث ألا يعدو الامر عثور أحد الكتبة المحظوظين على وثيقة ضللتها العيون فيبدو له أن ما بها ذو أهمية كبرى فيقوم باعادة نسخها بغية الافادة منها .

ومن قبل ذلك ما نجد فى تلك المجموعة الضخمة من الصيغ الدينية والسحرية المعروفة باسم «كتاب الموتى» ونعنى قسما تحت العنوان المؤثر « صيغة مخصصة لمنع قلب المتوفى من أن يسلب فى العالم الآخر » . وقد وجدت هذه الوثيقة الثمينة التى نسخت منها مئات القراطيس فى ظروف معينة ، وجعل عنوانها على النحو التالى :

« عثر على هذه الصيغة فى الاشمونين على لوحة من بازلت الجنوب منقوشة باللازورد الاصيل تحت قدمى جلالة الملك «منكاورع» عثر عليها ولد الملك المرحوم «جدف حور» ، خلال تنقلاته للقيام

يرصد ما فى المعابد فى سجلات • ولما كان قد لقي فى عمله هذا كثيرا من المشقة فقد طلب تلك الوثيقة على سبيل الجزاء ثم عاد بها عجيبه الى الملك» (ترجمة دريوتون) • وقد سجلت وثيقة أخرى ذات أهمية كبرى هى « لوحة ميترنخ لسحرية » فى ظروف مماثلة : كان ذلك فى عصر الملك «نقطانيو» الثانى آخر الملوك المصريين (٣٥٩ - ٣٤١ ق م) ، وذلك حين لآخذ كاهن يدعى «اس - اتوم» أن نقشها هاما قد فقد - من معبد «أوزبريس - منيفيس» فى هيليوبوليس • ونظرا لاهتمامه بهذا النقش فضلا عن رغبته فى ارضاء الاله فقد أعاد كتابته ثم سجله على لوحة رائعة من الحجر الأخضر الداكن •

أما معبد الالهة «حتحور» الكبير بدندرة والذى أعيد بناؤه فى زمان أواخر الملوك البطالمة ، فقد وجد فى أحد مخابئه السرية نص يشير الى أن نظامه العام قد استمد من وثيقة قديمة جدا جاء فيها «ان الاساس الموقر قد كان موجودا فى دندرة ضمن كتابات قديمة مسجلة على لفافة من الجلد من زمان اتباع حورس (وهم الملوك الذين سبقوا الملك مينا) عثر بها فى متف فى خزانة فى القصر الملكى أيام ملك مصر العليا والسفلى سيد الارضين ••• پيپى » (ترجمة دوما) •

وهكذا استمد المعبد اليونانى الرومانى صورته ونظامه من أصول بلغت فى قدمها حوالى ٣٠٠٠ سنة ثم كان العنور عليها بعد ٢٦٠٠ عام على يد أحد من حفاظ الوثائق اثناء تنقيبه فى صندوق قديم من صناديق الاوراق •

ومن ذلك نرى كيف كان للكتب الاثرية فى العصور القديمة قيمة لا يستهان بها • وكان من بين النصوص الممتازة فيها ما لا يقدر بثمن ، وقد يقتضى البحث عنها أن يعرض الانسان حياته للخطر • وفى قرطاس من أيام العصر المتأخر ، مكتوب باللفة الشعبية (الديموطيقية) قصة رجل من ولد الملك يدعى « نى - نفر - كا -

بتاح « حلت به محنة وهو يبحث كتاب زعم أن رب العلم والحكمة «توت» كان قد خطه يمينه . لم يكن ل (نى-نفر-كا-بتاح) - فيما يظهر - من قصد سوى التنقل على أرض جبانة منف (هضبة سقارة) ، يتلوما فى قبور الفراعنة ثم ألواح وكتاب من كتابات بيت الحياة . كما يستظهر ما يغشاها من نقوش ، ذلك لأنه كان مولعا أشد الولع بالمخطوطات . ويقام حفل تعظيم للمعبود بتاح ، ويدخل « نى - نفر - كا بتاح » الى المعبد ليصلى . وبينما كان يتابع الاحتفال ، مفسرا فى السر ما كان يغشى مقاصير الارباب من كتابات مصرية ، رآه عجوز فأخذ يضحك ، فسأله « نى نفر كابتاح » : لم تضحك منى ؟ فقال له الكاهن : «كلا لست أضحك منك ولكن كيف أمسك عن الضحك وأنا أراك تقرأ هنا كتابات ليس لها أية فاعلية ؛ اذا أردت أن تقرأ كتابا فتعال معى وسوف أهديك الى مكان يوجد فيه الكتاب الذى كتبه «توت» نفسه بخط يده عندما هبط الى الارض . فى ركاب الالهة . وفى هذا الكتاب عزيمةان اذا قرأت الاولى سحرت السماء والارض وعالم الليل ، وكذلك الجبال والماء . كما أنك ستفهم منطق الطير فى السماء والزواحف فى الارض كلا بحالته . الراهنة . وسوف ترى الأسماك فى لجج البحار ؛ لأن قوة الالهة سوف تحلق فوقها على الماء . واذا قرأت الصيغة الثانية فسوف بتاح لك - حتى عندما تصبح فى قبرك - تقويمك الذى كان لك فى الارض ، وسترى كذلك الشمس وهى تشرق فى السماء بموكبها من حشود الالهة ، والقمر فى المنزلة التى يبدو فيها ليسطع ، على أنه ليس من السهل العثور على هذا الكتاب السحري . ويستطيع ولد الملك بكثرة التعاطف أن يغرى الكاهن بالتحدث والكشف عنه « ان هذا الكتاب فى قلب بحر قفط فى خزانة من حديد فى قلبها خزانة من البرونز ، وبداخل هذه خزانة من خشب القرفة ، وبداخل هذه خزانة أخرى من العاج والابنوس بداخلها خزانة من الفضة ، بداخلها خزانة من الذهب ، والكتاب داخل هذه

الآخيرة • ومن حول الخزانة التى تضم الكتاب عدد هائل من الشعبان والعقارب والزواحف من كل لون • كما أن هناك شعبانا مؤبدا ملتفا من حول الخزانة المشار إليها •»

وانتهى البحث بأن عنر «نى - نفر - كا - بتاح» على هذا الكتاب المنقطع النظير - ويقع فيه على الصيغ التى تؤدى تلاوتها الى الغرض • غير أن «توت» يرى فى ذلك عدوانا عليه • ويدفع «نى - نفر - كا - بتاح» حياته وحياة أهله كافة لمنا لحب استطلاع •

وقد يحدث - برغم ذلك أحيانا - ألا يشعر الاله بمس من عدوان • فهناك رواية أحدث تاريخا من تلك التى أوردنا بعضها من خطوطها ، وبطلها فى المسرح نفس البطل • وهى تحكى قصة صراع سحرى يضج ملوك مصر أمام ملوك «مروى» • وكان كل ساحر يتحدى منافسه • وفى الجزء الذى يهمنا من النص نجد مصر فى الكفة الخاسرة • ونرى الساحر المروى يفرض على فرعون كل ليلة ضربات عصا كثيرة تتركه محطما • وحيثما يبلغ اليأس حدا كبيرا بالساحر المصرى يقصد الى الاشمونين التماسا للمعونة من الاله «توت» : نام «حورس بن بانشى» فى المعبد ورأى فى الليلة نفسها حلما • فهذا شبح الاله الكبير «توت» يكلمه قائلا : « ادخل صباح غد الى قاعة الكتب فى معبد الاشمونين وستعثر على ناووس مغلق ومختوم • فاقتحه لتجد فيه صندوقا يضم كتابا • ذلك الكتاب هو الذى خططته بيدي • فخذ منه نسخة ثم أعده الى مكانه ، لأنه الكتاب السحرى الذى يحمينى من الاشرار وهو الذى سوف يحمى فرعون وينقذه من كيد أهل «مروى» •

ويرجع الفضل الى هذا الكتاب فى أن ملك الاثيوبيين هو الذى ضرب بشدة فى الليلة التالية وانتصرت مصر •

إذا كنا قد توقفنا قليلا عند تلك الاشارات ، فما ذلك الا لأنها
ترجم فى كل صورها الجذابة عن أحد اتجاهات المفكرين المصريين
العريزة عليهم ، وعن أسوأ أخطاء حياتهم الروحية فى آن معا - وهو
الايان الاعمى بما لتلك النصوص القديمة من أثر قوى . فالبحت
عن النصوص القديمة والحرص عليها ، يفوق لديهم مجرد الاهتمام
بالتعرف على أفكار عجيبة عاشت فى الماضى ، ويفوق الاهتمام
التقليدى بأساليب قديمة تتصل بالفكر أو التصرف . وأنها لتعبر
فى الواقع عن الاقتناع بأن هناك أسراراً لا تقدر بثمن مختبئة
ومنسية وضالة بين المحفوظات التربة . وأنها لديهم لأسرار لا تقتصر
قيمتها على نصيح يستطيعون اسداءه ، بل هى لديهم ذات قوة
وفعالية تكفل لمن يكتشفها أساليب لاستطيع قوة العالم أن تعطلها .
وفضلاً عن كل ذلك فإن هذه الاوراق المقدسة المحفوظة لا تنقل اليهم
ذكرى الاحداث القديمة أو روايات من الماضى تدعو الى العجب
فحسب ، بل انها لتكشف لهم - فى حالات خاصة - عن تلك
الكلمات التى استعان بها الآلهة على خلق العالم .

هيمنة الاصوات والاشتقاق المقدس للكلمات :

تخيل المصريون خلق العالم فى صور شتى . اذ تصورنها كل
مدينة حسب تفكيرها الخاص جاعلة بالطبع أساسها الأصلي لالهها
الاقليمى . ومع ذلك فيبدو أن مدارس اللاهوت قد تبنت كلها
أسلوباً فنياً متشابهاً لفكرة الخلق يقوم أساساً على «الكلمة» . فما
هى الا أن تجول إدارة الخلق فى خاطر الاله الاول ، حتى يتكلم
فتكون المخلوقات والأشياء التى عبر عنها صوته . ولم تكن قيمة
الكلمة فى الفكر المصرى مجرد وسيلة اجتماعية لتسهيل الامور
الانسانية بل كانت تعبيراً مسموعاً من الداخل عن جواهر الاشياء .
وقد ظلت كما كانت منذ بدء الخليقة الوسيلة الالهية التى أعطت

كل شيء خلقه . وفى النطق بمقاطع الكلمات يكمن سر وجود الأشياء التى ينطق بأسمائها . وذلك أن النطق بأى كلمة أو اسم لم يكن مجرد وسيلة فنية لنقل ما فى ذهن المتكلم الى ذهن السامع من صور ؛ بل كان النطق باسم الشيء ذا أثر عليه شديد . فهو تكرر (أو اعادة) لعملية الخلق الاولى . ونحن نتبين من النصوص الجنائزية أن المتوفى يود أن ينطق باسمه ، ويتوسل الى الاحياء أن تكون تلاوة صيغة تقديم القرابين بصوت مرتفع «ألف قطعة من الخبز وألف جرة من الجعة . . من أجل . . .» وليس ذلك مجرد هتاف لا طائل تحته . فلقد يكفى فى تصور المصريين أن يتلو الزائر التقى صيغة لطلب الرحمة فيتحقق خلق ما فيها من صور بحيث تصبح نافعة للميت . ومن ذلك نستطيع ادراك عقيدة المصريين فى مدى القوة الهائلة التى يمكنها أى نص من نصوص السحر المقدسة ، وتصور ما تطويه من وسائل لا حد لها لتعريف الامور لدى من يحظى بجيازتها . ولذلك نجد أن المصريين قد أطلقوا على محفوظاتهم القديمة المقدسة اسم « باورع » بمعنى « القوة الفعالة لرع » فبوساطتها كانوا يلتمسون القوة الاولى التى كانت - وفق احدى التقاليد السائدة - مما استخدمه الاله رع فى العالم . ومن هنا وبعد معرفة هذه النظرة الخاصة يتضح لنا كثير من أمور اللاهوت . مثال ذلك الاحتفاظ بلغة الطقوس الدينية لا تتغير وترجع فى أصلها الى زمان العصور الوسطى التى ازداد ابتعادها عن اللغة الشعبية ولم يكن من حق امرئ أن يغير فى أصواتها أو صيغها اذ أنها لغة الالهة مقدسة . فهى قد سماها أهلها منذ القدم « اللغة المقدسة » وهل هناك ما هو أبلغ من هذا النص فى التعبير عما قدمنا من مجال وان كانت الترجمة تضيق به (Traité XVI, 1-2) ويستعصى عليها :

« وهكذا فإن سيدى هرميس - خلال الاحاديث التى كثيرا ما دارت بيننا - كان من عادته أن يقول لى : ان الذين سيقروون كتبى سيجدونها بسيطة فى تكوينها وواضحة على حين أنها على العكس من

ذلك غامضة ومعاني كلماتها خفية ؛ بل ستظل غامضة حتى بعد ما يضع الاغريق فيما بعد نصب أعينهم ترجمتها من لغتنا الى لغتهم ويكون من نتائج ذلك تحريف كامل للنص وغموض تام . على عكس الحال عندما يدور هذا الحديث بلغته الاصلية فهو يدخر وضوح معاني الكلمات . وعلى ذلك فان لرنين الصوت وجرس الحروف المصرية خاصة تحتفظ فى داخلها بقوة الأشياء المنطوق بها » .

لم يعتبر المصريون على الاطلاق أن نطق الكلمات التى نطابق الاشارات الهيروغليفية مجرد وسيلة اجتماعية بل ظل ذلك بالنسبة اليهم على الدوام صدى قويا للقوة الاصلية التى برأت العالم ، أو بمعنى آخر عبارة عن «قوة كونية» . ومن هنا نرى أن دراسة هذا الاسلوب الكلامي يتيح لهم فهم العالم .

وهم يتوصلون الى هذا الفهم عن طريق «التلاعب بالالفاظ» . ونظرا لأن الكلمات ترتبط ارتباطا وثيقا بجوهر المخلوقات أو الأشياء التى تعبر عنها ؛ فان تشابه الالفاظ لا يمكن أن يكون اذن شيئا عرضيا ، بل لابد أنها تعبر عن تقارب فى الطبيعة ، واتصال دقيق يضطلع الكهنة بفهمه والقياس بتعميقه : ومن ذلك أسماء الاماكن وأسماء الآلهة والالفاظ التى تعبر عن الأشياء المقدسة . كل شئ يصبح من الممكن تفسيره عن طريق الاشتقاق والجرس الصوتي للكلمات ، وهكذا يصبح المجال مفتوحا أمام أكثر الخواطر مخالفة للصواب .

فلنستعرض لذلك بعض أمثلة كلاسيكية لهذا الاسلوب الفني ، بادئين بما يعتبرونه فى رأيهم غاية فى الكمال ونعنى « اسطورة حورس» . ويعتبر الموضوع تكويننا أسطوريا هائلا يظهر أحيانا فى شكل «درامي» يمكن تمثيله على مراحل متتابعة . وقد وضع هذا النص فى مناسبة العيد السنوى الرابع لاله « حورس » اله ادفو

الذى سموه عيد النصر . وهو يحكى انتصار رع وحورس وهما يهبطان من أعلى النيل فى موكب نصر بحرى مبعدين عن طريقهم كل الارواح الشريرة وكل أعوان اله الشر . تأخذ القصة سيرتها هابطة من الصعيد الى الشمال وتنصب فكرة الكاتب على تفسير كل اسم من أسماء المدن التى يمر بها الاله فى رحلته عن طريق عمل من أعماله أو كلمة من كلماته . « حينئذ قال حورس : تعالى يارع لترى كيف سقط أعداؤك أمامك فى هذا البلد » . وجاء جلالتة نصيحة « عشتروت » فرأى أن الأعداء قد وقعوا على الأرض وتهشمت رؤوسهم . عندئذ قال لحورس : « هذا مكان تحلو فيه الحياة (نجم عنخ بو) » . ولهذا السبب أطلق على قصر حورس الى هذا اليوم اسم «نجم عنخ» . ثم قال رع لتوت : «هكذا جوزى أعدائى» (جبا) ولهذا السبب سميت هذه المقاطعة «جبو» (ادفو) حتى هذا اليوم .

وهكذا فان كل مدينة وكل عاصمة كانت تأخذ دورا محددا فى حركات الاله الكبير ، كما كانت تتلقى كلمة مشتقة كفيلة بأن تملأ قلوب علماء اللغة إعجابا ورهبة . فهناك مثلا احدى منشآت الدولة القديمة فى مصر العليا بالقرب من مدينة اسنا تحمل اسم «بى - ساحورع» أى «ضيعة الملك ساحورع» . ووجودها بالقرب من قرية أخرى اسمها «حوت - سنفرو» بمعنى «قصر الملك سنفرو» ، تبين أن هذه المنطقة كانت منطقة ريفية غنية ازدهرت فيها المنشآت الزراعية أثناء حكم ملوك الأسرتين الرابعة والخامسة (حوالى ٢٧٠٠ - ٢٦٠٠ ق.م) فى عصر الاهرام . ومع ذلك فقد فسر هذا الاسم - « بى ساحورع » - فى العصور المتأخرة بطريقة مختلفة تماما ؛ ترجم على أنه « المنزل الذى استراح فيه (ساحو) » أى الاله رع» . ونسب انشاء هذه القرية الى مرحلة من مراحل اغتراب الآلهة . ولذلك فقد ضاعت كل أهمية تاريخية لاسم هذا المكان . وعلى الرغم مما يبدو فى هذا الاسلوب من لعب وعبت ، فانها لا تخلو من قصد

ومنطق اذا ما جاء لنا فهم القيم التى ألصقها المصريون بمقاطع المفردات ، تشابه ظاهر فى مقطعين من مقاطع المفردات لابد ان يشيرأ فى اتصال مباشر بين العنصرين المذكورين . لذلك نرى أن تفسير أسماء الاعلام جميعا لتحديد طبيعة الآلهة أصبح من الامور التى شاع استخدامها فى كل العصور ، بل اقحم فى سائر المجالات حتى أصبح أسلوبا أساسيا فى علم اللاهوت . وهكذا كان الأمر بالنسبة للاله آمون حامى طيبة العظيم . فاننا نجعل المعنى الحقيقى لاسمه غير أنه كان ينطق مثل كلمة أخرى بمعنى « يخفى » أو « يختفى » . ولذلك فقد تلاعب الكتبة بهذا التجانس فعرفوا آمون بأنه الاله العظيم الذى يخفى طبيعته الحقيقية عن أولاده . ولم يتردد البعض فى الذهاب الى أبعد من ذلك . فقد ذكر «هيكاتيه الابدبرى» تقليدا لاهوتيا قديما أصبح بمقتضاه هذا الاسم (آمون) فى مصر ، لفظا للنداء ينادى به أى شخص . صحيح أن كلمة اموينى تعنى « تعال » أو « تعال الى » وصحيح من ناحية أخرى أن هناك بعض الاناشيد التى تبدأ باللفظين «أموينى آمون» بمعنى «تعال الى ياآمون» . ولكن كان هذا التجانس سببا دعا الكهنة الى الظن بأن هناك علاقة وثيقة بينهما مما أدى الى تفسير اسم الاله : «لذلك فهم يتوجيئون الى الاله الازلى كما يتوجهون الى كائن خفى ويدعونه هاتفين قاصدين بآمون الى أن يظهر لهم ويكشف عن نفسه » .

وفى الكتب السحرية القديمة نرى أن الايمان بما للالفاظ من قوة خلاقة ، والمظهر المقدس الاصلى للكلمات ، والقيمة المفسرة للاشتقاق «الشعبية» هى المظاهر الاساسية الثلاثة للفكر اللاهوتى المصرى ، والآفاق الثلاثة التى تبدو من خلالها سائر العلوم . واذا أضفنا الى ذلك معرفة النقوش المقدسة بكل ما اشتمل عليه أسلوبيا الكتابى من ثراء اذن لاستطعنا أن ندرك « الجو الفكرى » الذى تطور فى كنفه «العلم المقدس» من قرن الى قرن .

أسرار النقوش المقدسة :


ظهرت الكتابة في مصر حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م ويرجع تاريخ آخر نقش مقدس الى الرابع والعشرين من أغسطس سنة ٣٩٤ بعد الميلاد . وليس بين أول نص مصرى هام وآخر نقش كتب فى أيام « ثيودسيوس » من فروق نحوية واضحة الا بمقدار ما بين نص كتبه « تيرانس » ، وبين موضوع منقح تم تدوينه فى السربون على ضوء النحو والاعراب وتركيب الجمل واستخدام المعاجم . غير أن لغة الكلام التى كان يتداولها الشعب قد أصابها من التعديل ما لم يخرج بها عن حدود ما يجعل فهمها على رجل الدولة القديمة – ان وقع عليها – مستحيلا . وقد يكون حاله كحال «فرجيل» ان قدر له أن ينظر فى احدى أعمالنا الادبية الحديثة . وهذا مظهر طبيعى اذ ليس هناك ما يستطيع أن يوقف تطور لغة الكلام خاصة عندما لا تكون هناك مدارس ومطابع وكتب واسعة الانتشار تستطيع أن تساعد فى تثبيتها أو تساعد على الاقل فى استبطاء سيرة حياتها الطبيعية . ولكن يجب أن ندرك أن رجال الكهنوت أخذوا على عاتقهم عدم تغيير لغة كان جرسها من العوامل التى استخدمت فى خلق العالم ، وكتاباتها من تعاليم الآلهة . وحسبنا أن العبادة الى يومنا هذا ما زالت تؤدى فى كنائس العالم الكاثوليكية باللغة اللاتينية .

وقد ادخرها رجال الدين محتفظين بمعرفة أسلوبها وممارسته ، وهو أسلوب تميز بطابع خاص ظلت لغته جامدة فى مبادئها لا يطرأ على مصطلحاتها أى تغيير . ومنها استطاع الكهنة أن يقوموا بتهديب كل القواعد التى وضعوها لعلم الاشتقاق المقدس وتنميته ، وأن يقوموا أخيرا بتوضيح أصولها منتفعين الى أقصى حد ممكن بالمبادئ التى تحدد قيمتها . وانا لنجد كثرة فائقة فى اعداد

الاشارات الكتابية فى أيام الحضارة المصرية المتأخرة . وقد كان الكتاب فى العصور الكلاسيكية - (أى أيام الدولتين الوسطى والحديثة) - يكتفون من ذلك بحوالى ٧٠٠ اشارة هيروغليفية والآن نرى الكتاب يزيدون من عدد المترادفات التى تعبر عن الكلمة نفسها فيخلقون اشارات جديدة أو يقومون ببعث أشكال قديمة كان الناس قد هجروا استخدامها . وتبلغ عدد الاشارات الكتابية المسكوكة لدى مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - وهى أغنى مطابع العالم - أكثر من ستة آلاف اشارة هيروغليفية . ومع ذلك فلا يخلو الأمر عند نشر أى نص جديد من العصر المتأخر من القيام برسم بعض اشارات كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة ، وضاعف الكتاب المقدسون من ناحية أخرى هذه القيم حين عمدوا الى الاصول التى وضعت لتحديد القيمة الصوتية لكل اشارة ، فاستغلوها فى تلك الاغراض الى أقصى حد . فالاشارة التى لم تكن تقرأ بغير صوت واحد ؛ أصبحت لها قيم أخرى بلغ عددها الخمس أحيانا ، فالكتاب فى المعابد يتلاعبون بالاشارات الكتابية ويضاعفون من أصولها ، ويجعلون منها أداة غاية فى الدقة والتعقيد كما أنهم يزيدونها الى أبعد الحدود ؛ غير عابئين بما ينشأ عن ذلك من صعوبتها التى تضطرد زيادتها ؛ بل على العكس يشعرون بالامكانات الضخمة التى لا تكاد تعرف لها حدودا والتى وضعتها الآلهة بين أيديهم . وهكذا تصبح الكتابة ضحية لأزمة حقيقية ؛ وهى أزمة مزعجة تثير القلق ، واننا لننتصور أصحاب الأدب يسعدون بعثورهم على بعض اشارات جديدة يخلقون لها معانى جديدة ، وننتصورهم يعرضون تلك الكنوز على رملاتهم فى شئ من الزهو والفخر . وقد كانوا يستعيدون قراءة النصوص القديمة ؛ يلتمسون بين ثناياها من قديم الشكول والألوان ما يتبارون فى استخراج كل غريب من معانيها . وكانوا يجعلون من عملهم هذا فنا يمارسونه ويتخذون منه مسلاة عقلية .

التلاعب بالإشارات وفلسفة الكتابة :

وقد تأخذ الكاتب دهشة الرضى حين ينتهى من كتابة جملة تقليديا مستخدما فى رسمها اشارات غير عادية ، ذلك ان معنى النص انما يستخلص من القيمة الصوتية لاشارات تصور شكلها المادية معانى تبعد كل البعد عن قيمتها الصوتية . فلنكتب على سبيل المثال اسم الآلة بتاح حامى مدينة منف مستخدمين فى ذلك اشارات

أصلية  فنرى الكاتب هنا يعبر عن الحرف الأول من اسم

الاله وهو «ب» بصورة السماء . واسمها كما ينطق به فى المصرية « بة » وعن حرف « ت » بصورة الأرض واسمها المصرى « تا » وعن حرف « ح » برسم الاله « حج » رافعا ذراعيه الى أعلى ومعبرا فى الوقت نفسه عن احدى الوظائف التى استندتها نظرية منف الدينية الى الآله « بتاح » الذى فصل فى خلق الكون بين السماء والأرض . أى أنه قام بالدور الذى قام به « شو » فى « نظرية هليوبوليس » الدينية . وفى وضع رسم المعبود « حج » بين السماء (بة) التى يرفعها بذراعيه والأرض (تا) التى وطئها بقدميه استطاع الكاتب أن يرسم الصورة الصوتية لاسم المعبود « بتاح » وأن يرسم فى الوقت نفسه صورة صغيرة تترجم رؤيتها وظيفة هذا الاله بين عناصر الكون . واخرى من أمثلة التلاعب بالألفاظ نراها فى تصوير لفظ « دواة » (عالم الموت أو العالم الآخر) وكان يرسم فى ذلك الوقت بساكنين هما الدال والتاء . وهما الساكنان اللذان يصوران فى الوقت نفسه اسم « الجسد » واسم « الأبدية » فى آن معا



ومن ذلك نرى أن الجمع بين اشارتين احدهما رسم الثعبان للموت « د » والثانية رسم الجسد المسجى فى هيئة المومياء للأصوات « واة » . ومن هذين الشكلين الصونين يتهى لنا اسم العالم الآخر رسما ومعنى .

وهكذا يتيح هذا التلاعب الجديد بالألفاظ مجالاً للاختيار
يقعون فيه على مستودع غير محدود لاشارات تتساوى في دلالاتها
من حيث احتوائها على السواكن اللازمة لبناء الكلمة وهو الغرض
الأول ، ومن حيث تصوير الفكرة المعنية من رسم اللفظ في آن معا .

وهكذا يستطيع النص المرسوم على هذا النحو أن يتحدث الى
العقل الذى يتابع الألفاظ ويدرك معانيها الى العيون التى تترسم
الصور والشكول ؛ شأنه فى ذلك شأن الفيلم الذى يتحدث الى
العقول بأحداثه والى العيون بصوره ، فيعبر عن القتال بصورة
رجلين يقتتلان .

وبعد مرحلة أخيرة من تلك التجارب الواسعة التى مرت بها
الكتابة الهيروغليفية نوصل العلماء من الكهان فى شان اشارات
نصوصهم المقدسة الى ادراك احتمالات التاويلات الثابتة تشبه الى
حد ما مايتناوله السحرة بحروف أبجدية فى اللغة العبرية . فهذه
الكتابة وهى من عمل الآلهة وقد أبدعت الحياة مقاطع الفاظها ، بحيث
أصبح فى الامكان ان تحدد الفكر وتنقله بعد أن رسمت اصوات
لفظه ، وأصبح تركيبها كافياً للإيحاء بمعناها . ألم يكن من الممكن
تخيل اسلوب هجائى تغنى فكرته الكتابية عن الاسم الذى تستخدم
فى رسم مبناه بحيث توحى بمعناه ؟ ثم ألا يمكن أن يسبق المجاز
الرسم الصوتى فى التعبير عن المعنى ؟ فبدلاً من مجرد تأكيد الفكرة
التي يعبر عنها بالنطق لصورة متطورة - سوف ينشأ من الآن حول
اسم اله ما عن طريقة الرسم الهجائى لهذا الاسم - حالة من الصور
الفكرية كما ينطوى الرسم فى أصوله على طائفة من الصفات التى
يمكن أن يرجعها سياق النص الى هذا الاله .

فاذا أخذنا من رسم اسم المعبودة «نّة» مثلاً لذلك وقد كان
يرسم فى الأصل من ساكنين هما «النون» و «التاء» ثم صار يرسم

بالرخمة وقرص الشمس  أولاهما « للنون » والثانية

« للتاء » ولكل من هاتين الاشارتين معنى غير ما يعبر عنه صوت النون وصوت التاء ، فينطق بالأولى « موة » وتعنى « الأم » والثانية « رع » وتعنى الشمس . فاذا كان النص يحتم علينا أن نقرأ هذا الرسم الهجائى « نة » وهو اسم المعبودة المشار اليها فانه من ناحية أخرى يوحى إلينا أن نترجمه الى « أم الشمس » . وذلك ما قصد إليه الكاتب حين أراد أن يستأنف قارئ النص مسترسلا فيقول : « نة أم الاله الواحد الذى لا تانى له (= رع) » فصفاة المعبود يمكن أن توجد باستمرار فى الرسم الهجائى لاسمه على أن تختار اشارته الصوتية بكل دقة .

ونستطيع بهذه المناسبة أن نعرض صورة أخرى للرسم الهجائى لاسم المعبودة « نة » فالنون المصرية - وتمثل صفحة الماء ذات الأمواج - والتاء - وهو الساكن الثانى فى رسم الاسم ويتمثل فى صورة الأرض - يمكن أن يفيدا فوق لفظ الاسم « نة » المعنى الذى قصد اليه الكاتب وأصبح مستفادا من سياق النص « الماء الأزلى الذى أخرج الأرض » . ويؤكد السياق عند الاستمرار فى قراءة النص ما ينطوى اسم المعبودة من صفاتها التى عرفها لها المصريون .

تلك التأملات الأخيرة لم تنتشر الا فى أقصى العصور المتأخرة، فنحن نجد فى نصوص معبد اسنا من القرنين الأول والثانى للميلاد ، كما نجد صدى لمثل هذه التأملات لدى « هو رابوللو » فى القرن الخامس الميلادى .

ومن ذلك نرى الى أى حد تطورت الكتابة الهيروغليفية بين أيدى الكهان حتى العشرات الأخيرة من سنى حياتها .
ولم يعد الكهان المصريون ينظرون الى الاشارات الهيروغليفية

على أنها مجرد حروف هجائية اذ أنهم استطاعوا بالفعل أن يتخذوا منها طريقة للتعبير ذات ثلاث شعب ، فهي عندهم تارة حروف (أى أصوات لبناء الكلمة) ، وأخرى أشكال تلائم الفكرة التى يراد التعبير عنها ؛ وذلك بالجمع بين ادراك المنظور والاحساس السمعى . تم الايعاز بما تنطوى عليه الاشارات التى ترسم بها الكلمة من صفات باضافة الى الكلمة نفسها . . . وليس من شك فى أن الكتاب قد بلغوا عن طريق التلاعب بالألفاظ والشكول حدا مكنهم من استخدام ما بين أيديهم من كلمات فوق استعمالها المباشر كوسيلة للتعبير بأصولها عن تعريف العالم تعريفا حسيا ورمزيا فى آن معا .

فى البدء نشأ العالم وقوانينه وتاريخه بالنطق الالهى (اى بمنطق كن فكان) . ومن هنا ظل فى رموزهم المقدسة ، بقية من القوة النافذة الفعالة .

نستطيع بعد هذه اللمحات التى قدمنا - عن الظروف الفكرية التى تكون فيها العلم المقدس - أن ندرك كيف أن الكهنة لم يكونوا كرماء فيما فعلوا . اذ كيف يعرضون ببساطة على الأجنبى السائح فروعا مختلفة لعلم ارتبطت قواعده ارتباطا وثيقا بالأفكار الدينية لمصر ؟ كيف يستطيعون أن يقدموا فى اطار واضح مجموعة أفكار ومعتقدات راسخة لم يتوصلوا هم أنفسهم اليها الا بعد تأمل دقيق ، وبعد تجميع وتراكم من تقاليد الكهنوت والمخطوطات والأساليب الفنية الروحية جيلا بعد جيل ؟ ولقد كانت معرفة لغة مقدسة ، واقتان الكتابة ، فضلا عن تعمق دراسة النصوص والادراك المتصل لقوة الأصوات والكلمات التى لا حد لها من الشروط الأساسية المؤهلة لدرجات العلم لدى الكهان المصريين .

أما وقد ألمنا بجوهر هذا العلم فترى ما هى الوقائع التى نملكها ازاء ما نعرف عن هذا العلم ؟ وأين يستغنى عنه ؟ وأى المجالات كان يغطى ؟

بيوت الحياة ومكتبات المعابد :

سوف نتلقى أول رد على هذه الأسئلة حين ننظر فيما نعرف
عن « بيوت الحياة ومكتبات المعابد » .

ان بيوت الحياة هي مؤسسات لم تزل في نظرنا شيئاً
غامضاً الى حد ما . فالمصريون يتحدثون عنها في غير تفصيل ، وواضح
أن مفهومها كان معروفاً لديهم على حين أنه ليس كذلك بالنسبة
لنا . ولكننا نعرف وجودها بصفة مؤكدة في منف وأبيدوس
والبجارية وأخميم وقفت وأسنا وأدفو . فمن الحقائق المفروضة
أنه قد كان لكل معبد ذى مكانة ملحوظة « بيت حياة » خاص به .
تلك كانت الدور المستخدمة كمعامل ينمو فيها العلم المقدس .
ففيها كانت النصوص تدرس ، ويعاد نسخها ويدخر فيها . وربما
كانت الضرورة تقتضى أن يقوم الكهان فيها بتدريس بعض المواد
فنحن نذكر الحديث عن أستاذه في « بيت الحياة بأبيدوس »
كما ورد في قصة ساتني « ان الغلام الصغير سينوزيريس » حينما
تعلم القليل من أصول الكتابة المصرية على أيدي أحد الكتبة لم يلبث
حتى جعل يقرأ الكتب السحرية مع معلمى بيت الحياة في معبد
« بتاح » ومن الجائز أن يكون الغلام قد قام بمصاحبة بعض المعلمين
المحترفين بقصد التمرين أو الاستفادة من علمه الذى كان يراه فوق
طاقة البشر حسبما يشير بالأسلوب العام للقصة .

وكان أبرز ألوان النشاط في « بيت الحياة » هو اعداد الكتب
الدينية اللازمة للعبادة ، وذلك بإعادة كتابة المخطوطات القديمة
وتصحيح ما فيها من أخطاء ، وسد ما فيها من فراغ يتسبب عما
لحق القراطيس من فعل الديدان الأرضية . وكذلك كانت تعد
هناك النصوص الدينية وبخاصة ما اتصل منها بأمر العبادة
المتعلقة بكل معبد ، وتسطر الكتب السحرية الخاصة بالحماية

من الشر ، الى جانب الجداول الفلكية ، كما كانت تنسخ من كتاب الموتى » آلاف النسخ . وفيما بين ذلك كانت المشاكل الفلسفية والدينية تناقش فى كثير من الحماسة . ولم يهمل العمل فى الطب ولا أوجه النشاط الأدبى ، ولم يكن العمل فى كل شئ يجرى فى هذه المعامل فى أسلوب قوامه النسخ الآلى . وما أكثر النصوص والمحاولات والفكر الدينية التى كتبت هناك لأول مرة نتيجة لتأملات أو تبادل مثير لوجهات النظر . فقد يكون من أجمل النصوص الروحانية أو الأدبية التى بين أيدينا اليوم ما صدر عن تفكير كاتب غير معروف أمده بها إيمانه الراسخ . ومع ذلك سننظر لجهل اسمه الى ما شاء الله .

والى جانب النساخين فى بيوت الحياة كان هناك بعض الاختصاصيين مثل « منفذ الطقوس » الذى كان عليه خلال القيام بالمراسيم السحرية أن يضرب الحيوانات الملعونة طبقة لطقوس معينة . كما كان هناك طوائف من أصحاب الفنون والصور الزخرفية يقومون بتوشيه جدران المعابد بالنصوص والنقوش ومختلف الاشارات المقدسة ، ورسم المناظر وتلوينها ، وترميم ما سعى اليه السلف والبل من الجدران وما عليها من نقوش .

ويمكن أن نقرر فى اختصار وبصفة عامة أن كل ما كان ينقش على جدران المعابد وكل ما كان ينسخ من قراطيس البردى التى كانت تقتضيها شئون العبادة وسائر عناصر الثقافة الكهنوتية قد كان يخرج من بيوت الحياة . فأما ما كانت تنطوى عليه تلك الموضوعات من عناصر ، فستكشف لنا عنه قوائم « مكتبات المعابد » .

فإذا كان الكتاب والنساخون فى بيوت الحياة قد كانوا يقومون بأعداد مسودات النصوص التى كان على النقاشين أن يقوموا بحفرها على جدران المعابد ، كما كان من واجبهم ادخارها فى خزائنهم للاحتفاظ

بأكثر أصول النصوص اللاهوتية أهمية ، فقد كان من واجبهم الى جانب ذلك تحرير القراطيس التى تقضيها الواجبات الدينية فى تأدية الطقوس والشعائر اليومية . وكانت تلك القراطيس تحفظ فى المعبد نفسه لتكون فى متناول الناس وقت تأدية الخدمة ، وقد عثر فى كثير من تلك المعابد على قطع صغيرة يكتنفها الغموض فى أغلب الأحوال ؛ وإن كانت تحمل اسم « دار الكتب » . وكانت القراطيس تحفظ ملفوفة فى كرات ضيقة محفورة فى الحوائط كما كان ينقش على تلك الحوائط ، لون من السجل يبين الكتب المحفوظة فى هذه الدور . ومن ذلك على سبيل المثال قائمة الكتب المقدسة فى «معبد ادفو» : وفى : القراطيس البردية والمخطوطات الكبيرة من الجلد النقى الذى تتيح :

- ضرب الشيطان
- وطرد التمساح
- وصيانة الساعة
- والمحافظة على الموكب
- ونزهة الفلك الكبيرة
- كتاب للخروج بالملك فى موكب
- كتاب الامامة فى العبادة
- حماية المدينة والدار والتاج الأبيض للعرش والعام
- كتاب تهدئة « سخمة »
- كتاب صيد الأسد وإبعاد التماسيح وإبعاد الزواحف
- ومعرفة كل أسرار المعبد
- ومعرفة القرايين المقدسة بكل تفاصيلها
- وكل سجلات الهيئات الباطنة للاله

- وكل مظاهر الآلهة والمعاونة والتي يعاد رسمها كل يوم .
- من أجل المعبد ، كل يوم ؛ يوما بعد يوم تسكن أرواح الآلهة في (هذا) المكان ولا تهجر (هذا) المعبد ابدا .
- كتاب سجل المعبد .
- كتاب لأرهاب الناس .
- كتاب لكل ما كتب عن المعارك .
- كتاب في نظام المعبد .
- كتاب الخدمات التي يجب أن تؤدي في المعبد .
- ارشادات في زخرفة إحدى حوائط المعبد .
- حماية الجسد .
- كتاب لرقية الملك في قصره .
- تعاويذ لالتقاء العين الشريرة .
- معرفة العود الدوري لنجمين (الشمس والقمر) .
- دليل لمعرفة الظهور الدوري للنجوم (الأخرى) .
- سجل احصائي بكل الأماكن المقدسة ومعرفة كل ما يوجد بها .
- كل الطقوس الخاصة بتجلى الآله خارج معبده أيام الأعياد ، .
- وفي معبد آخر من معابد مصر العليا وهو معبد « الطبود » تنتشر بين أنقاضه كتل وصفائح من الحجر ما زالت تحمل بقايا تشبه ما ذكرنا من سجلات ، ونجد فيها مخطوطات تتناول دخول الآله « مونثو » طيبة ، وطقوس تتصل بالشعيرة التي يسمونها « عيد حورس » وكتاب « ما على المذبح من قربان في معبد آمون » وكتاب « عيد المعبود توت في معبد «خونسو» ، والطقوس الخاصة « باحتفال النصر » ، وطقس خاص « بمولد الآله » . الخ . وقد عثر في معبد فيلة وفي معبد اسنا من العصر الروماني على مكتبات مشابهة

حيث كانت تحفظ فئ الماضي ذخائر من الادب المقدس الشائع
الاستعمال .

وكشفت أعمال التنقيب أخيرا عن كتب احدى هذه المكتبات في
مدينة « تبتونيس » الصغيرة بالفيوم . ومن بين هذه الوثائق -
فضلا على الطقوس والبحوث في الفلك والطب - عثر على عدد من
النصوص الأدبية : (روايتا ساتني وبتوباستيس بالقلم لديموطيقي)
وثلاث مجاميع لمفردات صنفت حسب المعنى ؛ وهي التي تنطوي
تحت عنوان « نبت المسميات » وبعض نسخ لكتاب في الحكم
معروف من قبل .

ميادين العلم المقدس :

اذا خطر لنا أن نحصر الميادين التي كان يمارس فيها العلم
الكهنوتي فسنبلغ ذلك عن طريق السجلات التي حفظت بطريق
الصدفة؛ فلدينا من ذلك ثبت يدعو الى الدهشة . ومن الأمور الواضحة
أن كل كاهن لم يكن بوسعه أن يشارك في كل أوجه النشاط التي
يوجد ما يشير اليها سواء لدى كتبة بيت الحياة أو في سجلات
المكتبات . فهذا يعمل في رعاية أمور التعبد وترتيبها ، وذاك لم
يهتم بأمور الفلك وحساب الزمن ، وثالث خرج عن هذا وذاك
ليشغل نفسه بتعبير الرؤى أو التخصص في عبادة الحيوانات
المقدسة . وليس هناك ما يمكن أن يكون أوضح وأدق - في تبين
العلوم والأساليب الفنية على اختلاف ألوانها ، وتوزيعها بين طوائف
رجال الدين - من ذلك الفصل الذي عرض فيه الكاتب المسيحي
«كليمانت السكندري» : موكب المعبود ازيريس حينما كان ينظم في
المدينة الهيلينستية الكبرى :

« يتقدم الموكب منشد بيده آلة موسيقية . يقولون انه لا بد
أن يكون قد حفظ كتابين لهرميس ، يحوى أحدهما التسابيح

للإلهة ، ويحوى الآخر السيرة الملكية . ويمشى وراءه العراف ممسكا بيده شعاراته ؛ الساعة وجريدة النخيل الفلكية . وعليه أن يحفظ عن ظهر قلب كتب الفلك الأربعة الخاصة بهرميس والتي يبحث أحدها فى نظام النجوم الثابتة والثانى فى حركات الشمس والقمر الدارارى الخمسة (١) والثالث فى التقاء الشمس والقمر واضاءتهما والإخير فى مطلع الأفلاك . ثم يتقدم بعد ذلك مفسر النصوص المقدسة وقد زين رأسه بالريش ، وبين يديه كتاب ولوحة صغيرة يحتفظ فيها بالمداد الأسود والقلم الذى يكتب به . ويجب على هذا الشخص أن يعرف الكتابة التى تسمى النقوش المقدسة والتى تتعلق بوصف الكون والجغرافيا ، ونظام الشمس والقمر والدارارى الخمسة ، وتخطيط أرض مصر ووصف النيل والارشادات الواجب اتباعها فيما يختص بالأدوات المقدسة والأماكن المخصصة لها والمقاييس والأوانى التى تستعمل فى ممارسة الشعائر . ويمشى وراءهم الكاهن الذى يحمل ذراع العدالة وناء لرش الماء الطهور . وهو يعرف كل ما يتعلق بتدريس ما يسمى علم سمات الحيوانات والوصايا العشر التى تتعلق بتمجيد الآلهة فى البلاد التى تنطوى على : التقوى المصرية ، طرق حرق البخور ، والقرايين ، والأناشيد والصلوات والمواكب والأعياد . . . الخ . وأخيرا يخرج كاهن وقد حمل ال « هيدريا » (٢) بادية على صدره ويتبعه حملة القرايين التى يهتفون بها . ثم هو يعرف - بصفة كونه رئيسا للمعبد - الكتب العشرة التى يطلق عليها المقدسة كما يحيط علما بما يتعلق بالقوانين والمعبودات وعلم الكهنوت كافة » (ترجمة درشان) .

(١) الدارارى الخمسة ، هى الكواكب الخمس التى تخنس فى مجراها ، ترجع وتكتنس كما تكتنس الأطباء : وهى زحل والمشتري ، والمريخ ، والزهرة . عطارد . (المترجمة)

(٢) جرة من فخار مطلية بطلاء معدنى معروفة عند الإغريق . (المترجمة)

هذا ولا شك عرض واف للعلوم الكهنوتية تتردد بعض عناصره مما نعرفه عن اثبات المعيد على حين نرى البعض الآخر جديدا يكسو الصورة التي نود ان نرسمها للعلم المقدس فيكملها ببعض اضافات جليلة. على ان هذه المعلومات غير كاملة. فهناك عدد لا يستهان به من الاشارات متفرقة من الوثائق الخاصة بعلم الآثار المصرية ، وبعض اشارات لنصوص وكتب معينة عليها من الواضح أنها كانت من ذخائر المكتبات اللاهوتية وتسمح كلها بتكوين فكرة أوسع عن المجالات التي كان يشملها علم كهنة مصر . وسوف نقوم بتجميع هذه الأفكار المبعثرة وتصنيفها حتى نستطيع عرض صورة مفصلة لأكبر حد ممكن عن المجالات الكهنوتية . ولنبدأ بالتاريخ .

التاريخ :

ما زلنا نذكر ذلك القول الجميل الذي قاله كاهن سايس الشيخ ل « صولون » : « لم يعمل شيء جميل أو كبير أو مدهش في أي مجال من المجالات سواء عندكم (= في اليونان) أو هنا أو في أي بلد آخر معروف لدينا الا وسجل كتابة منذ أمد طويل وحفظ بمعابدنا » . وبالفعل فقد دونت في المعابد - أو من أجل الأغراض الدينية - الوثائق الوحيدة التي يمكن أن تسمى محاولات في التاريخ .

لم يعرف في مصر على الإطلاق مؤرخ خليف بهذا الوصف . وتلك حقيقة قاسية ينبغي التسليم بها كما هي . فانقطاع حقب الزمان المتصلة جعل من العسير إيجاد تقدير مضبوط للوقت . فقد كان العام الذي يعتلى فيه العرش ملك ما ، يسمى العام الأول . فاذا مات سمي العام الذي يعتلى فيه العرش خلفه بالعام الأول كذلك . واذا أخذنا في الاعتبار بعض حالات اشتراك فيها

ملكان فى الحكم الى جانب مملكتين معاصرتين وفترات حكم وهبية مختلفة لأدركنا مدى استحالة وجود أى تقدير مضبوط للقرون الماضية . وقد كان يقال مثلا « فى عصر الملك خوفو » كما نحكى عن « الملك الطيب داجوبرت » فتروى عصره حادثة من الحوادث بعيدة ولكنها محشورة فى هذا الزمن بطريقة مبهمة . ومن ناحية أخرى كانت الفكرة التى لدى المصريين عن عالم خالد غير متغير ، تعوقهم عن ادراك أى ظروف سياسية أو اجتماعية . . . وقد حدثت بالفعل انقلابات اجتماعية خطيرة كالانقلاب الذى حدد نهاية الدولة القديمة . ولكن النصوص الأدبية وحدها هى التى أشارت إليه ، على حين لم يتعرض التاريخ الا لذكر الملوك الذين عاشوا - فى آن معا - خلال تلك الأزمان المضطربة دون أى مجال للتخمين بوقوع أى حدث له خطره فى ذلك الوقت . ذاك عاملان يتمثل أحدهما فى عدم دقة التواريخ ، ويتمثل الثانى فى الاهتمام الخالص بكتابة الحوليات والاثبات الملكية . هذان العاملان يمثلان الكفة الراجحة التى أثقلت ميزان التاريخ مدى ثلاثين قرنا أو يزيد وكان لابد إذن من انتظار السكاهن « مانيتون » الذى عاش فى العصر الهيلينى - ليكتب لنا أول كتاب فى التاريخ - فنُدفع ثمنه ثقيلا باهظا يتمثل فى كثير من الأخطاء المرهقة .

لم يعثر على أى أثر لكتب تاريخية فى اثبات الكتب اللاهوتية التى مر ذكرها . ومع ذلك فقد وصل إلينا بعض تلك الآثار بطريق غير مباشر . فهذا هيروودوت يروى أن الكهنة تلوا عليه من كتاب لديهم ثلاثين وثلاثمائة اسم من أسماء ملوك مصر بعد أيام « منا » كان فيهم ١٨ من الاثيوبيين وامرأة واحدة ؛ امرأة من نفس البلد على حين كان الباقون رجالا مصريين . وقد انتهت إلينا اثبات من هذا النوع ، تزين أحداها ممرا فى معبد « ابيدوس » وفيها ترى الملك « سيتى » والد « رمسيس الكبير » وهو يقدم القرابين الى كل أسلافه وهم

٧٦ ملكا تتابعوا بعد « مينا » مؤسس الوحدة المصرية . وجدير بالملاحظة أن هذه الوثيقة تعتبر سياسية أكثر منها تاريخية . « فسييتى » ينتمى الى أسرة جديدة ؛ أى أنه يعتبر الى حد ما دخيلا على العرش . فهو أراد ولا شك أن يلحق نفسه بذلك الصف الطويل من الفراعنة القدامى ملتصبا بذلك شرعية البقاء على العرش . وبين تلك الاثبات بعض ما يعتبر أكثر قربا الى طبيعة « النص التاريخى » مثل « قرطاس تورين الملكى » الذى يخص الأسرات والملوك ومدى بقائهم فى الحكم . ولدينا وثيقة من الأسرات الأولى تعرف فى كتب المؤرخين باسم « حجر بالرمو » وقد وجدت مع الأسف مهشمة ، ولكن أمكن أن يستخلص من محتوياتها بعض الأحداث الهامة التى مرت بها مصر خلال أزمنة الحكم المختلفة مثل فيضان النهر وتوارينج تتويج الملوك وتوارينج وفاتهم ، والرحلات النهريّة ومشروعات التجارة وبعض أعمال الحرب . وكانت الحوليات اللاهوتية تضيف الى تلك الاشارات الرسمية بعض الملاحظات الفلكية والعجائب .

ومن أقوال هيرودوت : « وهكذا انقضت ١١٣٤٠ سنة يؤكد الى الكهنة أنه لم يقع خلالها أن ظهر اله فى شكل بشرى . ويقولون على العكس من ذلك : ان الشمس خلال هذا المدى قد أشرقت ٤ مرات من موضع من السماء لم يكن موضع شروقها المعروف وأنها أشرقت مرتين من المكان الذى تغرب فيه وغربت مرتين فى المكان الذى تشرق منه . ومع ذلك فحسالة مصر لم تتأثر بذلك فى شئ ولم يظهر أى تغيير سواء فى خصوبة الأرض أو فى عطاء النيل . ولم تقع زيادة فى الإربئة أو فى الوفيات ، » .

وليس ينبغى لنا أن نغفل ما يتصل بـماضى الكهان الطويل من معارفهم الخاصة ، وأن كانت تنقصها الدقة الزمنية والمشاهدات التاريخية الحقة فى بعض الأحيان . ولم يكن بالعبير على الكهنة

العثور على كثير من تقاليد بعض الملوك أو كثير من آثار بلادهم . وكتب الرحالة الاغريق حافلة بتلك الروايات التى تتصل بالأسماء الكبيرة فى التاريخ من أمثال « سنوسرت » و « مويريس » و « رمبسنيت » و « نيتوكريس » . . . وحب استطلاعهم ظل واعيا متصلا ازاء الأحداث الخارجية التى تتصل بمصر واذا صدقنا محرب طروادة مثلا لم تكن مجهولة لديهم اذا نحن صدقنا رواية هيردوت . وقد رأينا كيف أنهم كانوا يحرصون فى محفوظاتهم على الاشارة الى مرور العلماء والفلاسفة الاغريق الذين كانوا يأتون لزيارة معابدهم . وقد كانت معرفتهم بالكتابة الهيروغليفية تمكنهم من النظر فيها ما وجدوها فى مختلف المباني التى كانت نزدحمت بها بلادهم فيستقرئون منها أحداث الماضى تماما كما نفعل نحن الآن فى محاولة معرفة تاريخهم ، نعم كانوا يفعلون ذلك وان نقصتهم الدقة فى كثير من الأحيان . ولنذكر بهذه المناسبة ذلك الكاهن الطبيعى العجوز الذى كان يقود « جرمانيكوس » وحاشيته بين أطلال العاصمة القديمة (انظر Tacite, Annales II, 60) على المباني الشاهقة كانت لا تزال هناك حروف مصرية تحكى عن جلالها القديم وعندما طلب من أحد الكهنة المسنين ترجمة لفظة بلاده شرح لجرمانيكوس أن المدينة كان يسكنها فى قديم الزمان ٧٠٠ ألف نسمة فى سن الجندية . وان الملك « رمسيس » بدأ فاستولى بهذا الجيش على ليبيا وأثيوبيا وعلى بلاد الميديين والفارسيين ، وعلى بلاد باكتريان (١) وسيتيا (٢) وعلى كل الأراضى التى يشغلها السوريون والأرمن

(١) تقع منطقة بكتريان الآن فى غربى آسيا بين بلاد الفرس وتركستان .

(المترجمة)

(٢) تقع بلاد سيتيا فى شمال أوروبا وشمال غرب آسيا . (المترجمة)

وجيرانهم الكبادوسيون (١) ، ثم بعد ذلك جعل تحت سلطانه ما يمتد من بحر بيتينيا (٢) الى بحر ليسيا (٣) . كما كان يقرأ الجزية التى فرضت على هذه البلاد وموازين الفضة والذهب وعدد الأسلحة والخيول والقرابين للمعابد ، والعاج والطور وكميات القمح والمؤن التى يجب على كل دولة أن تقدمها ؛ وهى جزية لا تقل فى روعتها ولا فى قدرها عن تلك التى تفرضها اليوم قوة بارثيا أو روما » .

أما عن رواية الاطلنطيد التى رواها أحد كهنة « سايس » لصولون ؛ فمن السهل العثور فيها على عناصر مصرية صميعة تدعو للتساؤل عن مصادرها الممكنة . ومما لا شك فيه أننا ننتهى — كما اقترح « سيانوت » حديثا — الى أن رواية الاطلنطيد هى إعادة تفسير مصرية لحقائق تاريخية قديمة : اننا ولا شك نتذكر الهجوم الهائل الذى شنته « شعوب جاءت من جزر فى البحر على ليبيا ومصر » خلال القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م والصعوبات التى لقيها « مرنپتاح » ثم « رمسيس الثالث » فى ردها فى وادى النيل . ففي مدينة هابو نقوش تملأ بعض صفحات جدرانها ، تصف مراحل هذه المعركة الهائلة . وكانت هناك قصائد أذيعت فى طول البلاد وعرضها تمجد انتصار رمسيس وبقيت ذكرى كل ذلك نحوا من ألف عام ، فنحن نجد فى معبد ادفو اشارات لهذه الشعوب البعيدة . ولن يكون عجيبا بعد ذلك ان نرى من كهان « سايس » من يعرف احدى روايات هذا الحدث الضخم . وذلك

(١) تقع منطقة كبادوسيا شرقى تركيا وسهول آسيا الصغرى .

(المترجمة)

(٢) بيتينيا منطقة جبلية تقع على حافة البحر الأسود فى آسيا الصغرى وبحر مرمرة .

(المترجمة)

(٣) تقع ليسيا فى جنوب آسيا الصغرى على بحر ايجا .

(المترجمة)

بالإضافة الى قصة الجزيرة التى تختفى تحت الأمواج : كانت معروفة منذ الدولة الوسطى فى الرواية المصرية « البحار المرتطم » ، وهكذا استطاع كاهن سايس أد يمثل المؤرخ وهو يحكى لجرمانيكوس احدى حوادث الماضى الجلييلة التى تخص بلده وليس ببعيد أن يكون قد قرأها على احد جدران المعبد أو عثر عليها فى قرطاس قديم .

ويجب أن نقرر فى ختام القول أن التاريخ لم يكن علما يهتم الكهان أن يمارسوه . فلم تكن واجباتهم الدينية تقتضيهم معرفة دقيقة بأحداث الماضى . ومع أنهم لم يضطلعوا بأبحاث هامة فى هذا المجال ؛ إلا أنهم كانوا يستطيعون - أكثر من غيرهم فى مصر - أن يحيوا بعض ماضيهم البعيد وأن يمثلوا بعض صوره للمشغوفين من السائلين . وكان مما يساعدهم على ذلك معرفتهم الكتابات الهيراطيقية والهيروغليفية ، ودرايتهم بالنصوص القديمة واطلاعهم على الاثبات الخاصة باسماء الملوك المنقوشة كلها أو بعضها فى معابدهم . وأخيرا شغفهم بالاماح الى ما يظنون أنه قد ييسر عليهم يوما ما التكهّن بأمور المستقبل أو ضبط ادراكهم للظواهر الطبيعية .

الجغرافيا :

وعلى العكس حظت الجغرافيا لديهم بمكانة خاصة . ألم يكن على مفسر النصوص منهم معرفة « تركيب الكون والجغرافيا ... » لم طوبوغرافية مصر ووصف النيل ؟ ولم تكن هذه من الثقافة القاصرة على الأوساط الكهنوتية ، فلدينا من الوثائق ما يبين الأهمية الكبرى التى كان يعلقها الكتبة والاداريون على المعرفة العملية لبلادهم . فالخرائط (مثل تلك الخاصة بمنطقة المناجم بوادى فواخير بين النيل والبحر الأحمر ، أو تلك التى تحدد منطقة الجبلين ولو أنها للأسف فى حالة سيئة) . وهناك ثبت بأسماء

المدن مبيّنة من الجنوب الى الشمال ومسارد للأملاك الكهنونية (بقرطاس هاريس) ، أو مساحة الأملاك العامة (قرطاس ويلبور) ، كل أولئك يشهد على معلومات قيمة . ونحن نعرف كذلك أن مستويات الفيضان كانت تحدد بعلامات يؤشر بها في أماكن مختلفة : « حين كان ماء النيل يرتفع أربعة عشر ذراعا كان معنى ذلك أن الفيضان قد بلغ مداه . وكان القوم يأملون الوصول الى أوفر محصول . وعلى العكس كان الجلب واقعا لامحالة حين لا يبلغ ارتفاع الفيض أكثر من ثماني أذرع » (سترابو) . ومن أجل هذا وضعت مقاييس للنيل في أماكن محددة على شاطئ النهر يمكن بواسطتها تحديد ارتفاع منسوب المياه في تاريخ معين . ورصيف المدخل الى معبد الكرنك مغطى بتلك النقوش التي تبين مستويات الفيضان في سنة ما من زمن ملك ما . وأخيرا كان المدى - كما تقدر المسافات والمساحات من مقاطعة الى أخرى - يضم بعضها الى بعض . والمزار الأبيض المعروف بمعبد الكرنك من زمان سنوسرت الأول يشمل قائمة مقاييس من هذا النوع .

والى جانب هذه الجغرافيا العملية التي كان الكهنة يقدرونها، وحسبهم من ذلك أن مناسيب مياه النيل ومساحة البلاد وإبعادها قد كانت مسجلة على مبان دينية ، نفول الى جانب ذلك كانت توجد لمصر جغرافيا دينية ، وكان الكهنة يهتمون بها أكثر من غيرها . فمعرفة المدن والمسافات ومساحات الأرض السوداء الصالحة للزراعة شيء جميل ؛ ولكن أجمل من ذلك وأعظم قد كان معرفة توزيع الالهة في البلاد ومراكز الأماكن المقدسة ومراكز الحج وأماكن رفات أوزيريس . ولدينا من ذلك اثبات بالأماكن المقدسة وسجلات بطقوس العبادة الخاصة بأوزيريس ؛ ومن ذلك (قرطاس اللوفر رقم ٣٠٧٩) وأخرى متصلة بعبادات الهات متساوية كتلك التي كشفت لنا عنها أورد طيبة ثم توليف سائر ألوان العبادات الخاصة في

أنحاء البلاد (انظر معبد ادفو) وسجلات لآثار أوزيريس المقدسة
(رفاة) وكان - كما جاء فى الأساطير - قد تمزق جسده ووريت
أعضاؤه فى أنحاء متفرقة من البلاد .

وقد كان هناك ما هو أهم من ذلك بكثير . فإذا كان من
المعروف أن أرباب مصر قد تعددت فان أكثرها لم يحظ بصفة
عالمية . يشسير الى ذلك ما يقضى أسفل جدران المعابد من صور
تمثل مواكب حملة القرايين ؛ يأتون من كل أقاليم الوادى فيقدمون
ولاءهم ممثلا فيما يصنعون فى ساحته من ألوان الخراج . وفى
زمان الدولة القديمة نجد مثل هذه الصور تغمر جدران مصاطب
السراة . ويتمثل ذلك فى صور الضياع التى أوقفت محاصيلها
على الوفا . بحاجة الخدمة الجنائزية الملكية . وعلى صفحات أبنيصة
المعابد من ذلك العهد نرى فى بعض الأحيان تمثيلا لهذه الظاهرة
(ظاهرة الولاء) فى صور للنيل على هيئة آدمى (١) يحمل على
رأسه رمز الأقليم وعلى يديه بعض ما ينتج الأقليم من غلات وثمار
وهناك صور تمثل الحقول فى هيئة أناث يحملن غلاتها . ولم تلبث
تلك المناظر حتى أضحت صورة رمزية تمثل ولاء مصر كلها وهى
تقدم ما ينبغى عليها من خراج ، تفعل ذلك فى تلك الصور التى
تتقدم فيها الأقاليم بصفقتها الادارية أو الدينية ممثلة فى هيئة
النيل سالفة الذكر ، وكانت صور الهدايا أو الخراج انما تمثل
طبيعة المكان التى ترد منه ، فمنها ما هو صناعى ومنها ما هو زراعى
ومنها ما يعيش اهله على التجارة بمارسونها بدلا مع البلاد المجاورة
ومنها المناطق التى تمارس العمل فى المناجم . ومن ذلك نرى فى
تلك الصور حقيقة من حقائق الحياة المصرية .

(١) صورة آدمى لاهو بالذكر الخالص ولا هو بالأنثى الخالصة ولكنه شئ .

بي بي .

وكثيرا ما كان يغلب اللون الدينى الصرف على تلك البيانات، فلا نرى فيها سوى أسماء الأماكن أو المعبودات التى تعبد فى عواصمها • وسرعان ما كانت تقول تلك البيانات الى موضوعات جغرافية دينية • ولعل أشهر تلك البيانات أن يكون ما صور فى قدس معبد ادفو ؛ فهى انما تقدم لنا فهرسا واضحا للأقاليم على نحو يرضى ويفيد • مثال ذلك :

- اسم الاقليم ، اسم عاصمته ، بيانا بمخلفاته •
- الاله والالهة اللذان يعبدان فيه ومكان عبادتهما •
- اسم الكاهن الرسمى واسم الكاهنة العازفة •
- اسم الزورق المقدس واسم القناة التى يجرى عليها •
- اسم الشجرة المقدسة التى تنمو على التل الطاهر •
- تاريخ الأعياد الرئيسية •
- المحرمات الدينية (فعل كذا أو كذا أو أكل شئ معين) •
- اسم الجزء من النيل الذى يشق الاقليم مصورا كحية تنثعب •
- اسم أراضى الفلاحة (البلاد الزراعية) •
- اسم الحدود (بلادا كانت أو مستنقعات) •

ان هذا السجل - الذى يردد أسماء الاقاليم المصرية الاثنتين والاربعين ، والذى تؤيده السجلات المماثلة للأقاليم الزراعية والمستنقعات ، - يتيح معرفة كافية لجغرافية البلاد الرئيسية كما يفهمها الكهنة •

ولكن هذه القوائم كما نبدو لنا بكل هذه التفاصيل وكل هذا التنسيق ليست سوى ملخصات • والمجموعات ضخمة مختلفة يؤسفنا ألا نعلم عنها كثيرا • وبين مختلف الآثار ما يدعونا الى

الاعتقاد بوجود بيان فى كل اقليم على الاقل باحصاء مفصل بكل أماكن العبادة والمعابد وأسماء الأماكن ، ولكل الادوات المقدسة لهذه الأماكن ، والاساطير المتصلة بكل نواحي الاقليم تم الاعياد وغللات الاراضى المختلفة . وقد وصلت اليها وثيقة من هذا النوع فى القرطاس المعروف باسم قرطاس جوميلاك من متحف اللوفر فيها عرض مفصل للجغرافيا الدينية والاساطير المتصلة بحياة الاقليم الثامن عشر من أقاليم مصر العليا . وليس من شك فى أن جرائد الأسماء المقدسة المنقوشة فى أحد المخابىء الموجودة تحت بناء معبد دندرة قد استمدت من كتاب مشابه كان مخصصا لاقليم دندرة . وفى نقش على بقية من أثر حجرى عثر عليه فى مصر السفلى ، بعض بيانات عن محاصيل الاقليم الثالث من أقاليم الدلتا . وعلى قرطاس من آثار تانيس عرض لبيانات جغرافية موضحة بنفس الطريقة . وكل ذلك فضلا عن ان قدسا بمعبد هيبيس يحتوى على آثار مكممة لآلهة البلاد مصنفة حسب الاقسام الجغرافية .

وانا لنذكر أخيرا أن كل شئ يشير الى أن « لوحة المجاعة » التى سبق أن تحدثنا عن بعض أجزائها تمثل فصولا من الكتاب المخصص للجغرافيا الدينية لاقليم الفيلة وانا لنذكر بعض أجزاء منها :

« والتماسا للخلاص من المجاعة التى امتحنت بها البلاد سبع سنوات أرسل الملك كاهنا يسترشد بمحفوظات الاشمونين . فقدم اليه الكاهن بعد عودته تقريراً مفصلاً لكل ما تمكن من معرفته فى منطقة الشلال . حيث وجدت بيانات عن الاشياء الآتية :- وصف الفيلة وتعداد لأسمائها الأسطورية ، النيل والفيضان ، الاله «خنوم» صفاته وألقابه ، المنطقة المجاورة ، جبال مفتوحة للمحاجر ، بيان بالآلهة الموجودة بمعبد خنوم ، أسماء الاحجار التى يمكن العثور عليها فى المنطقة » . يقع كل ذلك كما لو كان الكاهن الرسول قد

عثر فى مكتبة الاششومونين على مؤلف كامل عن الاقليم الاول من أقاليم مصر العليا ، فاستخلص منه ما استخلص فى سهولة ويسر . وعلى هذا ولنا أن نطن - بناء على م ذكرنا - أنه لم يكن لكل اقليم سجل تفصيلي لجغرافيته الاسطورية ومحصلاته المختلفة وحسب ، بل له فوق ذلك مجموعة خاصة كاملة من تلك المؤلفات فى أشهر المكتبات وهى مكتبة الاششومونين . ومنذ انشاء مثل هذه المحفوظات ، اتقنت القوائم الجغرافية التى كانت تزين جدران المعابد الكبيرة . ومن المؤكد أن معرفة الكهان بالبلاد الأجنبية عن مصر كانت أقل تفصيلا وأقل دقة . فالنصوص المقدسة كثيرا ما كانت تستعمل أسماء شعوب تقليدية . فتعين مثلا تحت اسم «الاقواس التسعة» المناطق المعروفة فى دين المصريين بدون أن تحاول معرفة ما اذا كانت الشعوب المشار اليها هنا ما زالت قائمة بنفس الاسم المستعمل وفى نفس المكان المعين كما كان الحال فى العهود البعيدة التى أعدت فيها تلك القوائم .

ومن ذلك نقع فى معبد ادفو الذى يرجع عهده الى القرن الأول ق.م . على أسماء شعوب عاشت فى زمان رمسيس الثالث أى قبل ذلك بالف عام . حسبنا لنحس اثر ذلك ان تصور قسيسا من أهل القرن العشرين ينصح مريديه فيدعوهم الى الاحتراس من شعوب الهون(١) وشعوب جرمانيا وشعوب القوطيين الشماليين !! والى جانب هذا التناقض الذى اقتضاه حرص الشديد على التقاليد نجد لدينا من الوثائق ما يبين أن فى أوساط اللاهوتيين من كانوا على معرفة جغرافية بجيرانهم جديرة بالتقدير . فقوائم البلاد والمدن التى هزمها امنحتب الثالث ورمسيس الثانى وششنق الاول فى

(١) شعوب الهون بربرية جاء من وسط آسيا وخرت تحت قيادة « اتلا » أوروبا فى القرن الخامس . (المترجمة)

آسيا وبلاد النوبة تغطى جدراننا كاملة من أبنية معابد الكرنك والاقصر العظيمة ، كما أنها مبنية بطريقة طريفة على قواعد التماثيل الملكية الهائلة التى كانت تزين مداخل المعابد . ويجب ألا ننسى أنه من المرجح أن المرشد الطبيعى العجوز قد قام بترجمة إحدى تلك القوائم لجرمانيكوس . وبنفس الأسلوب الذى يجرى به تصوير مواكب الاقاليم المتجهة من أقصى المعبد الى مدخل قدس الاقداس كان يجرى تصوير أقاليم مبنية ببلاد أفريقيا وآسيا التى تجلب منها كرائم الاحجار ونفائس المعادن التى تزرع بها خزائن الاله . وقد احتفظت معابد ادفو ودندرة بصفة خاصة بقوائم طريفة من هذا النوع .

ولدينا أخيرا من النصوص المنفرة المثيرة كثرة وفيرة تزيد فى ثروة معارفنا ؛ فنحن نعرف أن المصريين كانوا ينقشون على الاواني وتماثيل الاسرى أسماء الشيوخ الاسيويين والامراء النوبيين الذين كانوا يعتبرونهم من الخطرين على بلادهم . وقد كانوا يعمدون الى هذه الاواني والدمى فيهبشمونها ، أو يجرون عليها من أعمال السحر ما يتوهمون أن تودى بأولئك الأعداء الى الفناء ، أو تردهم عن مصر على الأقل . وهكذا كانت تلك الاثباتات التى ترجع عهودها الى زمان الدولة الوسطى تشهد بمعرفة المصريين الواسعة بالجغرافيا وبأسماء الاعلام الآسيوية والنوبية فى آن معا .

واذا كما لم نعتز حتى الآن على التماثيل السحرية الصغيرة - المشار اليها فى المعابد - فائنا نعرف من النصوص ومن المناظر المنقوشة أن الكهنة قد كانوا يحفظون بتماثيل من هذا النوع فى مبانيهم المقدسة ، وانهم كانوا يجرون عليها بعض طقوس سحرية . وحسبنا من ذلك أن نقع فى نقش بمكتبة معبد ادفو على صورة تمثل كاهنا ممسكا بعضى قد التفت حولها مجموعة من مثل هذه التماثيل الصغيرة . واذا لم يكن من الثابت أن ما لدينا من تلك التماثيل قد

صنعت فى المعابد فحسبنا أن نعرف على الاقل أن الكهنة كانوا يستعملون تماثيل صغيرة مماثلة . وليس من المستبعد إذن أن تكون المعلومات الجغرافية التى وردت فى النصوص السحرية قد جعلها رجال الكهنوت قسمة شائعة لقضاء أغراض شتى .

الفلك :

إذا كنا قد استطعنا أن نرسم بيانا واضحا لما كان لرجال الكهنوت من معرفة فى مجال المعلومات التاريخية والجغرافية ، فإنه لن يتيسر لنا أن نعرف فى دقة مقدار ما كان لهم من معارف فى مجال الفلك والهندسة ؛ فهذان النظامان يخرجان قليلا عن الاطار المعتاد للعلوم الانسانية ولا يمكن أن يعالجا بأسلوب مناسب الا بين أيدي متخصصين يستطيع صاحب الدراسات المصرية القديمة أن يطمئن الى رأيهم ، وأن يتقبله عن رضا وعرفان بالجميل . والمتخصصون - مع الاسف - يختلفون فى الرأى . بحيث يصبح من العسير أن نأخذ برأى أحدهم . ونحب أن نقول فى نهاية الامر : ان تلك الآراء البعيدة عن الصواب ، فى شأن علوم الفلك فى مصر ومعارف الكهان عن علوم الهندسة ، كانت ولا تزال تكتب بأيدي طائفة من الذين تخصصوا فى تبسيط الأمور ، وكان لهم جمهور من القراء سطحي الادراك . نعم كانت تظهر على أيدي من ذكرنا أكثر مما كانت تظهر على أيدي طبقات العلماء الذين اقتضاهم حرصهم الشديد فيما يبدون وفيما يرون التحفظ الشديد حين تضطرهم بحسوثهم العلمية أن يمسوا هذين العلمين .

والواقع أن شواهد الامور كافة تبين أن المصريين قد وصلوا فى بعض المجالات الفلكية الى نتائج ملحوظة . ألسنا الى اليوم - فيما عدا بعض تفصيلات بسيطة جدا - نستخدم نفس التقويم الذى ابتدعوه فجعل السنة كما جعلوها اننى عشر شهرا ونجعل

ساعات اليوم أربعاً وعشرين ؟ وناحية أخرى ينبغي أن نذكرها وهي إعجاب الرحالة الاغريق واجماعهم على هذا الإعجاب بما رأوا من مظاهر المعارف المصرية فى هذا المجال بالإضافة الى العدد الذى لا يستهان به من الوثائق الفلكية التى عثر عليها فى مصر ، كل أولئك من شأنه أن يبين الاهتمام الذى أبداه المصريون القدماء بأمور السماء وعالمها واتساع الأبحاث التى أفردوها لذلك . ترى ما الذى نستطيع ان نقوله فى شىء من الدقة عن معلوماتهم الفلكية ؟ وأى قيمة ينبغى لنا اعطاؤها للنتائج التى استطاعوا الوصول اليها ؟

ينبغي أن نعرف - ان نحن صدقنا « كليمانت السكندري » - ان الكاهن الموكل بمراقبة التوقيب قد كان عليه أن يعرف ما باسفار أربعة وضعت فى نظام النجوم الثابتة وحركات القمر والدرارى الخمسة والتقاء الشمس والقمر واضاءتها ، وبمطلع الافلاك . ولم يقف الامر عند هذا الحد فقد كان هناك كاهن آخر يتعمق فهم ما فى هذه الاسفار الأربعة تعمقا وافيا . تلك أدلة تؤكدها - ولو جزئيا - القوائم المصرية فى كتب اللاهوتيين التى تتضمن « معرفة الرجوع الدورى للشمس والقمر » و « معرفة الرجوع الدورى للكواكب » .

ولقد ميز المصريون فى السماء غير الشمس والقمر كواكب لا تعرف الفتور ، منها ما نسميه عطارد والزهرة (« نجمة المساء ونجمة الصباح ») ثم المريخ (« الحورس الاحمر ») والمشتري (« النجم الثاقب ») وأخيرا زحل (« حورس الثور ») . وهم قد جعلوا هذه النجوم فى بروج (تختلف عن بروجنا التى استمدت من البابليين) ومن العسير معرفتها ، وان كان قد أمكن التعرف على الدب الأكبر (فخذ الثور) والبجعة (فى صورة الرجل ذى الذراعين المفتوحتين) والجوزاء (فى صورة رجل يعدو وهو ينظر من فوق منكبيه)

والكاسيوبيا(١) (فى صورة آدمى ممدود الذراعين) والحوت والثريا والعقرب والحمل . وكان النجم الابرق وهو المعروف عند العرب باسم الشعرى اليمانية ذا دور كبير فى حساب الزمن لديهم ؛ فقد كان شروقه الشمسى محددًا للسنة الحقيقية ، (= بمدى يبلغ من الايام ٣٦٥ يوما وربع يوم) . وقد صورت هذه البروج بأشكالها المألوفة فى سقوف بعض القبور وحيث كانت قبورها تزين عادة بأشكال النجوم المألوفة فى الدوائر الفلكية التى ألفوها لدى الاغريق فى أواخر عصور حضارتهم . وقد كان فى معبد دندرة(٢) مثلا احدى هذه الدوائر الفلكية التى تصور السماء تموج بصور البروج المصرية فى أشكالها التقليدية وكواكبها السيارة وما يليها من العلامات التى استمدت وأضيفت للأسلوب النيلي - بصور البروج الاثنى عشر نم مناطق البروج الست والثلاثين .

وكانت هذه المناطق الفلكية - على العكس من رموز منطقة البروج المستمدة من اليونان - معروفة فى مصر منذ زمن بعيد جدا وهى التى قسمت منطقة السماء المجاورة لسمت الشمس الى ستة وثلاثين قسما على كل منها حارس من الأرواح يرعاها ، كل يهيمن على عشرة أيام من أيام السنة المصرية . فلقد كان يقع كل عشرة أيام شروق كوكبة فلكية جديدة يلحظ عند مرورها بسمت الشمس ، وقد مكن نظام هذا الشروق ومراقبة وقت ظهوره أثناء الليل من وضع جدول يبين مواعيد شروق تلك الكوكبات وتحديد . وكان مدى صلاحية استخدام هذه الجداول يمتد خمسة عشر يوما . واليها يرجع الفضل فى تمكين القابع فى شرفة المعبد لمراقبة سير

(١) نجمة الكاسيوبيا كانت امرأة تحولت تبعا للأساطير الاغريقية الى نجمة بعد مماتها . (المترجمة)

(٢) نقلت الدائرة الأصلية الى فرنسا أيام الحملة الفرنسية واستقرت فى متحف اللوفر ووضعت مكانها صورة لها . (المترجمة)

النجوم وتحركاتها من حسابان ما بقى من ساعات الليل كلما مر فى محور النظر هذا النجم أو ذاك .

ويستطيع من يتأمل ، ما رسم المصريون من صور السماء فى سقوف بعض مقابر الملوك أن يتخيل أن ذلك العمل قد كان يقتضى وجود شخصين يتخذان مجلسهما على طرفى محور يمتد من الشمال الى الجنوب؛ فيقبع أحدهما متربعا كما نرى فى هيئة بعض التماثيل، ليكون مجلسه من زميله - الذى يقوم بتسجيل مرور النجوم - بمثابة الشاخص الذى يستخدمه رجال الهندسة المساحية فى تسجيل أعمالهم . وهكذا كانت الساعات فى اليوم السادس عشر من شهر «هاتور» تحدد كالاتى : «عندما تكون النجمة «سار» فوق العين اليمنى (للرجل الذى يجلس مكان الشاخص) تكون الساعة قد بلغت الخامسة . وعندما تكون ذراع الجوزاء فوق الوسط تكون الساعة قد بلغت السادسة . وعندما يكون موقع الجوزاء فوق ناظر العين اليسرى تكون الساعة قد بلغت السابعة . وعندما تكون الشعرى فوق رأى العين اليسرى تكون الثامنة . . . وهلم جرا » . ومن السهل أن ندرك بطبيعة الحال أن مثل هذا الفن لتحديد الوقت قد كان من شأنه أن يؤدى الى عدم الدقة بشكل ملحوظ . إلا أنه لم يكن فى الاستطاعة الاهتداء الى أسلوب آلى لتحديد الوقت ؛ وآية ذلك فى الواقع أن الساعة لم تكن لدى المصريين جزءا من أربع وعشرين جزءا من اليوم الفلكى المألوف ، بل كانت جزءا من اثنى عشر جزءا من المدى الفعلى للنهار ومنه من مدى الليل . ويمكن بتعبير آخر أن نقول ان مدى الساعة قد كان يختلف من يوم ليوم ، ويختلف بعد ذلك تبعا لخطوط العرض الجغرافية . ومن هنا كانت قراءة الوقت فى كل من المزولة والساعة المائية تختلف باختلاف طول السنة وأوقاتها . ولقد عثر كذلك على جداول لتحديد مدى النهار ومدى الليل خلال اوقات السنة المختلفة واستعملت احداها فى

معبد «تانيس» • ولم يكن فحص تقاويمها مستحيلا ولكنها وجدت مليئة بأخطاء جسيمة •

ولقد كان للكهنة بالسما معرفة تطبيقية أتاحت لهم فى سهولة ويسر تحديد ساعات الاحفال المرسومة وتقسيم مراحل العبادة المختلفة بطريقة حاسمة ! كما كان لتلك المعرفة دورها الهام فى تحديد الجهات الأصلية الأربع التى نظموا بها توجيه عمائر دورهم ومنشآتهم الدينية • فلقد كان أساس البناء فى أى معبد يخطط وينفذ بعد الاسترشاد بمراقبة السماء •

كذلك عرف الكهان المصريون ظاهرة الخسوف وهى التقاء الشمس بالقمر • وقد جاء فى الخبر كيف أرب الخسوف جنود الاسكندر وهم يحاربون الفرس من جنود «داريوس» ، وكيف استدعى أحد الكهان المصريين ليذهب عن قلوبهم الرعب (انظر (Curtius Rufus, Hist. d'Alexandre, IV, 10)

ثم انا نعرف بعد ذلك من بعض وثائق محدودة العدد، أن التنجيم وهو الاعتقاد فى تأثير مواقع النجوم على نفوس البشر وصلة ذلك بمصائرهم قد كان معروفا وقد ذاع هذا الاعتقاد ولقى كثيرا من الرواج فى أوساط المصريين وأن كانت ظواهر الأمور تدل على أن هذا الموضوع دخیل على مصر وغير أصيل فى تفكير أهلها ، وأنه ربما يكون قد جاءهم من آسيا فى ركاب الغزو الفارسى • وقد يؤيد هذا الظن ما تردد فى أسلوب تلك الوثائق من شذوذ غير معهود فى اللغة المصرية • فأما المذنبات من النجوم والتى كان يعتبر ظهورها من نذر الشؤم ، فيبدو أن معرفة المصريين بها لم تكن كافية (انظر (Sénèque, Questions naturelles, III, 2).

وليس بين أيدينا من النصوص ما يشير الى ذكرها سوى واحد من عصر تحوتمس الثالث ، يذكر بمرور واحد من تلك المذنبات يحتمل أن يكون ما أسموه « هالى » •

الهندسة والعمارة :

قد يكون من أكثر الامور عسرا أن نحدد في دقة ما كان لكهان مصر من معرفة بالهندسة . واذا كانت التقاليد منذ القدم قد أطنبت في الأعجاب بمهارة الكهان المصريين في الهندسة وكفايتهم في المعرفة ، فانفسا لم نعثر حتى الآن على كتاب أو أى وثيقة مصرية نستعرض فيها عناصر الهندسة التي كانوا يعرفونها . وليس في العدد القليل للقراطيس التي بين أيدينا - والتي سماها العلماء المحدثون « البرديات الرياضية » - غير ارشادات الى طرق الوصول الى حل بعض المسائل الحسابية أو الهندسية البسيطة ؛ وتلك أمور لا ترقى الى مستوى القواعد . وسائر الامثلة التي تعالجها تلك القراطيس الرياضية تكتنفها الحلول الاجتهادية أو التقريبية . وفي كل أولئك ما يدعو الى الظن - ان نحن أخذنا بما جاء في الوثائق المشار اليها - أن معلوماتهم الحسابية والهندسية لم تبلغ غير محاولات وأساليب غير كاملة النضج ، وكان الامر فيها يبلغ منتهاه عند المسائل العملية التي تواجه الكاتب أو المهندس . ويبدو كذلك أن الهندسة النظرية لم تكن لديهم بذات موضوع . والى القارئ من المسائل العويصة ثلاثا يضعها أحد الكتاب لزميل له ويطلب اليه حلها :

- كم لبنة تلزم لبناء جدار معينة مقاييسه ؟

- كم رجل يكفى لنقل مسلة بمقاييس معينة ؟

- كم رجل يلزم لتفريغ الرمل من مخزن غلال خلال وقت محدود ؟

كل أولئك لا يقتضى حله سوى حسابات بسيطة أو مجرد معلومات مستمدة من تجارب عملية سابقة ، فنقل المسلات كان أمرا شائعا في الدولة الحديثة كما أن طوائف العمال قد كان لديها

الوقت الكافى لتكوين نفسها بطريقة سليمة . ولقد كانت التمانيل
وكتل الأحجار الثقيلة يتم نقلها بسواعد الرجال ، كما كان لدى
الكتبة مخططات عملية للإرشاد يمكن بواسطتها تحديد الايدي
العاملة اللازمة لنقل الاشياء بعد ضبط مقاييسها ومعرفة أنقالها .

وهكذا خيب المصادر الادبية آمالنا فى الوصول الى معرفة
ما التمسنا فيها . ترى كيف الحال اذا ما نحن انصرفنا عنها الى
الآثار ؟

يشعرنا النظر الدقيق الى العمائر المشيدة كالأهرام ومباني
الصعيد الكبرى بالاطمئنان الى ما فى بنائها وتقاسيمها المعمارية
الواضحة من ضبط مقاييسها وتحديد نسبها تحديدا دقيقا ، وانها
لنسب تبدو بسيطة فى عناصرها عند النظر فيها ، وليس هناك
ما يشير الى الالغاز أو التعمية ما يمكن أن يجعلها من الاسرار ، كما
يجب بعض الكتاب أن يؤكدوا . وتضمنت معارف الكهنة - كما جاء
فى مكتبة معبد ادفو - أسلوبا لزخرفة الجدران . ويتضح لنا من
مشروعات أبنية المعابد التى عثرنا عليها أن أسلوب الزخرفة لم يكن
صارما ولا ثابتا ولا حتميا . فليس هناك معبدان متطابقان مطابقة
تامة ، ولا مجموعتان من رسوم المناظر وصورها تجريان من جدار
الى جدار يقابله دون تغيير أو تحوير . وعكس ذلك واضح فى نظام
القاعات ؛ اذ هناك مبدأ عام ، ونظام ثابت فيما يختص بترتيب
القاعات وزخرفتها . وأكبر الظن أن ما تضمنته الوثيقة المشار اليها
لم يعد قواعد عامة . ومن الجائز أن تعتبر الترتيبات والنظم خاصة
بمعبد معين ومتضمنة اسم قاعاته ومقاييسه والمبادئ الخاصة
بأسسه وتفصيل المناظر المنقوشة صورها به . وقد يكون من الجائز
أن نصا من نصوص پتوزيريس يوحى بذلك وان كان معناه - مع
الاسف - غير مؤكد (انظر النص رقم ٨١ - ٧٠ - ٥٩) .

ومهما يكن من أمر فأكبر الظن أنه كان بكل معبد مشروع بنائه وزخرفته مفصلا على قرطاس أو قرطاسين من البردى ومحفوظ بخزانة أو كوة فى الجدار ، على أننا لم نجد - مع الأسف - ما يطابق تلك الوثائق حتى الآن .

أما من حيث النسب المتعلقة بالعناصر المعمارية ، فهى أبعد ما تكون عن الثبات . على أنه من الممكن العثور بطائفة من رسوم تنظيمية قد يكشف عنها الرفع المعماري للواجهات أو الرسوم التخطيطية للعمائر المقدسة ، وهى فى الغالب الأعم غاية فى البساطة . وليس لها أسلوب معين . وقد عثر على ما يثبت وجود تناسب بين ارتفاع العمود وقطره مهما اختلف أسلوبه المعماري .

تلك حقائق يقتضيها تقليد فني معماري أكثر مما تقتضيها الرغبة فى تحديد النسب الدقيقة بين الأقيسة فى المشروع التخطيطي للمعبد . ترى هل يعنى ذلك استبعاد خضوع تخطيط تلك العمارات المقدسة لنظرية هندسية ، وإن دراسة الآثار الدينية لا يمكن أن تظهرنا على شيء سوى مجرد كتل من الأحجار ركب بعضها فوق بعض ؟ كلا . فبالرغم من أن الأدوات التى كانت فى متناول رجال المعمار كانت أولية (ميزان خيط ومنلت ٠٠) فقد كان مستوى البناء يثير الإعجاب أحيانا . إذ كان المهندسون يحصلون على الخط المستقيم فى أساس مبانيهم بحفر خندق الأساس حتى مستوى مياه الرشح أو عن طريق خلق مستوى صناعي فى حفرة نبطن بالطفل ، ثم ينقلون هذا المستوى الأفقى على الجدران . ويسنمون فى تنفيذ المستويات الأفقية نقلا عن المستوى الذى يمدهم به مسطح السائل . وابتداء من هذا الخط كانوا يستطيعون الحصول على مجموعات أفقية تماما من المداميك مهما بلغ ارتفاع الجدران . ولاتمام ذلك كانت المهارة الفنية والحرص يحلان بالطبع محل الآلات الدقيقة التى يبدو أنهم كانوا يفتقدونها . ونحن نعلم

ان معرفة الاتجاهات الاصلية قد كان لها دور وأثر كبير فى اقامة مبانيهم المقدسة ، اذ ان انشاء كل بناء كان يبدأ بالنظر فى الكواكب ومراقبتها ، كما أنه عثر كذلك فى كثير من الاحيان فوق بلاطات الأساسات الخاصة بمختلف القاعات على طائفة من خطوط تحدد محور البناء . ترى عن أى شىء كانت تعبر هذه الخطوط وما هى القواعد التى كانت تحكم اتجاهاتها ؟

وهذا واحد من الكتاب المحدثين يبدى أسفه - فى كتاب له أخرجه عن الاتجاهات الفلكية - من أن الرفسح المعمارى فى أكثر العماثر الأثرية لم تراعى فيه الدقة المطلوبة . كما يحذر من عاقبة المخاطرة فى سبيل الوصول الى نتائج مرضية عن طريق رسوم بيانية ناقصة ، ذلك لان ما تم فيه الرفسح المعمارى من المباني الأثرية - فى عناية جعلته لا يختلف عن الواقع - لا يعدو قلة ضئيلة لم تجاوز بعض مجموعات كبرى كما فى مدينة هابو والاقصر والكرنك تم اسنا وغيرها مما قدر لها أن تلقى عناية خاصة من رجال العمارة . فاما الكثرة المطلقة من آثار مصر فلم تراعى العناية فى رفع مبانيها ؛ وانما تم ذلك فى سرعة خاطفة أو باجراء رسم شامل ، بحيث يصبح غير يسير - عند فحص مميزات المعمارية - استنباط قواعد ثابتة لتحديد اتجاهات تلك المباني وتغيير محور كل منها . وهنا ينبغى أن نقدر ان أمر ذلك قد كان خاضعا لظروف محلية خاصة ليس من السهل أن يسرى عليها تفسير موحد .

ذلك ما أمكن فى نهاية الامر استنباطه من المصادر المصرية ؛ اذ يبدو من النصوص الرياضية التى خلفها المصريون بين أيدينا ان معلوماتهم الهندسية كانت محدودة . ومع ذلك فقد تبين من الدراسة الدقيقة لبعض المباني الدينية انهم بلغوا الغاية من الكمال

الفنى فضلا على الرغبة فى التعبير عن نوع من الانسجام يتميز
بنسبه البسيطة بين الكتل المعمارية .

الطب :

لم تشر كتب اللاهوت ولا سجل العلم المقدس الذى نقله
الىنا كليمانس السكندرى الى كتب فى الطب . ولقد يبدو عند
النظرة الاولى أن مثل هذا العلم قد كان غريبا على مجال العبادة ،
كما أن الخدمة الدينية لم تكن فى حاجة الى استخدامه على الاطلاق .
على أننا نعلم أن الطب كان يمارس فى بيوت الحياة (= دور العلم)
وفى أحد المناظر المرسومة بمعبد «كوم امبو» ما يصور طائفة من
أدوات الجراحة . كما وجدت بعض نصوص طبية فى المجموعة
الهائلة من قراطيس البردى التى عثر بها فى معبد «تبتونس» ،
ذلك بالإضافة الى أن بعض ألقاب الكهنة تبين لنا مدى اشتراكهم
فى بعض مجالات الطب . ومن نصوص التخصص فى هذا المجال
كتلك التى جاءت فى القرطاس المعروف باسم بردية « أدوين
سميت فى الجراحة » ما يشهد بمعرفة وممارسة تشير الى ان عمق
التفكير ، ولم يمنع ذلك من سيادة عقائد - لا زالت منتشرة بين
فلاحى الصعيد الى اليوم (١) - بأن الامراض اذا لم تكن من فعل
روح من أرواح الشر ، أو نفثة عدو حاسد ، أو عدوان شبح غائد
فإن مبعثها سخط المعبودة المرعبة « سخمّة » .

ويكاد إبراء الجسد من علته يعتمد - فى عقيدة الشعب - على
مطاردة روح الشر واجباره على ترك الجسد باستخدام عزائم
السحر أكثر من الاعتماد على علاج الجسد نفسه . والرأى لديهم

(١) ليس الأمر قاصرا على فلاحى الصعيد فحسب بل هو من الأمور المعروفة
لدى فلاحى الصعيد ومصر السفلى على حد سواء . (المترجمة)

أن أفضل العلاج وانجحه ما يتمثل فى رقية تؤتى فعلها فوراً وأنه
لن يقدر على صياغتها سوى واحد من العرفان «الكهان المرتلين» الذين
تخصصوا فى معرفة كتب السحر القديمة ، ومهروا فى القدرة على
صياغة الرقية من كل عناصره ، حتى لا يبطل أثرها وتصبح نافذة
المفعول . وهكذا نرى ان أولئك العرفاء قد كانوا يمارسون وظائف
السحر فى القرية فوق تأدية أعمالهم فى المعبد .

ومن الكهان من كان أعمق تخصصاً . فالمعبودة «سخمة» التى
كانوا يصورونها فى هيئة اللبؤة ويتوهمون أنها مبعث العلل قد
كان فى مقدورها أن تبرىء منها أيضاً . ومن أجل ذلك كان كبير
كهانها من المرموقين لكثرة معارفه الطبية والمأهله بما يصيب الحيوان
من علل بحيث نستطيع أن نقرنه بالبيطار فى أيامنا هذه . كذلك
كان كاهن المعبودة العقب «سلقة» مؤهلاً بصفة خاصة لعلاج الأمراض
التي تنشأ من اللدغات السامة . ونرى آخر الامر أن الأشخاص
الذين كانوا يلتحقون بخدمة بعض المعبودات التى عرفت بقدرتها
على الإبراء من العلل مثل - « ايمحتب » الذى عرف فى العصور
المتأخرة عامة وفى أساطير الاغريق باسم «ايموثيس» بن «بناح» -
كانت معارفهم فى الطب غزيرة جداً بحيث اعتبروا من ذوي القدرة
والكفاية فى الإبراء من العلل . ولقد كانت للشعب فى « ايمحتب
ابن جابو » كبير البنائين فى بلاط ايمحتب الثالث عقيدة راسخة فى
قدرته الطبية لزمته طوال حياته ، واستغلها من بعده كهانه بحيث
أصبحت موردا للربح والتجارة وانتقلوا من معبد الحنازى
حين أصابه الصدع واتخذوا من إحدى مزارات الدير السحرى
العلوية مسنقرا لهم يستقبلون فيها المخلصين من رائديهم . وذاعت
شهرته فى طرق علاج المرضى والمعجزات التى صدرت عنه بحيث
ازدحم مزاده بطوائف العاجزين من أنحاء العالم أجمع ، وكانوا
لا يغادرون المزار دون أن ينقشوا على جدرانها ما يشهد الى عللم

وشفائهم منها • وقد وجدت في مصر مصحات تذكر منها على سبيل المثال ما كان في أبيدوس • كما كشفت البحوث أخيراً عن مصحة أخرى في دندرة ؛ كان المرضى يعالجون فيها بوسائل يختلط فيها السحر بالعلاج بالماء • ولكن ليس في الأمر ما يحملنا على الاعتقاد بأن الإيمان وحده مؤيداً بالدعائو العلميو قد كان كافياً للآتيان بالمعجزات : فكهنة هذه المعبودات قد كانوا مزودين بمعارف طبية لها من القيمة ما يؤيد شهرة معبوداتهم أليس بكاف أن تنبئنا التقاليد أن «أبو قراط» ومن بعده «جاليا» قد استمدا بحوثهما الطبية من بعض الكتب المحفوظة في مكتبة معبد «ايمحتب» بمنف !

علم الحيوان :

يقول كليمانت السكندري انه كان على الكاهن أن يكون عارفاً بسمات الحيوان ؛ أى متخصصاً في معرفة الحيوان • أما عن حدود هذه المعرفة ومداهها فيحدثنا هيرودوت الذي يقول : «فقبل التضحية بأحد الحيوانات كان لا بد أن يقرر كاهن متخصص أنه طاهر(١) • وكان الفحص يتم على النحو التالي : « إذا رؤى في جسم الثور شعرة سوداء واحدة فإنه يعتبر غير طاهر • وكان يقوم بهذا الفحص مفتش معين فيفحصه واقفاً وراقداً على أحد جنبيه • ثم يخرج لسانه ليطمئن الى براءته من النجس • ثم ينظر الى الذنب ليتأكد من أن شعره مرسل مرجل فإذا تبين خلو الحيوان من أى عيب وسمه بالطهارة وذلك بلف قرنه بلحاء البردى الذى يعقد لفه بقطعة من الطين مختومة بختم الكاهن المختص • وحينئذ يصبح الحيوان مقبولا • وعند النحر يكون الحيوان معرضاً لخطر الاعدام اذا خلا من هذا الضمان •

(١) يعنى سلسماً مبرأ لاشية فيه • (المترجمة)

ومن المرجح أن سائر الحيوانات التي كانت تقدم قربانا - وكانت وفيرة من طير وسمك ومن المها والبقر - لابد أن تستوفى شروط الصحة والسلامة . ولا شك في أن الكاهن البيطار قد كان يملك قوائم تامة بأنواع الحيوان المحرم فى سائر البلاد بحسب توزيعها الجغرافى الدينى ، وكانت كثيرة متعددة، ويستطيع الانسان أن يتبين ذلك من القائمة الذى مر ذكرها (صفحة ٣٦ ، ٣٧) فالتقويم الدينى بتانيس يتضمن معرفة المحرمات بين المعارف الضرورية لممارسة العبادة . وتلك خبرة لها أهميتها التى كانت تتجلى بوضوح فى أيام معدودات من أيام دور العبادة ، وذلك عند اختيار الحيوان المقدس . ومن ذلك ما كان يحصل أحيانا فى بعض المعابد مثل معبد أدفو ومعبد فيله ، اذ كان لابد من اختيار الحيوان - وكان صقرا - يخنار للحلول (أى لحلول قدرة الاله) مرة كل عام . وفى أماكن أخرى ومنها منف مثلا، كان يتم اختيار الحيوان للمنل ذلك فيظل محتفظا بصفته نلك حتى يموت . وحيوان منف كان فحل البقر المعروف باسم «أبيس»؛ فاذا مانفق ضم رفانه محنطا الى رفات أسلافه فى القبر المعروف باسم «السيرايوم» بسقارة . وهناك تتخذ اجراءات البحث فى البلاد كلها حتى يتم العثور على مايلخفه . وكان شروط الاختيار المطلوب توافرها كثيرة : « كان يجب أن تلده بقره لن تصلح بعد ولادته لحمل آخر » . وكان المصريون يزعمون أن رسالة من السماء تتجلى فى ومضة من برقها تم تهبط تلك الومضة فتحمل بالعجل أبيس ، وكان الثور الصغير الذى يسمونه « ابيس » متميزا بالسماط الآتية : « كان أسود اللون وفى جبينه غرة مثلثة ، وعلى ظهره صورة نسر . وفى خصلات الشعر من ذنبه ازدواج ، وفى أسفل لسانه صورة جعل (انظر هيرودوت الجزء الثانى صفحة ٢٨) . ومن المرجح أن تلك السماط النى يشترط توافرها فى الحيوان المقدس قد تضمنتها قوائم سائر الحيوانات

المقدسة من أپيس منف الى كبش منديس الى ثور بوحيس والى
تمساح الفيوم ثم الى مختلف الحيوانات التى لا يحصيها العد من تلك
التى تختار لسبب أو لغيره . وكأنما أوحى الله باختيارها (راجع
اسنا رقم ١٥٦ ، ١٩٠ ، ١٩١) .

تعبير الرؤى :

تشير الاتبات الاغريقية التى تسرد مختلف هيئات التدريس
بمدارس اللاهوت الى « معبر الرؤى » ، ونحن نعلم كيف كان من
المتبع فى العصور المتأخرة أن ينام التابعون فى المعبد على أمل
أن يروا فيما يرى النائم ما ينذر باقتراب العلة وتحديد ما ينبغى
عليهم أن يتبعوه أو أن يكشف لهم عن بعض ما يطالعهم به مستقبل
حياتهم . هكذا فعل الساحر « حورس بن بانيش » كما جاء فى
القصة المدونة بالقلم الديموطيقى والتى سبق أن أفدنا منها الكثير
من المعلومات ، هكذا فعل عندما عجز عن معرفة الوسيلة التى يمكن
أن يقى بها فرعون من فعل السحرة الانوبيين . ولم يكن هناك
من بد الى الالتجاء الى احد معبرى الرؤى حين لا تكون الرؤيا
واضحة فى استطلاع المستقبل أو عندما يكون من الضروري تعبیر
حلم ليل يبدو عند التفكير فيه غامضا . فنحن نذكر قصة يوسف
وهو يتنبأ لفرعون بحلول السنوات الحضر السبع وما يتلوها من
السبع العجاف . وقد عثر بين القراطيس التى وجدت فى جبانة
طيبة على مجموعات فى تعبیر الرؤى رتبت عناصرها على النحو
التالى : عنوان عام : « اذا ما رأى امرؤ نفسه فيما يرى النائم .. »
ثم يتلو ذلك فى سطرين عموديين « وهو يفعل هذا الشئ أو ذاك »
.. فهذا حسن (أو هذا سئ) ، وذلك يعنى أنه .. والى القارىء
بعض أمثلة مستخرجة من هذه المجموعات :

« اذا ما رأى امرؤ نفسه فيما يرى النائم »

يشرب نبذا = حسن = (وتعبير ذلك) انه سيفتح فاه
ليتكلم .

جالسا فوق شجرة = حسن = (وتعبير ذلك) الانتصار
على محنه جميعا .

يذبح بظه = حسن = (وتعبير ذلك) قتل أعدائه .
يزور بوزيريس = حسن = (وتعبير ذلك) يبلغ عمرا
مديدا .

ناظرا فى جب عميق = سىء = (وتعبير ذلك) وضعه فى
السجن .

محترقا = سىء = (وتعبير ذلك) أن مصيره القتل .

يرى قزما = سىء = (وتعبير ذلك) ضياع نصف عمره
.. الخ .

هذه المجموعة ترجع الى أيام الدولة الحديثة . ولدينا
من العصر المتأخر مجموعة تشبهها من التفاسير . ومن ذلك نشبين
أن ممارسة هذا العمل قد عاشت طويلا ولم تندثر ، كما بطلت طبيعة
الرؤى وأساليبها مطابقة لما نقدمها بشكل ملحوظ . وكان هذا
اللون من « المعرفة » وقفا على الكهان . وحسبنا دليلا على ذلك أن
السحرة الذين استدعوا لتعبير رؤيا فرعون قد نعتوا فى الترجمة
القبطية لسفر التكوين (٤١ ، ٨ و ٢٤) ب « كتبة بيت الحياة »
(أى العاملون فى دار العلم) .

السحر :

قد يبدو غريبا أن يوضع السحر ضمن معارف الكهان . ولكن
معرفة الصيغ السحرية الكاملة - فى رأى الكهان أنفسهم - قد
أمدتهم بقدرة على الأحياء والأرباب وقوى الطبيعة لا تكاد تحد . وكان

الساحر رجلا له خطره مقداما لا يتراجع أمام أعظم الأمور الجديرة
بالمشاهدة ؛ فمن ذلك مثلا قول الساحر : « سوف أُميد بالأرض الى
الغمر ولسوف يصير الجنوب شمالا وتنعكس الأرض » ..

والواقع أن أطماعهم فى تحقيق نتائج السحر كانت من الناحية
العملية أكثر تواضعا عما ذكرنا ، وإن كانت النتائج المرجوة من
أعمال السحر قد كان لها حظها الكبير من التقدير ؛ فالنظام الرائع
الذى أخذت به الالهة هذا العالم قد كان يقع دائما تحت خطر
التهديد بثورة القوى المعادية وأعمال الجن وأرواح الموتى المنحرفة
وقوى الشر الغامضة . وكانت ذوات الآلهة كامنة فى تماثيلها
المندسة فى أخفى أماكن المعبد ثم فى صورها المنبثة على طول
جدرانه . غير أن هذه القوة الالهية قد كانت تتناقص بالتدريج حتى
نضمحل وتونسك على الزوال بحيث يصبح من الضروري أن تشحن
التمائيل كل عام بالقوة من جديد . وكان فى اقتراب القوى الغامضة
خطر يهدد الاله الذى يعيش فى معبده تهديدا مباشرا . ومن أجل
ذلك كان التوسل بالرقى والتعاويد السحرية انما يهدف الى إبعاد
الشياطين عن المعبد . وهناك من الاثبات ما يسرد لنا طوائف من
« الكتب الخاصة بالقبض على الأشرار من الرجال وحماية الملك فى
قصره » - وقد كان فى حاجة دائمة الى ذلك - . فنحن نذكر ما يقال
عن أعمال السحر الأثيوبية - التى كان يقصد منها الانهيار عليه
بالضرب الشديد أثناء نومه - ، و « الكتب الخاصة برد العين
الحاسدة » .. وقد عثر خلال أعمال التنقيب على طوائف من أمثال
هذه الكتب الدينية ككتاب صرع أبوفيس عسدرع وأوزيريس
والطقوس الخاصة بردع « ست » وأتباعه ، وبإبعاد الغاضب ، ثم
الطقوس المعروفة الخاصة « بالصييد بالشباك والخاصة بتعطيم
الآنية الحمراء » كانت من أعمال السحر التى توضع فى خدمة الملك
ودولته .

هكذا كان المظهر الرسمي فى ممارسة أعمال السحر • على أن الآلهة لم تكن وحدها تفيد منها ؛ فالكاهن المرتل كان معلما بارعا فى شئون السحر والرقى ، وكان يمارس فى حياته المدنية مهنة طارد الجن كما ، كان يحرق الرقاع الخاصة بالشفاء من الحمى ولدغ العقرب ومختلف الأمراض • كما يقوم فى بعض الأحيان بأعمال السحر الخاصة بأمور الحب والتي تهدف فى الغالب الى محو ما بقى من الوسوس فى قلب الغادة بصرف النظر عن اختيار العذب الرقيق من اللفظ « اجعل فلانة تتبعنى كما يتبع الثور علفه ، وكما تتبع الخادمة أطفالها وكما يتبع الراعى قطيعه » • فاما الحسنة فقد كانت لديها تميمة تتضمن عملا غامضا : « هيا قيدي هذا الذى أنظر اليه حتى يصير حبيبي » •

والواقع أن مجال السحر كان كبيرا كما كانت وسائله عديدة لا تكاد تحصى • نذكر من ذلك على الأقل مجالين يحوطهما شيء من الغرابة ، ويعد كهان مصر فيهما من كبار الأساتذة ، فاما أولهما فيعد مما يثير الدهشة لدى كل من يعرف مناخ مصر وزرقة سمائها الدائمة ، ونقصد اسقاط المطر • فبين الوثائق ما يؤكد الاعتقاد بأنه كان فى مقدور الكهان عن طريق التعاويذ السحرية أن يثيروا زوبعة ممطرة • ويؤيد ذلك ما ورد فى قصة الحرب التى نجا منها الجيش الرومانى بقيادة « ماركوس أوريلوس » من كارثة محققة وذلك عن طريق الأمطار التى انهمرت بمعجزة على يد « حارنوفيس » أحد مفسرى النصوص المقدسة فى مصر • واما الثانى فكان يقح عن طريق التنجيم بوساطة اناء مملوء بالماء ، من فوقه طبقة رقيقة من زيت ، ويركع أمام الاناء وسيط من الأطفال يأمره الساحر بان يفتح عينيه على ما فى الاناء ، حتى اذا ما لاح له ضوء على سطح الزيت كان ذلك آية على أن الاتصال بالآلهة قد تم وبذلك يكشف المستقبل عن اسراره الواحد تلو الآخر •

العقاقير والصيدلة :

ومن الممكن أن نضم الى معارف الكهنة معرفة العقاقير وصفاتها برغم ما كانت تقتضى صناعتها من أساليب فنية لها طابع خاص . وفى الحقيقة أن خزانة الكتب فى معبد ادفو تشير الى أنها كانت تضم كتابا فى معرفة كل أسرار العمل : أى المقادير التى كانت تقتضيهها صناعة المراهم والدهون والعمود التى تسبب الخدر والدوار والتى كان يستمتع بها الأرباب . ولم تخل المعابد فى بعض الأحيان من معامل صغيرة تستخدم مخازن للمواد زكية الرائحة (مثل معبد الكرنك من الأسرة الثامنة عشرة ومعبد اسدا من العصر الرومانى) . كما كانت فى معبد ادفو قاعة مبنية من الحجر سموها « المعمل » وانتشرت على جدرانها عبارات النقش الهيروغليفى نصف طريقة أعداد مختلف العمود المستخدمة فى الطقوس الدينية من عناصرها الأساسية ومقدار النسب فى خلط المواد ومدة طهيها وتبريدها . الخ . وتبين احدى هذه العبارات فى تفصيل خاص كيفية أعداد نصف لتر من مستخرج الاصطرك البين الصفاء .

ولتحضير ذلك يجب توافر العناصر الآتية :

عصارة الخروب	٥٧٥ ر . من اللتر
بخور جاف من الدرجة الأولى	١٠١٠ جرامات
قشر اصطرك (١) من الدرجة الأولى	٦٠٠ جرام
يراع طيب الرائحة	٢٥ جراما

(١) الاصطرك بلسم يتخذ من القشرة الباطنية فى شجرة المبة السائلة أو شجرة الاصطرك أو الصمغ الشرقى الحلو (انظر قاموس الدكتور محمد شرف فى العلوم الطبية والطبيعية . (المترجمة)

جرامات	١٠	أسفلت (١) (خشب علقى سكوباريوس)
جرامات	١٠	مصطكى (٢) صمغ شجرة السرو الفستقى
جراما	١٥	بذر زهرة البنفسج (٣)
من اللتر	٥٠	نبىذ معتق
٠٠٠		ماء

ومن المواد التى كان يقتضى تحضيرها ان تمر بمراحل ثمان من مختلف العمليات من مزج وطهى وتصفية المواد من اناء الى آخر فى مدى ثمانين ومائة يوم ، دهان التجميل * كما كان تحضير العطور الدقيقة التى كانت ترش بها تماثيل الأرباب خلال الطقوس تقتضى دقة وصبرا طويلا . ترى هل كان مثل هذا العمل يستحق طول التعب والارهاق هذا المدى الطويل ؟ ذلك شيء لا نستطيع الجزم به مع الأسف .

الأدب :

مر بنا منذ بدأنا الحديث عن التاريخ ذكر كبير من مختلف العلوم والجغرافيا والفلك والهندسة والطب والسحر حتى انتهينا الى عالم العقاقير . وقد بان لنا خلال ذلك مدى ما كانت تتسع له مجالات العلوم اللاهوتية ، ومدى تنوعها . وتبيننا أن بعض هذه العلوم وأساليب المعرفة الفنية من عمل اخصائيين . فالكاهن - وقد بينا كثرة ما ينطوى تحت وظيفته من المصارف والخبرات كان قادرا - بحكم الدور الذى كان يضطلع به فى مجال العبادة - على التصرف

(١) الأسفلت مادة قارية صلبة . يقال أنه مستخرج من مواد نباتية
(انظر نفس المراجع السابق) . (المترجمة)
(٢) مصطكى أو مصطكا وهى ما يسميها العامة المسكة . (المترجمة)

فى أسس هذه العلوم وعناصرها • ونستطيع أن نؤكد أن قله من هؤلاء كانوا يفاخرون بامتلاك ناصية هذه العلوم ، على أن مبدأ التخصص فى تلك المعارف - وإن كان لا يحتمل الشك - لم يمنع من أن يرتبط الكهان بعضهم ببعض برابط أقوى من مجرد النظر الى مظهر الوظيفة من حيث التخصص فيها ؛ ففوق ما كان يميز بينهم من التخصص العملى ، كان هناك نوع من الثقافة العامة بين دينية وفكرية شارك فيها سائر الكهان أو الطبقات العليا منهم على الأقل • وذلك الثقافة الكهنوتية قد كانت ثقافة مرموقة برغم عموميتها ؛ فهى قد كانت جماع اهتمام مشترك وتأملات فى النظر الى المشكلات الفلسفية والدينية ومن حصيلة الاطلاع على النصوص القديمة • كل ذلك بالإضافة الى سائر النظم التى سبق أن عرضنا لها • وقد كان شعور الكهان بانتمائهم الى هيئة ممتازة قيمة على التقاليد وقادرة على تفسيرها مما ساعد على تكوين هذه الثقافة وبقيائها • ولقد زودت هذه الثقافة من كانوا يفيدون منها - على الأقل - بالرغبة الشديدة فى الاطلاع المتصل • ونستطيع أن نتصور بعد ذلك أن الاهتمام بالآداب لم يكن غريبا على العاملين فى مجال العبادة • حقيقة أن خزانات الكتب فى المعبد لم تكن تضم غير كتب الدين ، وحقيقة أن العامل مثلا لا يستطيع أن يحمل الى مصنعه قصة حب يستمتع بقراءتها ، ولكن الكهان بعد انتهاء ساعات الخدمة الدينية ، قد كانوا يستمتعون بقراءة قصص الحب التى كانت شائعة فى أيامهم ، ومنها ما عثر عليه فى دار المحفوظات بمتونسن منشورا على قراطيس البردى كتفاخر « بتوباستيس » وما جاء فى قصة « سانتى » • وبين الكتاب الذين كانوا يعملون فى « يب الحياة » (دار العلم) - وكانوا من طبقات المتأدبين بحكم مهنتهم - من قام بانشاء أعمال أدبية مبتكرة ؛ ومن ذلك ما عرفناه حديثا فى مطلع أحد النصوص التعليمية من أيام الدولة الحديثة ،والذى كان منشؤه شماس يدعى « آمون نخت » • ولا يفوتنا أخيرا

تلك البقية من الأدب وهي مجمع أمثال (وجدت على قرطاس معروف باسم « بردية اينسنجر ») تلك التي عثر عليها في تبتونس ؛ وهي تبين لنا أن مثل هذه الكتب التي قام بها كتاب من غير رجال الدين لم تكن قيمتها على الإطلاق مما يستهان به في أوساط رجال الدين . وإذا ما شككنا في أمر ذلك فحسبنا أن نذكر النصوص المنسوبة الى بتوزيريس ، والنصوص التي وجهت الى كهان أدفو وسبق أن أوردنا طوائف منها .

ولم يخل الأمر في بعض الأحيان من أن تغدو المعارف الكهنوتية - حاشا في بعض المجالات النادرة - مجرد انعكاس للمعارف الشائعة التي تصدر عن طوائف الفنيين من الكتاب والعلماء في المجتمع المصري . بل حدث أن صورت بعض الوثائق ذات الأهمية العلمية الخاصة ، بالإضافة الى بعض النصوص اللاهوتية - غير الدينية - صدرت عن أوساط لا صلة لها بدور العبادة .

وعلى الرغم من كل ذلك فاننا نجد أن تراث المعرفة المصري قد أصبح مصدره مع الزمن لا يخرج عن الأوساط اللاهوتية . هذا وقد أعانت سائر الظروف على تكوين الكاهن المصري بدريجيا بحيث أصبح أنموذجا للمفكر ورجل المعرفة . ومن هذه الظروف : التغيير العميق الذي أحدثه الاحتلال الاغريقي في سائر وسائل الحياة وبخاصة في المصالح الإدارية ، وقد كانت فيما سبق مراكز الثقافة ثم الاتجاه تدريجا الى دار العبادة في كل ما تبقي من عادات المصريين وتقاليدهم . ومن هنا نستطيع أن نطمئن الى نظرة الرحالة الاغريق - التي سبق ذكرها - ثم الكتاب العرب الذين رددوا من بعدهم هذا الثناء . وفي امكاننا الآن أن نضيف الى ما استقام لدى هؤلاء وأولئك من فكرة عن المعارف الكهنوتية ، أن هذا العلم (علم الكهان) لم يكن مجرد تلاؤم بين أساليب فنية ، بل كان بحكم طابعه العالى ، وما فيه من فكر فلسفى وأدبى انما يمثل ثقافة حقيقية مرموقة القيمة .

الباب
السادس



خط کرمانی مصر
من السعود والنخوس

كان بحنا حتى الآن قاصرا على « كهان مصر » ، ونرى انه قد آن لنا ان نتحدث قليلا عن التاريخ والكهنوت بعد تلك الفصول التي عرضنا فيها لوصف خصائص تلك الطائفة من طوائف الشعب . وان ما ذكرنا عن الكهنوت وشروط الالتحاق به عن حياة الكهان الدينية والفكرية وعن معارفهم لا يعدوا ان يكون بحثا مجملا في حياتهم برغم ما فيه من دقة . على أن هذا البحث الأجمالى الذى يتكون من عناصر متعددة من سائر عصور التاريخ ليرسم لنا صورة صادقة لطوائف الكهان قد تكون صادقة من الناحية الإحصائية ، ألا أنها لا تتضمن شيئا من التفاصيل الشخصية ولا من التغيرات التى اقتضاها تعاقب الزمن . وذلك هو الجانب من حياة الكهنوت الذى نحاول تناوله الآن .

لم يكن فى حياة المصريين الفكرية شىء أشد غرابة من امكان الفصل بين الدين والدولة . فلم يكن الدين عندهم مطلقا ظاهرة من الظواهر الخاصة التى تتوقف أهميتها على اختبار الأفراد ؛ فعند

القبليين فيما قبل التاريخ ، كانت العقيدة الدينية ، « أساس الحياة الاجتماعية والقومية » ، وكان زمامها فى يدى الحاكم . ومن أجل ذلك كانت حياة الكهان والثراء المتوافر فى أوقاف دور العبادة دائما رهن الظروف السياسية .

وفى مطالع التاريخ الأولى ؛ حين كانت القبائل تغير على الأقاليم وتغزوها ، كانت كل منها انما تفعل ذلك بقيادة زعيم وفى حماية معبود . وكان انتصار القبيلة يؤكد سلطان معبودها ويعظم من قيمته .

كذلك كان سلطان فرعون السياسى يزداد بازدياد قوة معبوده . وكان الجزاء الذى يقابل ذلك من لدن فرعون انتظاما لاستمرار عطفه وولائه يتمثل فى براء معبده وكثرة ما يقدق عليه فرعون من مال وخدم . وتزداد أبهة البلاط الملكى وقيمته باتساع سلطان فرعون فى أعقاب الغزوات التى تسببت فى هذا الاتساع ؛ وتبعاً لذلك تتسع الرقاع فى أملاك المعبود . فالأرض كما نعلم قد كانت ملكاً للتاج ، وكلما وهب التاج جزءاً منها ، لئلا كان من وراء ذلك ازدهار الحياة المادية للكهنة وضمان اتصام تقديم القرابين ؛ وفى ذلك كله اشراك للمعبود فى مصير أسرة فرعون السياسى . وانا لنسوق على سبيل المثال ما جاء فى تلك الملحة الرائعة عن معركة قادش واستغاثة رمسيس بأبيه آمون حينما حاصره جيش العدو :

« ما الخطب يا أبى آمون .

أهناك والد يترك ولده (فى ساعة العسر) ؟

أو لم أقم لك الآثار الوفيرة .

وأملاً دورك بالعبيد والجواري .

أنى بنيت لك البيت العظيم الخالد (للملايين السنين) •
 ووضعت بين يديك أملاكى الحق •
 وكرسيت سائر البلاد الأجنبية للقيام بخدمتك والتفريب لك •
 نحررت لك فيه عشرات الألوف من الضحايا ، وأهديت اليك
 مختلف أنواع النباتات ذات الأفاويه الزكية •
 ولم أترك طيبا لم أزين به معبدك •
 وأقمت لك الصروح الشامخة •
 ورفعت عليها بنفسى الصوارى ذات الأعلام ، واحضرت اليك
 المسلات من جنادل الفيلة •
 وأنا الذى قددتها من الجرائيت وقمت بنقلها •
 وتركت الفلك تجرى فى البحر بأمرى •
 لتحمل اليك الخراج من أقاليم الشعوب المتخلفة •
 ترى ماذا يقول الناس عمن والاك اذا نزلت به كارثة ••
 •• اجز من والاك خيرا ، يخلص الناس فى عبادتك ويخدموك
 بحب » !
 ومن ذلك كله نتبين أن فرعون قد كان يوسع فى أوقاف الاله
 وينتظر أن يعينه الاله لقاء ذلك فى السلم ، وينصره فى الحرب ؛ ومن
 هنا ارتبط ثراء دور العبادة المادى بنجاح فرعون السياسى •
 على أن ذلك الاثراء قد كان من شأنه أن يثقل مع الزمن الى
 ما يهدد سلطان فرعون • وقد وقع فى بعض عهود الدولة الحديثة
 أن طغى ثراء كهان آمون على ثراء فرعون نفسه • وفى الاحصائيات
 الواضحة التى أوردها قرطاس « هاريس البردى » ما يشير الى
 ذلك فى جلاء :

فقد زاد من يعملون في خدمة آمون على نمائين ألفا من الرجال وزادت رقعة أوقافه من الأرض على ألفي كيلو متر مربع وكانت كلها في أيدي كهان طيبة . وكان المفروض أن يرعى الاله فرعون ويؤيد ظفر أسرته ، وينشر رايات انتصاره حتى يبلغ بها أقصى حدود العالم المعروف يومئذ ، وكان على فرعون أن يشرك في نتاج كل ذلك من يخدمون الاله من رجال الدين ، وكان ادراكهم كل ذلك يزداد ازديادا متصلا .

وهكذا ظل تاريخ مصر الديني يشق سبيله في مختلف العصور بسلاح ذى حدين ، فالاله حليف أسرة فرعون يتمتع بلاطه بمجدها واهتمامها الرائع ، والأسرة نفسها ينبغي أن ترقب بحذر سلوك الكهان ، ذلك لأن شهوتهم الى النراء لا تكاد تنطفئ ، ومطالبهم لا تكاد تقف عند حد . فالولاء للاله وملء رحابه بالهدايا والاكنار من المعابد التي تحمل اسمه وتقيم مجده قد كان يمثل الموقف الشرعى لابن تجاه أبيه ، ففضلا على أنه لم يكن يخل من مصلحة (أى أن فرعون قد كان ينتظر عليه اجرا) . على أن مجتمع الكهان القائم على خدمة الاله والذي كان عدده فى ازدياد مستمر ، وقوته فى نمو من شأنه أن يجعل هذا المجتمع دولة داخل الدولة ، دولة لها خطرهم ، على فرعون بحيث نستطيع فرض ارادتها اذا اقتضى الأمر . وانه لمجتمع له خطرهم وفى وجوده مجازفة ذات اثر بالغ . فاذا ما نحن نظرنا فى بعض فقرات التراث التاريخى الى الانطلاق المتتابع الذى كانت تقوم به طوائف المجتمع الكهنوتى ، فسنعرض بالطبع للجهود المتصلة التى كانت تبذلها السلطات المركزية فى مراقبة الطفافة من رجال الدين ، ثم نكشه خلال ذلك عن بعض الأزمات الكبرى التى نشأت نتيجة لتلك المقاومة المستترة .

ترى ما حقيقة حياة المجتمعات القبلية التى سبقت العصر التاريخى (عصر ما قبل الأسرات) ومدى نتائج كفاحهم ، ثم ما غشى

مجال العبادة لديهم من تدخل جغرافى ؟ هذا أمر ليس من السهل أن نخوض فى الحديث عنه . ذلك لأن تحديد المناطق التى عثر فيها على آثار عبادة اله ما - على ضوء خريطة منظمة لنتتبع استمرار حياة دولة سبقت العصور التاريخية وكانت قد نشأت تحت راية ذلك الاله تم ضعفت بعد لآى وأخذت ننقسم الى ايلات متعددة - انما يعتبر من أشق الأمور وأصعبها . ذلك فضلا عن أن محاولة تصوير عصر ما قبل التاريخ من العقائد الدينية فى كل من دلنا مصر وصعيدها ، يقتضى نقل الصراع الدينى الى الحياة التاريخيه العامة - وهو صراع صورته لنا متون الأهرام التى دونت أيام الأسرة الخامسة . تلك محاولة - لو أقدمنا عليها - رائئة الا أنها لا تخلو من مجازفة كبيرة . ولقد استطاع العالم الألمانى « كورت زيته » - الذى اتصل بتلك المتون وتعمق دراستها - ان يبنى على ضوئها تاريخا لمصر طويلا يسبق أيام مينا وأقام بناء فكرته التاريخية تلك على أساس آيته أن متون الأهرام تصور طقوسا دينية قديمة يرجع عهدها الى ما قبل أيام نقشها على الآثار الجنازية للأسرة الخامسة بعده قرون ، ويرى أن ما فيها من اختلاف يرجع الى ألوان الصراع السياسى التى عانته تلك الدول القديمة . ويخلص من ذلك بأول محاولة تهدف الى التوحيد فى شمال الدلتا بين مملكتى حورس وأوزيريس اللتين انطلقتا متحدتين تحت راية واحدة لغزو الصعيد ومن فيه من أتباع « ست » وتلت هذه الدولة المصرية الموحدة دولة ينتظمها مذهب عين شمس الدينى وكان لا يزال رخصا فى أول عهده واستطاعت دنيا المصريين فيه أن تجتمع كلها تحت راية اله الشمس « رع » وتتلو ذلك محاولة ثالثة لتوحيد البلاد تحت راية « حورس » تقوم بها ممالك متفرقة فى صعيد الوادى زاحفة بها الى دلتاه التى أضحت هى الأخرى تحت راية حورس . وقد أدت هذه الأخيرة التى سبقت العصر التاريخى بوقت قصير الى تلك الغزوات الحاسمة كهان مصر القديمة - ١٩٣

التي قام بها كل من الملكين العظيمين الملك « العقرب » والملك
« مينا » .

تلك هي الصورة التي رسمها العالم الألماني « كورت زَيْتِه » ،
ويستطيع المرء أن يتصور ما يقتضيه بناء الدولة على النحو الذي
بينته تلك الصورة من جهود لا يخلو تصورهما من شك واحتياج الى
منطق الحوادث ، اذ ليس هناك ما يمكن أن يثبت بالبرهان
المبين - حاشاً ما يتراءى بين الحين والحين من تطور في كتابة اللغة
وقواعدها - ان الطقوس المختلفة التي تعد أساساً لبناء متون
الأهرام ، يرجع تكوينها الى مراحل تاريخية مختلفة ، ثم هي بنوع
خاص قد رسمت وعبرت في أسلوب أسطوري عن صدى كنفاح
الدويلات التي عاشت في مصر قبل ألفي سنة تقدمت عصر تدوينها .
ويحاول بعض العلماء في الوقت الحاضر الرجوع بمتون الأهرام الى
زمن أبعد ، راسمين للوقائع التاريخية خطوطاً متتابعة دون استبعاد
اعادة ترتيبها . ولعل الآثار أن تكشف لنا - في وضوح أكثر
ما يتيح لنا تفسير النصوص الدينية - عن الأسس النظرية التي
تمهد يوماً ما الى الاحاطة بتاريخ تلك الحقب البعيدة .

وأيا كان مصير تلك القبائل التي عاشت فيما قبل التاريخ فان
بعض المعبودات قد أفادت يومئذ من تقدم اتباعها ومدى نجاحهم .
فالمعبود حورس (الصقر) رب ، « نحن » في صعيد مصر وحمى
« بحدت » في الطرف الغربي من دلتا الوادى ، ظل طوال عصور
الحضارة المصرية رب الأسرة الحاكمة ، يحى فرعون كما يتضمن
اسم فرعون ولقبه ما يثبت صلته بهذا الاله . وآية ذلك أن ينقش
اسمه داخل رسم لقصر الحاكم يعلوه ذلك الطائر المقدس .

رع اله الشمس :

ومن الأرباب التي نالت فى مجال العبادة وبلاط الحاكمين شهرة عالمية اله الشمس . فلما أنشئت عاصمة مصر المتحدة « منف » عند رأس الدلتا بذلت محاولات وجهود مؤقتة فى سبيل رفع راية المعبود « ست » اله الجذب والمعبود الجديد « بناح » بغية وصلهما بالأسرة الحاكمة ، إلا أن هذه المحاولات لم تظفر بنجاح . ولم يلبث مذهب عين شمس الذى قام تحت راية الشمس أن فرض سيادته على الدولة فرضا ، فبانت أولى آثار ذلك أيام الملك زوسر (حوالى ٢٨٠٠ ق م) ولم يمر على ذلك العهد وقت طويل حتى فرض المذهب نفسه على الدولة فرضا ، وبدأ الملوك أنفسهم يجهرون بذلك كلما أصبح من القاب فرعون « ابن الشمس » وغدا لقبا دائما بين ألقابه . وفى القصص المنسوب الى أيام الأسرة الرابعة (٢٧٢٠ الى ٢٥٦٠ ق م) ما يشير الى أن ورثة هذه الأسرة قد كانوا من ولد الشمس وتصور القصة مولد أولئك الورثة فى قرية صغيرة فى غرب الدلتا . ومنذ عهد الملك « ساحورع » (حوالى ٢٥٠٠ ق م) بدأ سائر الملوك يجعلون اسم ذلك المعبود فى بناء أسمائهم . وفى قيام معابد الشمس على ضفة النيل الغربية وشغف الملوك ببناء قبورهم فى شكل هرمى وظهور اسم « رع » (الشمس) فى أسماء الأعلام وذيوه فى النصوص ما يدل على انطلاق ذلك المذهب الشمسى وانتشاره تحت رعاية فرعون .

أوزيريس :

وهناك معبود آخر عرف منذ أبعد العصور فى دلتا الوادى ولم يلبث أن ذاعت شهرته فى أنحاء البلاد جميعا . ولم ترتبط شهرته وانتشار عبادته بمكانة أتباعه السياسية ، بل ارتبطت بالطابع الجنائزى الذى اتصف به . ويرجع الكتاب والمؤرخون بأصله

ونشأته الى « بوسير » فى دلتا الوادى ولم يكد يستقر فيها حتى ضم اليها ومن حولها مملكة واسعة الأرجاء يعيش فيها أتباعه . وقد استطاعت شهرته أن تغمر دنيا المصريين كلها فى بعض العصور . ولما كانت أيام الاسرة الحادية عشرة (حوالى ٢٠٥٠ ق م) أصبحت أييدوس كعبته الكبرى . وظل طوال التاريخ المصرى يعتبر أكبر أرباب الموتى ، يكفل لهم بعد الموت حياة أخرى . ويبدو من سيرة هذا المعبود ان كهانه الذين كانوا وقفا على خدمته وكانوا من أصحاب الشهرة العالمية ، قد اكتفوا بشهرة معبودهم الشعبية وما نشأ حوله من معتقدات ، فلم تظهر لهم أطماع سياسية كتلك التى ظهرت لنظرائهم من كهان الأرباب الأخرى . وكان لقناعتهم تلك أثرها فى تاريخ هذا المعبود ، وحسبها أنها جنبت تاريخه مصير توارىخ أرباب آخر كانت شهرتها رهينة ببقاء من ارتبط بها من أصحاب العرش . وفى أواخر عصور التاريخ المصرى حين أصبحت هليوبوليس القديمة مدينة مهجورة وحين غدت طيبة أطلالا ينهى بعضها بعضا ذاعت عبادة أوزيريس وأخته وشريكته ايزيس ذيوعا منقطع النظير ، فتخطت مصر الى الجزر اليونانية ثم عدتها الى روما وتجاوزت روما الى غابات جرمانيا . هذا ولم يكن بين دور السادة المخصصة فى مصر لمختلف المعبودات واحدة يخلو من مزار أو مصلى لرب الموتى أوزيريس والاحتفال باقامة الشعائر الخاصة ببعثه .

آمون :

لم يكن لآمون من مكان يلفت النظر فى عصور مصر القديمة ، وانما بدأت شمس تشرق مع مطلع أيام الدولة الوسطى ، فهو رب أئمة الملوك فيها ، ولا أدل على ذلك من أن اسمه دخل فى بناء أسمائهم ملوكا . وحسبنا مثلا لذلك اسم « امنمحات » وتجلى آمون على مسرح الأحداث فى مصر ، فهب أصحابه لمقاومة الغزو الأجنبى وبخاصة أيام الهكسوس . وظل آمون بهالته الرائعة حتى استحق

بجدارة لقب « ملك الآلهة » • وكانت كعبته « طيبة » التي قامت شهرتها العالمية تحت رايته ، ثم هو حامى الذمار وهو المحلق فوق عرش فرعون فى طيبة •

واثرى عالم الكهان من حوله بكثرة ما كوم الملوك من أمثال أمينوفيس وتحتمس فى بلاطه من كنوز الوادى وما حوله من أقاليم الأرض • وبلغ نفوذ كهانه فى طيبة من الثراء وقوة النفوذ واتساع السلطان ما لم يبلغه أمثالهم فى العالم المعروف يومئذ • وغطت شهرة آمون فعمت البلاد بحيث لم يعد لأرباب الأقاليم القديم منها والحديث شئ من قوة الا فى بلاطه وتحت رايته •

النشأ والتنافس على الامامة والأزمات التى نشأت عن ذلك أيام الدولة الحديثة :

ظل فرعون على الدوام بوصفه الموجه الرسمى الوحيد للعبادات - الزعيم الروحى لما يمارس فى المعابد من شعائر • وبرغم ذلك ظل سلطان الأرباب الزمنى يقتضى اشرافا لا يستطيع الملك أن يمارسه • ومن أجل ذلك ظهر منصب « المشرف على الوظائف الدينية كلها » منذ أيام الدولة القديمة يشغله أحد أعضاء الأسرة الحاكمة ثم يتول الى الوزير من بعد ذلك ، وكان ذلك المنصب يتيح لصاحبه - ممثلا للسلطة المركزية - ممارسة سلطان أعلى على رجال الدين والمعادلة بين نفوذهم كلما اقتضى الأمر •

على أن سياسة القصر أواخر أيام الدولة القديمة قد ضعفت وأدى ضعفها الى انحلال ادارى وسياسى • وسارع حكام الأقاليم فوضعوا أيديهم على كل ما استطاعوا ومن ذلك أمور العبادة فى أقاليمهم • وليس غريبا بعد ذلك أن نجد بين ألقابهم لقب « رئيس الكهان » وبذلك أصبحت ادارة المعابد تحت أيديهم •

وظهر في أيام الدولة الحديثة منصب « رئيس الكهان في الجنوب والشمال » وكان له من النموذ ما يعادل سلطات وزير يشرف على امور العبادات في مصر كلها ويتمتع بنفوذ ديني حقيقي .
وقد كثرت الاطماع حول هذا اللقب وامتدت النفوس اليه ، فكان من نصيب كبير الوزراء أول الأمر مما أدى الى تأكيد السيطرة على الادارة المركزية بحيث أصبح السلطان الزمى للآلهة بيد الملك ، على أن كهان آمون قد جدوا في السعى وراء هذا المنصب حتى بلغوه فكان من نصيب كبيرهم . وبذلك يتضح لنا ما كان لمعبودهم آمون من مكان في الدولة وما كان لكهانه من أثر في توجيه الحياة السياسية في البلاد . وتبدو مطامع هذا النصر في عهد تحوتمس الثالث . وأكبر الظن أن الكهان استطاعوا أن يبلغوا غاية قوتهم في ذلك الوقت ، ولكن أمرهم قد انعكس وبدأت المحنة ترسم خطوطها حتى كادت تؤدي بكهان آمون وتهبط بهم الى الهاوية .

مطالع الردة الى عبادة الشمس :

وبدأت مطالع الردة في أيام تحوتمس الثالث (١٤٨٣ - ١٤٥٠ ق م) . وكانت هذه الردة تهدف الى احياء المذهب الشمسي الذي نشأ قديما في عين شمس ثم أهمل أمره دهرها حتى كادت عبادة آمون تنسى الناس اياه . وكانت مسيرة الردة أول أمرها بطيئة فلم يظهر في أمر السيرة الدينية شيء من تناقض واضح ففرعون قد جدد بناء مجموعة ضخمة من دور العبادة التي هدمها الاهمال في الأعوام الأخيرة ، لكننا أراد بذلك أن يعبر عن رغبته في رد الحقوق الى المذاهب الدينية التي لا تتصل بآمون . ونالت دور عبادة الشمس نصيبا كبيرا من حركة الاصلاح وفي اعادة بناء معبد الشمس القديم في قرية « صخبو » بالدلتا دليل على الاتجاه الى الردة التي أخذ أمرها ينمو مع الزمن ، فأمينوفيس الثاني ونحوتمس الرابع قد بذلا جهودا واضحة في احياء بعض العبادات

فى اقليم منف ، من بينها عبادة « حور أختى » (التى يرمز اليها
سمال أبو الهول بالجيزة) . وفى عهد أمينوفيس الثالث فقد كيان
آمون ذلك المنصب الخطير وهو منصب « رئيس كهان الجنوب
والشمال » فلم يستطيعوا له ردا الا فى عهد رمسيس الثانى وان
كانت القطيعة بين أصحاب آمون وأصحاب مذهب الشمس قد
وقعت فى أيام أمينوفيس الرابع .

أزمة العمارنة :

لن يعدم الباحث الوسيلة لعرض صيا « أمينوفيس الرابع =
اخناتون » فى أسلوب قد يرضى عقول العلماء ويشبع رغبة
الاستطلاع لدى القراء . فالغربة فى تصوير الرسوم الملكية بشكل
غير مألوف يكاد يكون مزيجا من رقة تسببها العلة أو مس من
النييطان . وهناك ذلك السحر الذى ينبعث من صورة الملكة
نفرتى والذى لا يعتبر مصريا صميما ، ثم تلك الألفة بين أفراد
الأسرة الحاكمة كما تبدو فى الرسوم التى تصور حياتهم والتى أولع
رجال الفن بإبرازها إبرازا مؤثرا ، ثم ذلك الوحى بأسلوب صلوات
الشمس وهو أسلوب أكسبها حياة قوية مؤثرة . وان فى ذلك كله
ما يقدم لنا صورة قوية لأزمة العمارنة فى عصر من عصور التاريخ
كنا نعتقد أننا نعرفه معرفة حقه . وأنه لحدث تاريخي ونفسى قد
لا نهتدى الى فتح السبيل لمعرفته الا بعد وقت طويل . ترى هل كان
لونا من رد الفعل السياسى ؟ أو نزعة من نزعات النفوس الحساسة
المهفة الحس وشعورا دقيقا باتجاه دينى جديد يهدف الى الحب
والتآلف أكثر مما يهدف الى عبادة رسمية ؟ أم كان خلافا بين رجال
الدين ؟ لقد عرض الكتاب والمؤرخون لكل لذلك . ولكل تصور منه
نصيب من الحقيقة ، الا أن شيئا منها لن يستطيع أن يكون مفتاحا
لتفسير كل الوقائع .

مهما يكن من أمر ، فالنابت الذى لا يقبل الجدل هو أن أمينوفيس الرابع (اخناتون) قد هجر طيبة وهجر معبودها آمون ملك الآلهة الى مدينة جديدة قام هو بانشائها فى مصر الوسطى (مكانها الآن تل العمارنة الحالية) ، وجعلها كعبة لالهة الذى آمن به ورآه فى قرص الشمس الذى يملأ الدنيا بأشعته فيخال فيها اخناتون ألونا من الأيدى تمتد الى الكائنات بالحياة . لم يكن ذلك المذهب الذى ظهر بين يدى اخناتون مجرد مظهر جديد للتقوى يمكن أن يتلاقى مع ما سبقه من مذاهب وانما كانت عقيدة مفردة لا ترضى أن يكون بجانبها عقائد أخرى ، فغلقت دور المعابد وألغيت فيها العبادات ومحيت منها أسماء المعبودات ، وأقيمت للمذهب الجديد فى كل مدائن مصر - حتى فى الكرنك والى جوار معبد آمون - معابد أخرى

وكانت وفاة أمينوفيس الرابع ايذانا بنهاية المذهب الجديد فهذا سلفه الشاب توت عنخ آمون يهجر عاصمة الدين الجديدة « أخت أتون » أى « أفق أتون » ويعود الى طيبة فيصدر مرسوما بالغاء كل ما اتخذ من اجراء فى عهد سلفه ضد المذاهب القديمة . وبعد عشرين عاما من الصبر والتريص عاد كهان آمون الى سابق مجدهم بل أصبحوا أقوى مما كانوا فى أى وقت سبق . ولكن سرعان ما وجدوا أنفسهم مرة أخرى أمام خطر منافسين جدد .

حادثة ست :

وحين أخذت الأسرة المالكة الجديدة بزمام الحكم اهتمت برد الأمور الى حوزة النظام . وقد كان لديها من الأسباب ما يكفى ليجعلها على حذر من كهنة آمون . وقد نسل الملوك الجدد أسرة محاربة فى شرق الدلتا ، وتدين دين معبود حظه من ولاء جماهير الشعب ضئيل بسبب الدور الذى اضطلع به فى مصرع أخيه

أوزيريس ، ومع ذلك لم يفقد نصيبه من العبادة فى بعض أماكن متفرقة وذلك هو الالهـ « ست » . ولقد أظهرت نجربة العمارنة ما يمكن أن تؤدى اليه القطيعة بين أصحاب العقائد التى يدين بها الناس فى الدولة ، فهى لا تؤدى الى الدخول فى حرب سافرة ضد هيئة دينية لها من القوة الفعلية ما للملكية نفسها . ومن أجل تغبر السلوك السياسى فى عهد كل من سيتى الأول (١٣١٢ - ١٣٠١ ق . م) ورمسيس الثانى (١٣٠١ - ١٢٣٥ ق . م) عن سلوك أسلافهما ، فلم تمهل طيبة بل اتصلت بها اقامة المنشآت وارتفعت المباني الشامخة تمجيذا لآمون وما زالت آثار ذلك باقية فى الكرنك (صالة الأعمدة) و آثار معبد سيتى فى القرنة ومعبد رمسيس الثانى فى الرامسيوم . ولم يهمل رمسيس اقليم أييدوس فبنى فيها وعمر واختار منها رئيسا لكهنة آمون وعطف على العبادة فى منف وهليوبوليس كما عين اثنين من أبنائه هما « مرى أنوم » و « خع أم واست » كبيرين للكهنة ، أولهما لكهنة رع والثانى لكهنة بتاح . وتشير كثرة عمائره الى رعايته المتزايدة لآلهة الجنوب والشمال . وحين أقنع نفسه بما أدى فى هذه الناحية ، هجر طيبة وكهانها الجشعين الى عاصمة أقامها فى شرق الدلتا وسماها « بررمسيس » وفيها استطاع مطمئنا أن يرعى عبادة رب آبائه الأولين بحيث ظهر آمون وكأنه غدا صاحب المرتبة الثانية .

وبرغم كل ما بذل من عناية ورعاية لتلك الازباب الثلاثة الكبار (آمون ورع وبتاح) لم تخف عناية كل من سيتى وولده رمسيس بمعبودهما الأصيل « ست » ، وان كانا قد فعلا ما فعلا فى حكمة وحذر بالغين ، فقا كانا يدركان ما تنطوى عليه قلوب الجماهير من كره « ست » الذى كان قاتلا ومسئولا عن عتصرع أوزيريس . وقد كان لما قام به الملكان سيتى ورمسيس من عمل فى هذا الشأن ما أرضى قلوب الاوزيريين . فقد بادر أولهما الى بناء

معبد رائع لأوزيريس فى عاصمته أبيدوس ، وفعل ولده رمسيس مثل ذلك ، ثم بالغ فاختر من هذه المدينة كبير كهان آمون . فلم يفكر أهلها - حين رأوا اهتمام الملكين بمعبود أسرنهم «ست» - فى أن فى ذلك ما يشير الى اهمالهما ، وانما اعتبروه اهمالا لأصحاب آمون . وقد تلقت العواصم الاقليمية التى كان يعبد فيها «ست» منذ الأزمان الغابرة مثل كوم امبو وتجبو (١) وسبرمرو (٢) بعض الأبهة الجديدة نتيجة للاهتمام الذى لقيه اله شرق الدلتا . وزهت «برمسيس» العاصمة الجديدة بخاصة بما عاد اليها من مظاهر الحياة الدينية التى سبق أن أحيط بها ست فى مدينة الهكسوس «أواريس» .

وهكذا توصل «سيتى ، ورمسيس» - بعد قطع الصلات بآمون - الى التقليل مما كان له من خطر ، كما أفاد اهتمامهما العظيم بأوزيريس ورعايتهما اياه فى تخفيف موجة الكره التى كان يحملها الناس فى صدورهم للمعبود «ست» الذى حظى فى بعض الاقاليم بشيء من الرضا . كان ذلك نتيجة لوعى سياسى رائع لم يدم فى زمن من خلفوا هذين الملكين ، سيتى الأول ولده رمسيس الثانى .

ولم يخف على التابعين من كهان آمون ما استتر وراء ظهور «ست» والرعاية التى حظى بها كل من المعبودين رع وبتاح فى شمال الوادى . فهم قد كانوا يدركون ما ملأ قلوب الحاكمين من ريبة فى خطر آمون وأصحابه ، فالايام كانت لا تزال تذكر ما كان لهذا الخطر من أثر مقلق أيام أزمة العمارة .

-
- (١) اسم ثرية بالعرب من أسيوط يحمل الآن اسم «العثمانية» (الترجمة) .
(٢) عرف اسمها من الأساطير ، اذ كثيرا ما افترنت باسم الاله ست . لم يعرف مكانها على وجه الدقة الا أنه يمكن تحديدها الى الجنوب من البهنسا (الترجمة) .

ولم تشأ ظروف الحياة يومئذ أن يطول قلق كهان آمون فتم لهم انصر واستردوا سلطانهم الأول ، ذلك لأن اهتمام الأسرة الجديدة بعبادة « ست » لم نهم أكثر من عشرة أعوام ، استيقظ الكره على أثرها فى النفوس ، وعادت إليها سيرته البغيضة وصورها التى تبلورت جميعاً فى مصرع أوزيريس ، وفيما سببه ذلك من توالى المحن الدينية السياسية تنزل بالبلاد تباءاً خلال القرون التى ختمت على تاريخ مصر الوطنى بدخول الاسكندر .

الملوك الكهان :

كان لخروج كهان آمون من المحنتين الخطيرتين (أيام العمارنة وفى صدر أيام الرعامسة) من ناحية ، ثم للفتور الذى بدأ واضحاً فى النشاط السياسى الذى شمل حياة الملوك من أواخر أيام الرعامسة من ناحية أخرى ، أثر بالغ فى تغيير سيرة التاريخ ، فهم - على الرغم من ظهورهم بمظهر الحماة المؤيدين للملوك - قد كانوا يسعون الى السلطان ويمدون آمالهم الى العرش مداً فوياً . وآية ذلك أنهم لم يروا فى سبيل رفع كبيرهم على العرش من الموانع والعوائى ما يحول دون ذلك . واذا كانت محاولتهم الأولى قد فشلت - حين استطاع رمسيس الحادى عشر أن يطيح بكبيرهم أمنحتب - فإن الوقت لم يطل عليهم فى العودة الى مواصلة جهودهم فى هذه السبيل ، فلا يكاد « حريحور » أحد كبار العسكريين يبلغ منصب كبير الاحبار حتى انطلق الى غزو القصر مؤيداً بقوة الجيش وسائر رجال الدين ، وأن يبلغ العرش فيقاسم من عليه حكم البلاد . ولم يلبث سلطان الملك حتى أخذ ظله يتقلص لينمحى ، وآية ذلك أن يظهر اسم « حويحور » مرسوماً فى « خرطوش » . وتمضى الأيام سريعة فيدال من الملوك الى الكهان .

وأظهرت الابام أن قضاء التاريخ قد أراد لسلطان مصر أيام حكم الكهنة أن يكون فى ميزان مختل ، فالدنيا قد عرفت لمصر

نشاطها السياسى وخطرها العسكرى فى الخارج منذ أيام نهضتها المعروفة ، وها هى اليوم خلال حكم الأسرة الواحدة والعشرين تفقد هيبتها نظرا لانعدام ذلك النشاط ، وتظهر آثار ذلك فى الشرق والجنوب ، وانقطع عن مصر مددها المادى الذى كان يأتيها تباعا • وتجرى أمور الحكم فى مصر بين أيدي الكهان تحت راية ربهم آمون، فباسمه تصدر المراسيم ، وباسمه تظهر النبوءات التى نسيناها الناس بها لسائر ما يطرأ على حياتهم من أمور الدنيا •

وتجربى الايام بالناس ويتنافس رجال الدين شمال الوادى وجنوبه ويفيد كهان الشمال من هذا التنافس ويظهر كيان «باستت» فى سايس ويفتر نشاط نظرائهم من أصحاب آمون فيأخذهم من الحياة سبات عميق وقد كان خلُق نظام سلطان من سموها «الزوجة الالهية» أثر كبير على اضعاف سلطان الكهان وبخاصة بعد أن أصبح أمر الخلافة فيه يقوم على الانتخاب • ولا يلبث الامر حتى يضيع بين أيدي رجال السياسة الوطنيين وسلطان الغزاة الاثيوبيين من بعد ذلك تليهما سلطة الصاويين •

القرون الاخيرة من تاريخ مصر القومى :

أبدى ملوك الأسرة الحديثة اهتمامهم بطائفة من المعابد مثل معابد سايس - وهى عاصمتهم الأولى - وبسائر المعابد الأخرى فى العواصم والقرى • وقد اتبع فى شأنها نظام ثابت من حيث تزويدها بضياى من الأرض ، فضلا عن اعفائها من الضرائب • ولم يكن لديهم بعد ذلك ما يدعو الى الخوف من هذه المدن الصغيرة التى زاء عددها زيادة كبيرة ، ولامن منافسة بعضها بعضا فى سبيل الثروة والانراء • وعلى العكس من ذلك كانت منطقة طيبة البعيدة تشكل خطرا حقيقيا على سلطان القصر ، وطمع ملوك العصر الصاوى فى تطبيق حقهم فى الاشراف على حياة الكهان فيها تطبيقا عمليا ظهر أثره فى اختيار

أميرات من الشمال لشغل منصب « الزوجات الالهيات » ، وفى تعيين شخص آخر الى جانب رئيس كهنة آمون . وبذلك استطاع الملك أن يسترد سلطانه فى الاشراف على المعابد ، وفى ذلك ما بين عودة السلطة الدينية الى يد فرعون ، وان لم يكن لدينا ما يشير الى مصير الكهنة المصريين خلال القرون السادس والخامس والرابع قبل الميلاد ولا مدى قدرتهم الفعلية وآمالهم فى استرجاع سيادتهم على البلاد . وغدت طيبة فى حالة اضمحلال واضح ، فعمليات النهب التى قام بها الآشوريون عام ٦٦٣ ق.م ثم سيطرة الملوك الصاويين على أمور العبادة فى البلاد قد هونت أطماعهم . وزادت مظاهر اهتمام الشعب بعبارات أخرى مستندة الى تأييده المتصل ، وبخاصة عبادة أوزيريس وايزيس وأصبحت لعبادتهما مصليات فى كل مكان تقريبا . وفى زمان الأواخر من الملوك الوطنيين من آل « نقتانبو » بدى بتنفيذ برنامج ضخم لتشييد العمارات الدينية . ونالت العمارات الدينية تباعا حفاها من الرعاية ، فأقيمت لها الأبواب الجديدة وضربت من حولها الاسوار . كما أخذ العمل المعماري يجرى فى نشاط متصل وبخاصة فى معبدى ايزيس فى فيلة وبهبيت الحجر . وبذلك بدت مصر وقد استكملت مظهرها المعماري عندما غربت شمس حياتها القومية بدخول الفرس ودخول الاسكندر المقدوني فى أعقابهم عام ٣٣٢ ق.م .

العصران الاغريقي والرومانى :

ترى كيف كان مصير كهان مصر أيام الحكم البطلمى ؟ سبق أن أشرنا الى غرابة التبادل المادى الذى تضمنته الصلة بين الملوك والكهان ، فقصد ظل هؤلاء أقوياء بحيث كانوا يستطيعون خدمة السلطة المركزية بطريقة فعالة ، آيتها تأكيد حق الملك الشرعى فى قلوب الشعب مقابل ما يمنحهم الملك من امتيازات مادية ضخمة .

على أننا نرى فى الصور التاريخية للعلاقة بين الدين والدولة أيام البطالة رغبة الدولة المتصلة فى التمييز بين الآلهة ورجال الدين فهى تعطى من تشاء وتمنع من تشاء . ولم يسكت الكهان بطبيعة الحال ، بل جاهدوا حتى انتصروا وكانت لهم الكلمة آخر الامر . كانت للمعابد أوقاف متسعة من الارض الا أن ادارتها ونحصيل غلاتها أوائل عهد الحكم البطلمى لم تكن بأيدي الكهان ولكنهم قد جاهدوا حتى استردوا الحق . وقد صدر بذلك مرسوم عام ١١٨ ق.م هذا نصه : « ليس لأحد الحق فى أخذ ما كان من وقف الآلهة ، أو تعذيب من يكلف بتحصيل إيرادات هذا الوقف ، ولا حق رفع قيمة الضرائب ، ولا حق تحصيل ضرائب . . على ما أوقف للأرباب من أرض ، ولا ادارة مساحات الأوقاف المقدسة أيا كانت الأسباب ، بل ينبغى أن تترك ادارتها للكهنة » . ومن ذلك نرى أن الملك قد رجع عن أطماعه فى موارد الكهان وفى أوقاف المعابد المقدسة ، وبدخول الرومان الذين غزوا مصر عام ٣٠ ق.م زال سلطان الكهان الذاتى ، وذلك بوضع معابد مصر تحت اشراف « الايدولوجى » وهو « كبير كهان الاسكندرية ومصر جميعا » فكان هو الذى يصدر أوامره الى منفذى الخطط العسكرية كافة والى من عليهم تنفيذ بقية الأوامر وكانوا كلهم خاضعين للسلطة المركزية . وقد ظل هذا النظام قائما الى أن صدر قرار الامبراطور النصرانى « ثودوزيوس » (٣٨٤ للميلاد) بإغلاق معابد مصر جميعا . وذلك ختم على عهود الوثنية القديمة فى مصر .

أحداث تاريخية

التاريخ	التاريخ الرسمي	الوقائع الدينية
٣٠٠٠ ٤٨٠٠	ميناء أول ملك الإمبراطورة الثالثة : « زوس »	الهرم المدرج بسماترة بداية المعمسرة الحجرية . أهرام ومصاطب الأفراد (قوبرهم) بالجيز . أهرام صغيرة بسماترة وهيلوبوليس وديانة الشمس .
٢٦٠٠ - ٢٧٠٠	الأسرة الرابعة : « خوفو » و « خفرع » و « منكاروع » الأسرة الخامسة	ازدهار العمارة الأوزيرية التي أصبحت إبيدوس مركزا لها وظهر متون التوابيت .
٢٤٠٠ - ٢٦٠٠ ٢٠٠٠ - ٢٤٠٠	الأميرات من ١٦ إلى ١٠ نهاية الدولة القديمة وعصر الاضمحلال الأول « ثيودورسوس » المصري	

الوقائع الدينية	التاريخ الرسمي	التاريخ
<p>أهم -ram الفيوم بعيرة مويريس - الايدينت - ظهور الاله آمون - الاعتحام بالهة الفيوم *</p>	<p>الأسرات من ١٢ الى ١٤ : المدولة الوسطى : الملوك أمنمحات وسنوسرت عصر الاضمحلال الثاني واختلال الهكسوس مصر ثم النهوض مرة أخرى</p>	<p>١٧٥٠ - ٢٠٠٠ ١٧٥٠ - ١٥٨٠</p>
<p>ازدياد السلاطن الزمئي لآمون اله طيبة *</p>	<p>الأسرة ١٨ الملوك امنحتب وتحتمس</p>	<p>١٥٨٠</p>
<p>صبأ العمارنة : العبادة الوحيدة لاتون قرص الشمس *</p>	<p>أمنحتب الرابع - آخناتون - نقرتي توت عنخ آمون *</p>	<p>١٣٧٢ - ١٣٤٣</p>
<p>ردة الى المذهب الاصيل الاعتحام بالاله ست ورع رب هليوبوليس وبتاح رب منف نهب المقابر الملكية ، استيلاء كسار كهان طيبة على السلطة</p>	<p>الأسرتان ١٩ ، ٢٠ - الرعامسة أواخر الرعامسة</p>	<p>١٣٤٣ ١٣١٤ - ١٠٨٥ ١١٠٠</p>
<p>نبرعات ومراسيم الهية . نمو طوائف الكهان المحليين وبخاصة في الدنيا *</p>	<p>الملوك الكهان والأسرات الحاكمة في الدنيا *</p>	

الوقائع الدينية	التاريخ الرسمي	التاريخ
<p>الاشوريون يخربون طيبة • الاهتمام بأرباب المدن « نيت » و « أنيريس » و « أوريزيس » • العودة الى القديم •</p> <p>تزايد الاهتمام بتقدير الجيسوانات المقدسة والسحر الشعبي •</p> <p>إعادة بناء معابد مصر •</p> <p>بناء أكبر المعابد : أدفو وفيلقوبهيت واسسنا ومدهود وكوم امبو ودندرة • عبادة سيرابيس •</p> <p>إغلاق معابد مصر</p>	<p>الغزو الآشوري الأسيرة ٢٦ (الصابوية) : إعادة غزو البلاد •</p> <p>الغزو الفارسي</p> <p>الأسرات من ٢٨ الى ٣٠ الاحتلال الفارسي الثاني الاسكندر يغزو مصر ملوك البطالة</p> <p>مصر في حوزة الامبراطورية الرومانية • ثيودوسيوس • النصراني</p>	<p>٧٣٠</p> <p>٦٦٣</p> <p>٥٢٥</p> <p>٤٠٠ - ٣٤٠</p> <p>٣٤١ - ٣٣٢</p> <p>٣٣٢</p> <p>٣٠ ميلادية</p> <p>٣٨٤</p>

فہرس

٣	مقدمة
٩	اختارة غير قديمة	نصوص	من	فكر مستوحاه	الباب الاول :	
٣٣	منصب الكهانة	الباب الثاني :			
٥٧	دور العبادة	الى حياة المجتمع	الباب الثالث :			
٨٣	المقدس	اوجه النشاطات	الباب الرابع :			
١٢١	العلم المقدس	الباب الخامس :			
١٨٧	الثبوت والتجسس	حفظ كهان مصر من السقوط	الباب السادس :			

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣١٦٦/١٩٧٥